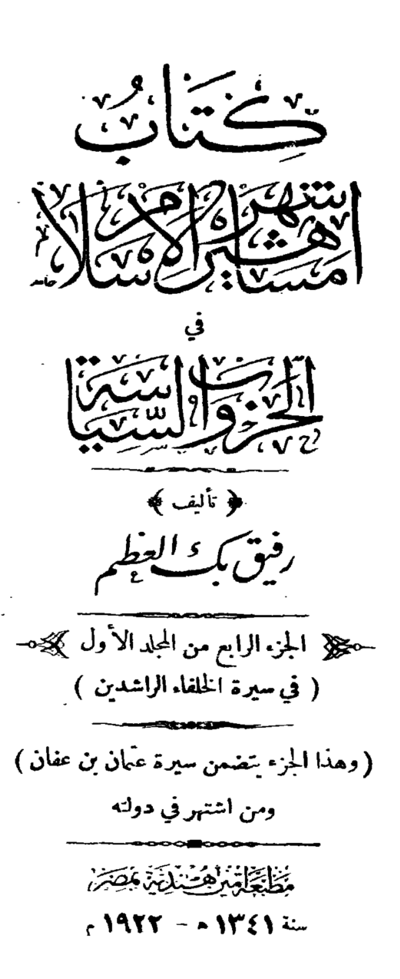


كتاب

أشهر مشاهير الإسلام

في

الحرب والسياسة

﴿ تأليف ﴾

رفيق بك العظم

الجزء الرابع من المجلد الأول

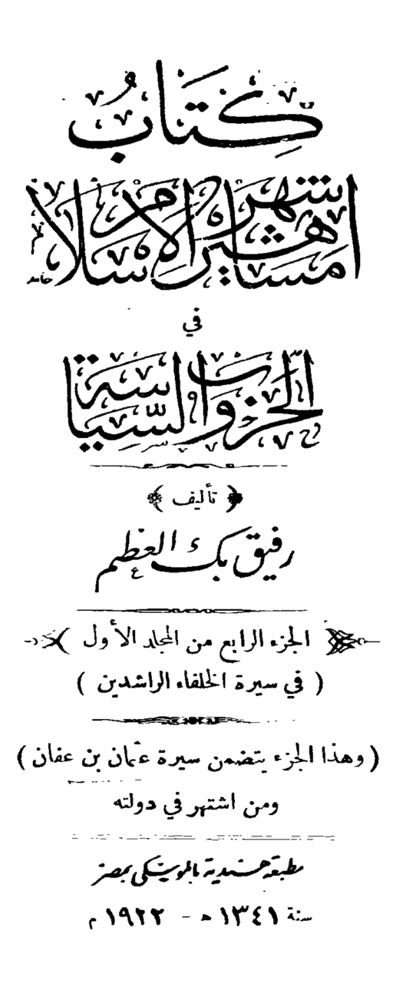
(في سيرة الخلفاء الراشدين)

(وهذا الجزء يتضمن سيرة عثمان بن عفان)

ومن اشتهر في دولته

مطبعة أمين هندية بمصر

سنة ١٣٤١ هـ - ١٩٢٢ م



كتاب
أشهر مشاهير الإسلام
في
الحروب والسياسة

﴿ تأليف ﴾

رفيق بك العظم

الجزء الرابع من المجلد الأول

(في سيرة الخلفاء الراشدين)

(وهذا الجزء يتضمن سيرة عثمان بن عفان)

ومن اشتهر في دولته

مطبعة هندية بالموسكي بمصر

سنة ١٣٤١ هـ - ١٩٢٢ م



عثمان بن عفان



باب

(حاله في الجاهلية)

(نسبه وأصله)

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أميـة بن عبد شمس بن عبـد مناف بن قُصيّ القرشي الأموي يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبد مناف يكنى أبا عبد الله وأبا عمرو وكنيتان مشهورتان له وأبو عمرو أشهرهما ولد في السنة السادسة بعد الفيل أمه اروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي وأمها البيضاء ام حكيم بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم

(صناعته ومكانته في قومه)

كان عثمان رضي الله عنه تاجراً بزازاً كما ذكرنا ذلك في صـدر الجزء الأول وقدم الشام مرة في تجارة في رواية لابن عساكر وكان غنياً كريماً حسن الشيمة محببا في قومه مأمونا عندهم محترما لديهم يدلك عليه ما أخرجه ابن عساكر عن الشعبي قال : كان عثمان في قريش محببا يوصون اليـه ويعظمونه وان كانت المرأة من العرب لترقص صبيها وهي تقول

أحبك والرحمن حبّ قريش عثمان

باب

اسلامه وصحبته

(اسلامه)

كان اسلامه بدعوة أبي بكر رضي الله عنه وكان لابي بكر نظر واختيار ومعرفة برجال قريش وأخلاقهم وكان لقريش ثقة به وركون اليه ولعلمه بنقاء ضمير عثمان وسعة مداركه وسلامة طبعه من شائبة العناد والمكابرة دعاه الى الاسلام هو والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله كما في أكثر كتب الاخبار والحديث فاجابوه واسلموا فكانوا من السابقين الاولين الذين لهم فضل السبق وفضيلة القيام بنصرة الحق ومضافرة النبي صلى الله عليه وسلم على وضع اساس التوحيد الذي هدم بعد اركان الوثنية واستفاض نوره في ارجاء الارض وكان لعثمان رضي الله عنه نصيب كبير من الخدمة الخالصة للاسلام ومعاضدة نبيه عليه الصلاة والسلام كما سترى بعدُ

لا ريب في ان الاسلام انما قام بقوة الهية وروح عالية اودعت فيه وجعلته سهلا مقبولاً لدى العقول حقيقاً بالنمو والانتشار لكن هذا لا يمنعنا ان نقول ان النفر الذين سبقوا الى تلقيه كانوا دعامة الاسلام وممهدي طريقه وناصري دعوته والقدوة الصالحة للعرب في اتباعه لما انهم من اخيار قريش ووجوه العرب وصريح ولد اسماعيل لذا اثنى عليهم القرآن وقربهم منه النبي عليه الصلاة والسلام ومما رواه ابن الاثير في أسد الغابة عن ابن عباس ان قوله تعالى (ونزعنا ما في صدورهم من غل) الآية نزلت في عشرة: أبي بكر: وعمر: وعثمان: وعلي: وطلحة: والزبير: وسعد: وعبد الرحمن بن عوف: وسعيد بن زيد: وعبد الله بن مسعود: ومن قرأ تاريخ النبي محمد

صلى الله عليه وسلم وتاريخ دعوته بامان علم فضل عثمان واخوانه من السابقين رضوان الله عليهم بسبقهم للاسلام وقيامهم باعباء الدعوة وتمهيدهم السبيل لنشر كلمة التوحيد بتلك السرعة المعروفة مع ما يعهد من امر كل دعوة من البطء في السير والمناهضة التي تلقاها من امراء العوائد والتقاليد في كل الأمم فجزاهم الله عن الامة الاسلامية خير الجزاء

(صحبته)

كان في صحبته محبوبا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مكرما عنده عزيزاً عليه فحباه من كرامة المصاهرة بينتيه بما يغبط عليه تكريماً له وتقديراً لحسن بلائه في الاسلام واخلاصه في تأييد الدعوة ومبادرته لتلقي كلمة التوحيد فقد روى ابن الاثير في أسد الغابة وابن عبد البر في الاستيعاب وغيرهما من المحدثين واهل الاخبار ان عثمان لما اسلم زوَّجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبنته رقيَّة (وفي رواية السيوطي انه تزوجها قبل النبوة) وماتت رقية في السنة الثانية من الهجرة يوم ظفر رسول الله بالمشركين في وقعة بدر وكان عثمان (رض) تخلف في المدينة لاجل تمريضها فضرب له رسول الله (ص) بسهم فعد لذلك بدرياً وان لم يحضر وقعة بدر ثم زوجه بعدها بأبنته أم كلثوم ولذا سمي ذا النورين اي لانه كان ختن رسول الله على بنته وتوفيت أم كلثوم في السنة التاسعة من الهجرة فلما توفيت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو انّ لنا ثالثة لزوجناك وهذا يدل على مكانته عنده وثقته به وحبه له

ويحق له ان يرى من نبيه مثل هذا التفضل لتفانيه في طاعته واداء واجب الصحبة له وصبره بين يديه على المكاره واستمساكه بعروة الاسلام وبذله ماله في سبيله وتحمله الاذى من اجله ومن ذلك ما اخرجه ابن سعد

عن محمد بن الحارث بن ابراهيم التيمي قال : لما أسلم عثمان بن عفان اخذه عمه الحكم بن ابي العاص بن أمية فأوثقه رباطاً وقال ترغب عن ملة آبائك الى دين محدث والله لا أدعك ابداً حتى تدع ما أنت عليه . فقال عثمان والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه :

ولما رأى انّ اضطهاد قريش له واقع لا محالة وانّ الفرار بدينه أسلم هاجر الى الحبشة مع رقية بنت رسول الله (ص) فكان أول من هاجر ففي رواية عن أنس قال : اول من هاجر الى الحبشة بأهله عثمان بن عفان فقال النبي (ص) صحبهما الله انّ عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط : ثم هاجر الهجرة الثانية الى المدينة

ومما يؤثر عن كرمه العجيب وبذله العظيم في سبيل الله ورسوله وفي منفعة المؤمنين تجهيزه جيش العسرة بالف بعير فقد نقل في الاستيعاب عن قتادة قال : حمل عثمان في جيش العسرة على ألف بعير وخمسين فرساً ونقل في رواية اخرى انه جهز جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيراً وأتم الالف بخمسين فرساً وجيش العسرة كان في غزوة تبوك

واخرج الترمذي عن أنس والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان الى النبي (ص) بألف دينار حين جهز جيش العسرة فنثرها في حجره فجعل رسول الله يقلبها ويقول — ماضر عثمان ماعمل بعد اليوم — مرتين

ومن هذا القبيل أيضاً ابتياعه بئر رومة وجعلها للمسلمين يستقون منها وتحرير الخبر على ما نقله ابن عبد البر في الاستيعاب ان بئر رومة كانت ركية ليهودي يبيع المسلمين ماءها فقال رسول الله (ص) : من يشتري بئر رومة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه في دلائهم وله بها مشرب في الجنة فأتى عثمان

اليهودي فساومه بها فأبى ان يبيعها كلها فاشترى نصفها باثني عشر الف درهم فجعله للمسلمين فقال له عثمان (رض) ان شئت جعلت على نصيبي قرنين [١] وان شئت فلي يوم ولك يوم : قال بل لك يوم ولي يوم . فكان اذا كان عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين فلما رأى ذلك اليهودي قال أفسدت عليّ ركيتي فاشتر النصف الآخر فاشتراه بثمانية آلاف درهم [٢]

ومن هذا القبيل أيضاً زيادته في مسجد رسول الله (ص) من ماله وذلك ان رسول الله (ص) قال : من يزيد في مسجدنا : فاشترى عثمان موضع خمس سوار (جمع سارية) فزاده في المسجد . هكذا ذكره ابن عبد البر و رواه غيره بهذا المعنى أو ما يقرب منه

وبالجملة فقد كان عثمان رضي الله عنه جليل الاعمال جميل الصحبة حريصاً على رضا النبي صلى الله عليه وسلم بذولا للمال فيما يرضيه وينفع المسلمين لهذا اجل النبي (ص) قدره ونوه باسمه وقد وردت عن النبي (ص) احاديث كثيرة تشهد بفضله فليراجعها من احب في كتب الحديث وحسبه انه أحد العشرة الكرام حواري النبي عليه الصلاة والسلام وأحد الستة الذين جعل عمر فيهم الشورى واخبر ان رسول الله توفى وهو عنهم راض وأحد الصحابة الذين جمعوا القرآن بل قال السيوطي قال ابن عباد : لم يجمع القرآن من الخلفاء الا هو والمأمون : وقد شهد مع النبي (ص) بعض المشاهد وكان يستخلفه على المدينة في بعضها ولم يحضر واقعة بدر كما تقدم السبب ولا بيعة الرضوان لان هذه كانت من اجله وذلك لما ارسله رسول الله الى أهل مكة رسولاً ليخلوا بينه وبين العمرة وجاءه الخبر الكاذب بان عثمان

---

(١) حبلين (٢) وفي بعض الروايات ان عثمان هو الذي حفر بئر رومة

قد قتل فجمع اصحابه فدعاهم الى البيعة فبايعوه على قتال اهل مكة يومئذ ثم جاءه الخبر بان عثمان لم يقتل وهذا يدلك على مكانته عنده وحبه له

اخرج الترمذي عن انس قال لما امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رسول رسول الله الى اهل مكة فبايع الناس فقال النبي (ص) : ان عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله . فضرب باحدى يديه على الاخرى فكانت يد رسول الله (ص) لعثمان خيراً من أيديهم لانفسهم :

باب

(خلافته والشورى وكلمة في البيعة أو الخلافة والدين)

﴿ كلمة في الخلافة والدين ﴾

علم القارئ مما بسطناه في الجزء الاول والثاني عن كيفية استخلاف ابي بكر وعمر رضي الله عنهما وبيعتهما ان الاولى اعتدها عمر فلتة وقى الله المسلمين شرها لانها لم تكن شورى بين المسلمين ومع ذلك فقد رضيها المسلمون أتم رضى ولم يخالف على أبي بكر احد من الصحابة ورضي بها من خالف ولو بعد حين . وان الثانية تمت لعمر بعهد من أبي بكر ثم برضا الامة وانّ عمر ترك الخلافة بين ستة ليختاروا منهم واحداً ويؤخذ من مجمل ما نقلناه بهذا الصدد ان البيعة وان كان يتوقف عقدها على رضى الجمهور الا انها لم تتأسس على قاعدة محض الاختيار اعني اختيار الامة او من ينوب عنها من أهل الحل والعقد ولو تأسست على تلك القاعدة لكانت الحكومة الاسلامية اقرب للجمهورية منها للملكية وكذلك لو استمر العهد بالخلافة من واحد الى آخر على شرط تقيد الامير بقانون الشورى لكان اسلم عاقبة وأسد

لذرائع الخصام والانقسام كما قال ذلك معاوية بن أبي سفيان لابن حصين حين وفد عليه (١) ولكن لما لم تكن كذلك واخذ اصل البيعة شكلاً بين شكلين شكل الشورى وشكل الاستبداد او شكل الاطلاق والتخصيص تولدت في ثنايا الخلافة جراثيم النزاع حتى افضى الامر بعدُ الى التغالب والغالب بالضرورة قهار فلما يراعي اميال الامة وتحري قاعدة الشورى التي نوَّه بمحاسنها الشرع فلا جرم ان تستحيل حكومة ذلك مآل رياستها الى استبداد قاهر بعيد عن مقاصد الاسلام غالب للمسلمين على امرهم كما حصل بعدُ وكان سبباً عظيماً لكمون الضعف في ثنايا القوة المريعة التي قامت بها دول

(١) قالوا أن زياد بن أبيه اوفد ابن حصين على معاوية فخلا به ليلة فقال له يابن حصين قد بلغني أن عندك ذهناً وعقلا فاخبرني عن شئ أسألك عنه. قال سلني عما بدا لك قال اخبرني ما الذي شتت أمر المسلمين وملاهم وخالف بينهم قال نعم قتل الناس عثمان قال ما صنعت شيئاً . قال فسير عليّ اليك وقتاله اياك . قال ما صنعت شيئاً . قال فسير طلحة والزبير وعائشة وقتال علي اياهم . قال ما صنعت شيئاً . قال ما عندي غير هذا يا امير المؤمنين . قال فانا اخبرك أنه لم يشتت بين المسلمين ولا فرق اهواءهم الا الشورى التي جعلها عمر الى ستة نفر وذلك ان الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فعمل بما أمره الله به ثم قبضه الله اليه وقدم أبا بكر للصلاة فرضوه لامر دنياهم اذ رضيه رسول الله (ص) لامر دينهم فعمل بسنة رسول الله وسار بسيرته حتى قبضه الله واستخلف عمر فعمل بمثل سيرته ثم جعلها شورى بين ستة نفر فلم يكن رجل منهم الا رجاها لنفسه ورجاها له قومه وتطلعت الى ذلك نفسه ولو انّ عمر استخلف عليهم كما استخلف ابو بكر ما كان في ذلك اختلاف اهـ

وقول معاوية هذا فيه روح من الحق والصواب ولكن عمر رضي الله عنه لم يرد فيما صنع الا الخير لانه رأى ان لا يحمل تبعة الخلافة ميتاً كما تحملها حياً فلم يعهد الى شخص بعينه وخاف ان يتركها لرأي الامة واختيارها فيقع الخلاف الذي اشار اليه معاوية ووقع من حيث ظنه عمر رضي الله عنه لا يقع

الاسلام حتى اذ آن اوان الراحة والنزوع الى التمتع بجني الاسلام أخذ ذلك الضعف يظهر فى كل جزء من اجزاء الامة وفي كل عضو من اعضائها حاكما كان أو محكوما حتى بلغ لهذا العهد غاية تنذر بانحدار سريع : لا وقوف معه : من شاهق ذلك المجد القديم والقوة الماضية التي بلغت في عصرها أقصى ما تبلغه قوى الدول القائمة في ابان زهوها

انّ الدول ما زالت تقوم وتقعد وتضعف وتقوى والأمم كذلك غاية ما في الامر انّ الضعف اذا تناهى يغير احيانا شكل الأمم كما لو قيل انّ الرومان أخلفهم الطليان وانّ اليونان أخلفهم البزنطيون وانّ هولاء أخلفهم الاروام والاصل في الحقيقة لكل شعب واحد تقمص قديمه بجديده فى شكل آخر ولو مزيجاً واقام له دولة غير الاولى . وهكذا الشأن في كل أمم المغرب مع ما لاقته من ضروب الشقاء والاستبداد وما انتابهـا من القوة والضعف فانها ما زالت تسقط وتقوم وتعالج انواع الارزاء ، وتحاول بعد الهبوط الى الحضيض العروج الى السماء ، حتى بلغت من الحياة هذا المبلغ الذي يرى الآن ، وتقمصت فى شكل جديد لم ترَ مثله عين الزمان

رب سائل يسأل كيف اذن لم يتلاف المسلمون امر ذلك الضعف واستمروا منذ أخذوا بالتقهقر في منحدرهم الذي لا نهاية له غير الموت والخذلان مع ما يشاهدونه من حال الملل الاخرى التي صار اليها ملك الاسلام . فالجواب عنه ان ذلك الضعف الذي اشرنا الى انه كمن في ثنايا القوة منذ تأسست دولة المسلمين انما منع المسلمين عن تلافيه بل وألجأهم للاعراض عن معالجته امران : الاول : ما قدمناه من عدم توفر شروط الشورى والاختيار فى البيعة بحيث اخذت الخلافة شكلاً ترك ثغرة كبرى للولوج

اليها من طريق القوّة والتغالب فاوجد نزاعاً مستمراً من اجلها فى الامة أفضى الى مصير الامر ليد الغالب والغالب لايتقيد بالشورى ولا يجاري رغائب الأمة بالضرورة

والامر الثاني اصطباغ الدولة منذ نشأتها بصبغة دينية مهدت السبيل لاولياء أمر الأمة بعد الخلفاء الراشدين الاخذ على أيدي الرعية وأفواهها باسم الدين وجعل الحياة السياسية للأمة حياتا دينية لا سبيل معها لنوابغ الأمة وعقلائها للتنقل بها فى مدارج الرقي الطبيعي الذي تقتضيه حالة كل عصر سواء كان في حياة الامم السياسية أو حياتها الاجتماعية لاسيما بعد ان قالوا بحرمة الاجتهاد ووقفوا عند حد محدود من الفروع وهذا ماجعل ذلك الضعف الكامن ينمو في جسم الأمة نموّا جعلها تأنس بحياة السكون والاستسلام وتعطى بأزمتها الى الامراء والحكام حتى فى عصر زال فيه الاعتقاد بوجوب الطاعة العمياء للامراء وجوبا دينياً وعرف أكثر عقلاء المسلمين ان الدين لن يكون مانعا من قيام الدول على قاعدة مراعات الاصلح وانما هو تأثر النفوس بحكم العادة المألوفة للاباء أخذ باعنة الابناء الى سلوك سبيل الاقتداء

واعلم ان الشارع جوّز الاجتهاد باحكام المعاملات دون العبادات وهي العقائد والاعمال لان الاولى تتعلق بمصلحة المسلمين الدنيوية والثانية تتعلق بمصلحتهم الدينية والنصوص الدينية لااجتهاد فيها لانها قطعية واما المعاملات فقد اعتبرها الشارع دنيوية وأجاز فيها الاجتهاد تيسيراً على الأمة في وضع الاحكام بازاء الحوادث التي لا تتناهى . هذا في المعاملات فما بالك بامور الأمة السياسية التي يناط بها قيام الدول لاجرم انهـا أولى ان تعتبر دنيوية

وان تكون حياة لذلك المسلمين السياسية غير حياتهم الدينية . ولا يعترض هنا انّ الكتاب الكريم أمر بالشورى ووعد المؤمنين بالاستخلاف فى الارض وانّ فى هذا اشارة الى كيفية وضع الحكومة ووجوب كونها شورية فاستلزم ذلك ان تكون دينية اذ هذه اصول او كليات يتمشى عليها ما يتمشى على كليات الاحكام الأخرى من جواز الاجتهاد في جزئياتها وفروعها لجعلها دائرة من المصلحة الدنيوية . ومقوّمات الحكومة كثيرة لاتحصر فى الكليات ولا تختص بزمان او مكان بل هي تابعة للحاجة سائرة مع ترقي الزمان ومن ثم كانت حياة المسلمين السياسية بعيدة بالضرورة عن الحياة الدينية لانها قائمة بالاجتهاد السائر مع الحاجة الدائر مع المصلحة

لا جرم ان الصحابة عرفوا هذا الاصل فجنح الخلفاء الراشدين منهم الى الشورى فى تدبير امور الدولة كما رأيت من سيرة الخليفتين مافيه الكفاية وعرفوا انّ لهم ما وراء ذلك الاصل ان يأخذوا بما هو نافع لهم من مقوّمات الملك لانه منوط بالمصلحة التي يقتضيها التيسير على المسلمين وتستلزمها حاجة الدولة فأخذوا أصول الحكومة الادارية عن الفرس كتدوين الدواوين وفرض العطاء ومسح الارضين واحصائها ووضع الخراج عليها واستعمال التاريخ وغير ذلك مما مر بك ذكره في هذا الكتاب وفاتهم ان يأخذوا عن الرومان اصول الحكومات النيابية الثابتة التي تقوم بالتكافل بين افراد الأمة وتضمن استمرار قاعدة الشورى التي اوجبها الكتاب الكريم وانما أذهلهم عن هذا ان ليس لديهم تاريخ فى اصول الحكومات يرجعون اليه وكانت الحكومات النيابية بعيدة العهد يومئذ من مجاوريهم الرومانيين فلجأوا اناطة كل شؤون الدولة السياسية والدينية بالخليفة ومضى هذا

الامر على وجهه حتى جاء عصر كان الامام فيه هو المتسلط على كل شؤون الدولة تسلطاً ملازما لتسلطه الديني فكما ان له ان ينيب عنه اماماً في الصلاة فله ان ينيب عنه قاضيا للقضاء وكانت الخلافة لذلك اشبه بالدينية منها بالسياسة وامتزجت بسبب ذلك السياسة بالدين امتزاجاً أدّى الى استمرار سير الحكومة على نمط واحد وجمود الافكار على مبدأ الخضوع المطلق للامير باعتبار ان الامير رئيس ديني تجب له الطاعة مع التغاضي عما يجب عليه في مقابلها من العدل

انّ اصطباغ المسلمين في حياتهم السياسية بصبغة الدين حوّل الاحزاب السياسية التي تقوم في الدول لخير الأمة ومصلحة الشعب الى فرق دينية كانت فى الاسلام آفة الدين ، ومفرق شمل المسلمين ، ومثاله ان الاحزاب السياسية التي قامت فى الصدر الاول لمطلق الغرض السياسى أو الانتصار لزيد والاخذ بناصر بكر ما لبثت ان انقلبت الى فرق دينية ومشت الى الانتحال فى الدين كالخوارج مثلا فانهم بعد ان كانوا يذهبون الى عدم لزوم الخلافة ووجوب العمل بمبدأ التعاون العام في أمور الدين والدنيا انقلبوا الى نحل دينية فرقت شمل المسلمين . وكالشيعة فانهم بعد ان كانوا ينتصرون لعليّ رضي الله عنه لاعتقاد انه أهل للخلافة ويريدونه عليها ولو بالقوّة انقلبوا ايضا الى اعتقاد وجوبها لآل البيت وجوبا دينيا وانفردوا بمذاهب خاصة كلها ترمي الى الدين وبالدين ، وكان فى غضون ذلك ما كان من الفتن التي انهكت قوى المسلمين ، وصبغت بدمائهم اديم الارض باسم الدين . والدولة الاسلامية واقفة بين كل هذه الفتن والشقاق ، والتحزب والافتراق ، فى مركز واحد ومتجهة الى وجهة واحدة لم يطرأ على صبغتها تغيير الا بتحولها من الشورى

الى الاستبداد مع ان المعهود في الدول التي تنتابها الفتن وتقوم فيها الاحزاب ان ينتاب صبغتها التغيير وتتقلب اشكالها بتقلب الزمان وقيام الفتن بين الاحزاب السياسية في كل مكان

هذا الاجمال ينبئك كيف استحكم داء الضعف في الأمة الاسلامية مع انه عارض قد كان في الامكان تلافيه قبل ان يستحيل الى جمود أذهل الأمة لهذا العهد عما يحيط بها في هذا الوجود وظهر أثره حتى على أعمال المسلمين واخلاقهم وعقائدهم وعوائدهم بحيث صاروا لا يقبلون أي جديد الاً باسم الدين ويرفضون كل امر نافع اذا لم يعرف عن اسلافهم الميتين حتى سبقتهم في مضمار الحياة كل الأمم المسيحية والوثنية وسادت على دولهم أضعف الدول الغربية وهم يدافعون الخير ويأبون مجاراة الأمم لمطلق التوهم في ان مجاراة السابقين خروج عن الدين وان الاسلام والعياذ بالله قد حرّم كل أمر نافع على المسلمين الاّ ما قال بحلّه شيخ من الشيوخ الماضين، وهذه غاية من الهوس بالدين لم تبلغها أمة في الاولين ولا الآخرين، والله يشهد ورسوله والملائكة والعقلاء كافة ان الاسلام بريء مما يزعمون. واليك مثالاً من هذا الهوس الذي جعلوه آلة لهدم تعاليم الاسلام وهم لا يشعرون

قامت في هذه الاثناء فتنة كبري بين أميرين من أمراء نجد وهما يتنازعان الامارة فرأيت بعض نبهاء النجديين ونصحته في تلافي اسباب هذه الفتنة بالانضمام الى الدولة العثمانية قبل ان تمتد الى البلاد يد اجنبية فأجابني ان هذا منى النفوس لكن النجديين يأبون دخول المستحدثات العصرية الى بلادهم ولا سيما نظام الجندية الحديث والدولة العثمانية تريدهم على مثل هذا النظام وهو في نظرهم من الحرام

فانظر يا اخي الى هذه الامة التي خاضت بخيلها على عهد الفتح الاسلامي شطوط المحيطين و بلغت دولتها من القوّة الحربية مبلغا لم تصل اليه دولة قط كيف بلغ بها الهوس بالدين الى هدم أهم ركن من اركانه وهو الجهاد الذي لا يتم الاّ بالعمل بقوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوّة) الآية ومن البديهي ان مبلغ الاستطاعة فى هذا العصر هو تنظيم الجندية على وجه تضارع به قوّة الاعداء القائمة بنظام الجندية ايضاً وترتيبها على هذا النمط الجديد المعروف لهذا العهد الذي ثبت عند كافة الامم انه خير ما انتهى اليه العقل البشري فى استكمال اسباب القوّة وحفظ البيضة والزود عن حياض الملك والاستقلال هذا من وجه ومن وجه آخر فان نظام الجندية الحديثة الذي يراه اولئك القوم من المحرمات له مزية اعداد الامة بأجمعها للحرب وتعويدها على تحمل اعباء الجندية حتى تصير بطبعها أمة حربية تتجافى جنوبها عن مضاجع الراحة وتأنف الاخلاد الى ظل القصور وهذا خلق طبيعي فى العرب فما الذي يدعوهم الى الهروب منه واعتقاد حرمته الاّ ما ذكرناه من هوس الأمة بالدين على غير علم بأنها تهدم بهذا الهوس اركان الدين ، وتنحدر فى تيار الاضمحلال العاجل مع المنحدرين ، وبالاجمال فانّ حياة المسلمين السياسية لمّا لم تقم على اصول الشورى القانونية وجعلت من مبدأ تكوين الدولة حياتاً دينية ترك فيها القياد الى أمير واحد تناط به كل شؤون الدين والدولة فقد دخل عليها الاضطراب من عهد الخليفة الثالث كما سترى بعدُ وانصبغت بسببها الأمة بصبغة الدين فى كل شؤونها الدنيوية . على انّ اصطباغ الأمة بهذه الصبغة الدينية وان تأتي عن جعل الحياة السياسية حياةً دينية كما قدمنا الا انّ الصحابة رضوان الله عليهم لم يريدوا بها الاّ تحري

المصلحة على قدر ما وصل اليه علمهم واجتهادهم وفيما عدا هذا فانهم لم يحرجوا أنفسهم ولا المسلمين فى امور الدولة الادارية وامور المسلمين الاجتماعية بمقدار ما احرج هؤلاء بعدُ سوء الفهم وندرة المفهمين اذ الصحابة أخذوا عن مشركي الفرس وأهل الكتاب كل ما بلغ اليه علمهم من الامور النافعة التي هي من ضروريات حياة الأمم والدول بلا أدنى تحرج في الدين كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب وخصوصاً في سيرة عمر رضي الله عنه

(خبر الشورى وخلافة عثمان)

نقلنا في الجزء الثاني شيئاً من خبر الشورى مما رواه ابن عبد ربه فى العقد ووعدنا باستيفاء البحث فى هذا الجزء وقد رأينا روايات كثيرة فى خبر الشورى أعدلها لهجة وأقربها للحق والصواب وأبعدها عن التحريف ما اختاره ابن جرير الطبرى فآثرنا نقله على غيره من الروايات لوثوقنا باعتدال الطبري وتحريه لأصدق الحديث وقد روى الطبري فى أول قصة الشورى ما هو بمعنى ما نقلناه عن العقد وزاد فيه انّ عمر رضي الله عنه لما عهد للستة أمرهم بالاجتماع قريباً منه ليتشاوروا فيما بينهم فاجتمعوا وتناجوا ثم ارتفعت أصواتهم فقال عبد الله بن عمر : سبحان الله انّ أمير المؤمنين لم يمت بعدُ : فأسمعه فانتبه فقال : ألا أعرضوا عن هذا اجمعون فاذا متّ فتشاوروا ثلاثة ايام وليصلّ بالناس صُهيب ولا يأتين اليوم الرابع الاّ وعليكم أمير منكم ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الامر وطلحة شريككم فى الامر فان قدم فى الايام الثلاثة فاحضروه أمركم . ومن لي بطلحة : فقال سعد بن أبي وقاص . أنا لك به ولا يخالف ان شاء الله . فقال عمر أرجو ان لا يخالف ان شاء الله . وما أظن ان يلي الاّ أحد هذين الرجلين . عليّ وعثمان . فان

ولي عثمان فرجل فيه لين . وان ولي عليّ ففيه دعابة وأحرِ أن يحملهم على طريق الحق . وان تولوا سعداً فأهلها هو والاّ فليستعن به الوالي فاني لم أعزله عن خيانة ولا ضعف — ونعم ذو الرأي عبد الرحمن بن عوف مسدّد رشيد له من الله حافظ فاسمعوا منه . وقال لأبي طلحة الانصاري . ياأباطلحة انّ الله عزّ وجلّ طالما اعزّ الاسلام بكم فاختر خمسين رجلاً من الانصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم

وقال للمِقْداد بن الاسود اذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلا منهم . وقال لصُهَيْب صلّ بالناس ثلاثة ايام وأدخل عليًّا وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة ان قدم وأحضر عبد الله بن عمر ولا شيء له من الامر وقُمْ على رؤسهم فان اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاشدخ رأسه أو اضرب رأسه بالسيف وان اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رؤسهما فان رضي ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً منهم فحكموا عبد الله بن عمر فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجل منهم فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمعوا عليه الناس

فخرجوا فقال عليّ لقوم كانوا معه من بني هاشم : إن أُطيعَ فيكم قومكم لم تؤمرّوا ابداً : وتلقاه العباس فقال . عدلت عنّا . فقال وما علمك . قال . قرن بي عثمان وقال كونوا مع الاكثر فان رضي رجلان رجلاً ورجلان رجلاً فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف . فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون فيوليها عبد الرحمن عثمان أو يوليها عثمان عبد الرحمن . فلو كان الآخران معي لم ينفعاني بَلْهَ أني

لا ارجو الاّ [1] احدهما . فقال العباس . لم ادفعك في شيء الاّ رجعت اليّ مستأخراً بما اكره . أشرت عليك عند وفاة رسول الله (ص) ان تسئله فيمن هذا الأمر فأبيتَ وأشرت عليك بعد وفاته ان تعاجل الامر فأبيتَ وأشرت عليك حين سمّاك عمر في الشورى ان لا تدخل معهم فأبيت . احفظ عني واحدة . كلما عرض عليك القوم فقل لا الاّ ان يولّوك واحذر هؤلاء الرهط فانهم لا يبرحون يدفعونا عن هذا الامر حتى يقوم لنا به غيرنا. وأيْمُ اللهِ لا يناله الاّ بشر لا ينفع معه خير فقال عليّ اما لئن بقي عثمان لاذكرنه ما أتى . ولئن مات ليتداولنّها بينهم . ولئن فعلوا ليجدُنّي حيث يكرهون ثم تمثل

حلفتُ بربِّ الراقصات عشيّةً غدون خِفافاً فابتدرن المُحَصّبا
لَيَختلِنَّ رهطُ ابنِ يَعْمَرَ مارئاً نجيعاً بنو الشُداخِ وِرْداً مُصلّبا

والتفت فرأى أبا طلحة فكره مكانه. فقال أبو طلحة . لم تُرَعْ ابا الحسن.

فلما مات عمر وأُخرجت جنازته تصدّى عليّ وعثمان ايّهما يصلي عليه فقال عبد الرحمن كلاكما يحب الامْرة لستما من هذا في شيء هذا الى صُهيب استخلفه عمر يصلي بالناس ثلاثاً حتى يجتمع الناس على امام : فصلّي عليه صهيب

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المِسْوَر بن مَخْرَمَة ويقال في بيت المال ويقال في حجرة عائشة باذنها وهم خمسة معهم ابن عمر وطلحة غائب وأمروا أبا طلحة ان يحجبهم وجاء عمرو بن العاص والمُغيرة بن شُعبة فجلسا بالباب فحصبهما سعد وأقامهما وقال . تريدان أن تقولا حضرنا

(١) لعل (الاّ) زائدة اذ الظاهر ان ليس معه احد يستثنيه هنا فليحرر

وكنا في اهل الشورى .

فتنافس القوم في الأمر وكثر بينهم الكلام فقال أبو طلحة . انا كنت لأن تدافعوها أخوف مني لأن تنافسوها لا والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أُمرتم ثم اجلس في بيتي فانظر ما تصنعون

فقال عبد الرحمن أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على ان يوليها افضلكم فلم يجبه أحد فقال . فأنا انخلع منها . فقال عثمان انا أول من رضي فقد سمعت رسول الله يقول (امين في الارض أمين في السماء) فقال القوم قد رضينا وعليّ ساكت . فقال ما تقول يا أبا الحسن . قال اعطني موثقاً لتؤثرنَّ الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رَحِمٍ ولا تألو الأمة

فقال اعطوني مواثيقكم على ان تكونوا معي على من بدَّل وغيَّر وان ترضوا من اخترت ولكم عليَّ ميثاق الله ان لا أخص ذا رَحِمٍ لرَحِمِه ولا آلو المسلمين : فاخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله . فقال لعليّ انك تقول انى أحق من حضر بالامر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك في الدين ولم تبعد ولكن أرأيت لو صرف هذا الامر عنك فلم تحضر . من كنت ترى من هؤلاء الرهط احقّ بالامر ؟ قال عثمان . وخلا بعثمان فقال تقول شيخ من بني عبد مناف وصهر رسول الله (ص) وابن عمه لي سابقة وفضل فلن يصرف هذا الامر عني . ولكن لو لم تحضر فايّ هؤلاء الرهط تراه أحقّ به ؟ قال . عليّ . ثم خلا بالزبير فكلمه بمثل ما كلم به علياً وعثمان . ثم خلا بسعد فكلمه . فلقي عليّ سعداً فقال له : اتقوا الله الذي تساءَلونَ بهِ والارحامَ انَّ اللهَ كانَ عليكُمْ رقيباً : اسئلك برحم ابني هذا من رسول الله

(ص) وبرحم عمي حمزة منك [١] ان لا تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيراً عليّ فاني ادلي بما لا يُدلي به عثمان .

ودار عبد الرحمن لياليه يلق اصحاب رسول الله (ص) ومن وافى المدينة من امراء الاجناد واشرف الناس يشاورهم . ولا يخلو برجل إلاّ أمره بعثمان حتى إذا كانت الليلة التي يُستكمل في صبيحتها الاجل أتى منزل المِسْوَر بن مَخْرمة بعد ابهيرار [٢] من الليل فأيقظه فقال . الا اراك نائماً ولم اذق في هذه الليلة كثير غُمْضٍ انطلق فادعُ الزبير وسعداً . فدعاهما . فبدأ بالزبير في مؤخرّ المسجد في الصُفّة التي تلي دار مروان . فقال له خلّ ابنيْ عبد مناف وهـذا الأمر : قال نصيبي لعليّ . وقال لسعد اذا وانت كلالة [٣] فاجعل نصيبك لي فأختار . قال ان اخترت نفسك فنعم وان اخترت عثمان فعليٌّ احبُّ اليّ . أيها الرجل بايع لنفسك وأرحنا وارفع رؤسنا . قال يا أبا اسحق اني قد خلعت نفسي منها على أن اختار ولو لم أفعل وجُعل الخيار اليّ لم أُردها اني أريت كروضة خضراء كثيرة العُشْبِ فدخل فحل لم ارَ فحلاً قط اكرم منه فمرّ كأنه سهم لا يلتفت الى شيءٍ مما في الروضة حتى قطعها لم يعرّج . ودخل بعير يتلوه فاتّبع أثره حتى خرج من

(١) قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة . رحم حمزة من سعد هي ان أم حمزة هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة وهي أيضاً أم المقوّم . وحجل واسمه المغيرة . والعوام بن عبد المطلب بن هاشم بن عبـد مناف هؤلاء اربعـة بنو عبد المطلب من هالة وهالة هذه هي عمة سعد بن أبي وقاص فحمزة إذن ابن عمة سعد وسعد ابن خال حمزة

(٢) اي بعد انتصافه

(٣) الكلالة بنو العم الاباعد

الروضة ثم دخل فحل عبقري (١) يجرّ خطامه (٢) يتلفت يميناً وشمالاً ويمضي قصد الأولين حتى خرج ثم دخل بعير رابع فرتع في الروضة ولا والله لا اكون الرابع ولا يقوم مقام أبي بكر وعمر بعدهما أحد فيرضي الناس عنه قال سعد . فاني اخاف ان يكون الضعف قد ادركك فامض لرأيك فقد عرفت عهد عمر

وانصرف الزبير وسعد وارسل (اي عبد الرحمن) المسوَر بن مخرمة الى عليّ فناجاه طويلاً وهو لا يشك انه صاحب الامر ثم نهض . وأرسل المسور الى عثمان فكان في نجيّهما حتى فرّق بينهما اذان الصبح . قال عمرو ابن ميمون قال لي عبد الله بن عمر يا عمرو من أخبرك انه يعلم ما كلم به عبد الرحمن بن عوف علياً وعثمان فقد قال بغير علم فوقع قضاء ربك على عثمان

فلما صلوا الصبح جمع (عبد الرحمن) الرهط وبعث الى من حضره من اهل السابقة والفضل من الانصار وامراء الاجناد فاجتمعوا حتى التج (ازدحم) المسجد بأهله فقال . ايها الناس انّ الناس قد أحبوا ان يلحق أهل الامصار بامصارهم وقد علموا من أميرهم. فقال سعيد بن زيد انّا نراك اهلاً لها . فقال أشيروا عليّ بغير هذا فقال عمّار ان أردت ان لا يختلف المسلمون فبايع علياً . فقال المقداد بن الاسوَد صدق عمّار ان بايعت علياً قلنا سمعنا وأطعنا . قال ابن أبي سرح ان اردت ان لا تختلف قريش فبايع عثمان . فقال عبد الله بن أبي ربيعة صدق ان بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا .فشتم عمّار ابن أبي سرح وقال متى كنت تنصح المسلمين . فتكلم بنو هاشم وبنو

---

(١) العبقري القوي

(٢) الخطام أي الزمام

أمية . فقال عمّار ايها الناس انّ الله عزَّ وجلّ أكرمنا بنبيه وأعزّنا بدينه فأنّى تصرفون هذا الامر عن أهل بيت نبيكم . فقال رجل من بني مخزوم لقد عدوت طورك يا ابن سمُيّة وما أنت وتأمير قريش لانفسها . فقال سعد ابن أبي وقاص ياعبد الرحمن افرغ قبل ان يفتتن الناس . فقال عبد الرحمن اني قد نظرتُ وشاورت فلا تجعلُنّ ايها الرهط على أنفسكم سبيلا . ودعا عليًّا وقال عليك عهد الله وميثاقه لتعملنّ بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده . فقال أرجو أن أفعل واعمل بمبلغ علمي وطاقتي ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعليّ . قال نعم . فبايعه فقال علي حبوته حبو دهر ليس هذا اوّل يوم تظاهرتم فيه علينا (فصبرٌ جميلٌ والله المستعانُ على ما تصفون) والله ما وليت عثمان الاّ ليرد الامر اليك والله كلّ يوم هو في شأن . فقال عبد الرحمن ياعليّ لا تجعل على نفسك سبيلاً فاني قد نظرت وشاورت الناس فاذا هم لا يعدلون بعثمان . فخرج علي وهو يقول . سيبلغ الكتاب أجله . فقال عمّار يا عبد الرحمن اما والله لقد تركته وانه من الذين يقضون بالحقّ وبه يعدلون . فقال ياعمار والله لقد اجتهدت للمسلمين قال ان كنت اردت بذلك الله فأثابك الله ثواب المحسنين . وقال المقداد ما رأيت مثل ما اوتى الى أهل هذا البيت بعد نبيهم اني لاعجب لقريش انهم تركوا رجلا ما اقول انّ أحداً اعلم ولا أقضى منه بالعدل أما والله لو أجد أعوانا

فقال عبد الرحمن يا مقداد اتق الله فاني خائف عليك الفتنة . فقال رجل للمقداد . رحمك الله من أهل هذا البيت ومن هذا الرجل . قال أهل البيت بنو عبد المطلب والرجل عليّ بن أبي طالب . فقال عليّ انّ الناس

ينظرون الى قريش وقريش تنظر الى بيتها (وفي نسخة تنظر في صلاح شأنها) فتقول ان ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم ابداً وما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم وقدم طلحة في اليوم الذي بويع فيه لعثمان . فقيل له بايع عثمان . فقال أكلّ قريش راض به . قيل نعم فأتى عثمان فقال له عثمان أنت على رأس أمرك ان أبيت رددتها . قال أتردها . قال نعم . قال أكلّ الناس بايعوك . قال نعم . قال قد رضيت لا ارغب عما قد اجتمعوا عليه . وبايعه.

وقال المغيرة بن شعبة لعبد الرحمن يا أبا محمد قد أصبتَ ان بايعتَ عثمان . وقال لعثمان لو بايع عبد الرحمن غيرك ما رضينا . فقال عبد الرحمن . كذبت يا أعور لو بايعتُ غيره لبايعتهُ ولقلتَ هذه المقالة

وكان المسور بن مخرمة يقول . ما رأيت رجلاً بذّ [1] قوماً فيما دخلوا فيه بأشدّ مما بذّهم عبد الرحمن بن عوف

هذا ما رواه الطبري في تاريخه عن خبر الشورى وقد اورد بعد هذه الرواية رواية أخرى لا تخرج عن معنى ما تقدم في الرواية الأولى الاّ انه اورد فيها مادار من الخطب بين أهل الشورى مما لم نرَ حاجة لايراده خوف التطويل وزاد فيها ان عبد الرحمن بن عوف لما بايع عثمان ازدحم الناس عليه يبايعونه حتى غشوه عند المنبر فقعد عبد الرحمن مقعد النبي صلى الله عليه وسلم من المنبر وأقعد عثمان على الدرجة الثانية فجعل الناس يبايعونه وتلكأ عليّ فقال عبد الرحمن (ومن نكثَ فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهدَ عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) فرجع عليّ يشق الناس حتى بايع وهو يقول . خدعة وأيما خدعة . قال وانما سبب قول عليّ خدعة . انّ

(١) اي غلبهم

عمرو بن العاص كان قد لقي عليا في ليالي الشورى فقال انّ عبد الرحمن رجل مجتهد وانه متى اعطيته العزيمة [1] كان أزهد له فيك ولكن الجهد والطاقة فانه أرغب له فيك . قال . ثم لقي عثمان فقال انّ عبد الرحمن رجل مجتهد وليس والله يبايعك الاّ بالعزيمة فاقبل : قال فلذلك قال عليّ . خدعة :

واختلفوا في اليوم الذي بويع فيه عثمان ففي رواية للطبري انه بويع يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٢٣ فاستقبل بخلافته المحرم سنة ٢٤ وفي رواية أخرى له ايضا ان عثمان استخلف لثلاث مضين من المحرم سنة ٢٤ فخرج فصلى بالناس العصر ولعله الاصح

(هل هناك تحامل على علي)

هذا ما أورده الطبري من قصة الشورى وانت ترى من ظاهر هذه القصة ان القوم ربما تحاملوا على علي رضي الله عنه بصرف الخلافة عنه الى عثمان رضي الله عنه والذي اعتقده ان قريشا وان كانت لا تريد استخلاف عليّ لاسباب سيأتي بيانها الاّ ان الخلافة من أبي بكر الى عثمان ثم علي ترتيب طبيعي اتى بحكم الحاجة وعلى وفق المعروف يومئذ للمسلمين والثابت عندهم من اقوال الرسول صلى الله عليه وسلم التي تشير الى مثل هذا الترتيب [2] في المقام والدرجة التي وضع كلا منهم فيها رسول الله (ص) وعليّ

(١) أي متى اسرعت بالتسليم لما يشترطه عليك

(٢) منها قوله صلى الله عليه وسلم (أرحم أمتي بأمتي أبو بكر . وأشدهم في أمر الله عمر . وأصدقهم حياء عثمان واقضاهم عليّ الخ . اخرجه أبو يعلى عن ابن عمر ورواه احمد والترمذي عن أنس لكن ليس فيه عليّ ومنها قوله صلى الله عليه وسلم لزيد بن أرقم أنطلق حتى تأتي أبا بكر فتجده في داره جالسا محتبئا فقل له انّ النبي يقرأ عليك السلام ويقول ابشر بالجنة وانطلق الى عمر ..... وانطلق الى عثمان ... الحديث

نفسه يعرف ذلك ويعترف به فقد اخرج الحافظ بن عساكر في تاريخه من طرق شتى عن عمر بن حريث وعن شُرَيح القاضي انهما سمعا عليّ بن أبي طالب يقول (ألا انّ خير هذه الامة بعد نبيها أبو بكر. ثم عمر. ثم عثمان) واخرج هذا الحديث الامام احمد وقال الذهبي انه متواتر : كما ان اخلاق الاربعة واستعدادهم وأعمارهم أهلت كل فرد منهم للخلافة في العصر الذي استُخلف فيه ليس باعتبار ان كل واحد أفضل من الآخر أو أهل منه كلا بل ان لكل واحد منهم خصالاً فاضلة تجعله اهلاً لذلك المنصب لكن في الوقت الذي أُسند فيه اليه فأبو بكر لما كان رجلاً مسناً طويل الاناة رؤف القلب وله في النفوس هيبة الصحبة القديمة واحترام الشيخوخة كان مصير الخلافة اليه والاسلام غضا طرياً والايمان لم يأخذ مكانته من قلوب الأمة العربية والاعداء كثيرون يتربصون بالمسلمين الشر من قبيل وضع الشيء في محله وملافات المرض بطبيبه يدلك عليه قول ابن مسعود الذي مر معنا في أخبار الردة (لقد قمنا بعد رسول الله (ص) مقاما كدنا نهلك فيه لولا ان مَنّ الله علينا بأبي بكر الخ) وابن مسعود انما قال ما قال وهو الثقة الخبير عن مشاهدة وعيان وتقدير لعمل أبي بكر (رض) يومئذ وحسب

واخرجه بن أبي عساكر في تاريخه

ومنها ما رواه البخاري عن ابن عمر قال : كنا نخير بين الناس في زمان رسول الله (ص) فنخير أبا بكر ثم عمر ثم عثمان وزاد الطبراني في الكبير فيعلم بذلك النبي (ص) ولا ينكره ومثله ما أخرجه ابن عساكر عن ابن عمر قال كنا وفينا رسول الله (ص) نفضل أبا بكر وعمر وعثمان وعليا . وقد ورد كثير من مثل هذه الاحاديث ولا سيما ما يشير منها الى ما يحصل لعثمان وعلي وما يكون من الفتنة في عصرهما وكلها تشير الى هذا الترتيب فلتراجع في مظانها من كتب الحديث

العاقل ان ينظر في سيرة أبي بكر وأخباره مع أهل الردة وتأنيه في مثل تلك الخطوب التي استقبلها بعد وفاة النبي (ص) المسلمون فيعلم ان كلام ابن مسعود حق لا ريب فيه تؤيده سيرة أبي بكر رضي الله عنه

استخضع أبو بكر اولئك الخارجين بالحرب واستسلس بعد ذلك قياد زعمائهم بالاحسان اليهم والصفح عن مسيئهم وألان جانبه للمسلمين فأطاعوه وأحبوه فرمى بهم جيوش الفرس والروم ولما تمهد لهم طريق الفتح وفتح امامهم باب مستقبل سعيد تولد في النفوس من الآمال ومر عليها من الخواطر ما أزعجها عن مطمئن الراحة ونفث فيها روح الكبرياء والتنافس هذا مع اتساع دائرة الاسلام وكثرة الداخلين فيه من جفاة الاعراب فاحتيج الى رجل شديد مهاب بعيد عن نزق الشباب وضعف الشيوخ يلين تارة من غير ضعف ، ويشتد أخرى من غير عنف ، وكان عمر بن الخطاب معروفا بالشدة والارهاب حائزا لهذه الشروط فعهد اليه أبو بكر بالخلافة وهي له بطبيعة الحال وحكم الحاجة ولو لم يعهد اليه بها أبو بكر والذي يراجع ما كتبناه من سيرته يعلم ذلك ويرى كيف كانت الأمة والزمان والمكان في حاجة الى مثله تسوق الخلافة اليه سوقاً ثم لما كان عمر شديداً بطبعه ميالاً الى التقشف والقصد وقد أخذ على شكائم النفوس اخذاً ضيقاً في وجوه القوم مذاهب التبسط في العيش والتطلع الى كل رغائب النفوس مع اقبال الدنيا عليهم ومصير ذلك الملك العريض اليهم احتاجوا بعده الى سائس يبسط اليهم كف العطاء . ويلين لهم جانب العقوبة . ويطلق يدهم في جني ثمرات النصب في ذلك الفتح . وينشر عليهم جناح الرأفة . وكان المترشحون للخلافة من الستة هما عثمان وعلي . وعثمان معروف لديهم بلين الجانب وكرم اليد واناة الشيخوخة

كما كان عليّ معروفا بالشدة وحب القصد كعمر بن الخطاب اتجهت رغائبهم الى استخلاف عثمان فاستخلف بطبيعة الحال وحكم الحاجة ايضا لهذا رأينا كل من استشاره عبد الرحمن بن عوف من المسلمين يومئذ فيمن يوليه أشار عليه بعثمان . فعبد الرحمن بن عوف وغيره من الذين أشاروا باستخلاف عثمان سيقوا الى هذا بسائقة الحاجة والرغائب ومحض الاعتقاد باهلية عثمان يدلك عليه مارواه ابن سعد وابن عساكر والحاكم عن ابن مسعود انه قال لما بويع عثمان (أمّرنا خير من بقي ولم نأل) فاذا كان هذا مبلغ اعتقادهم بعثمان رضي الله عنه وهذه شهادة ابن مسعود له مع انه ممن ضربهم عثمان ونقم منه فيمن نقم لاجل هذا فليس هنالك شيء من التحامل كما يتبادر الى ذهن القارئ من قصة الشورى . وما روي في تلك القصة عن حكاية عمرو بن العاص وخدعته فهو اذا صح وما اخاله صحيحا فانما هو بمحض رأي عمرو لا يد لعبد الرحمن رضي الله عنه فيه وعمرو سيق الى هذه الرغبة كما سيق اليها غيره من المهاجرين والانصار لاسيما وانه لاقى من شدة عمر بن الخطاب ما كان أقله مصادرته في ماله كما رأيت في سيرته فيما مضى فهو بالضرورة يميل الى عثمان لسهولته أكثر من ميله لعليّ لشدته

وهكذا يقال ايضا عن عليّ في خلافته وانه استخلف في الوقت الذي كادت تخرج فيه الأمة عن سبيل القصد وتمعن في طرق الاستمتاع وتفلت بل وأفلتت فيه من قيد الرهبة الذي قيدها به ابن الخطاب فلم يك وقتئذ أمثل للخلافة واكبح لجماح النفوس من استخلاف عليّ (رض) لما عرف به من الشدة والورع وحب القصد مع بلوغه السن الذي يؤهله لهذا المنصب الرفيع

وقد ذهب بعضهم الى انّ عليًّا ضعيف الرأي لهذا غلبه على الخلافة

الثلاثة الذين سبقوه بها وربما احتجوا بقول عمه العباس رضي الله عنه له (لم أدفعك في شيء الاّ استأخرت اليّ بما أكره) الى آخر الخبر الذي مرّ في قصة الشورى واحتجاجهم بمثل هذا وهم وتسرع في الحكم لا نصيب له من التأمل فيما اكتنف عليا رضي الله عنه من الاحوال والبواعث التي بسطناها للقارئ وانما كان هذا الترتيب في الخلافة أشبه بالانتخاب الطبيعي كما رأيت فاذا ينفع فيه الرأي والحيلة لاسيما وانّ عليّا رضي الله عنه كان كما قلنا فيما سبق من هذا الكتاب شديد الاستمساك بالفضيلة لاينزع الى خدع السياسة وليس هذا وأيم الحق بعيب يعاب به مثل عليّ وقد نشأ على التقوى والفضيلة فهو معذور اذا لم يلجأ الى الحيلة في بعض الاحيان أنصفه القوم أو لم ينصفوه

وجملة القول انّ ما رؤى من الصحابة من صرف الخلافة عن عليّ أو التنحي عن نصرة بني هاشم في كثير من الاحوال وان كان فيه شيء من الخوف من سيادة بني هاشم الدنيوية فوق سيادتهم الدينية ثم استئثارهم اذا صارت الخلافة اليهم بهذا المنصب الرفيع كما أشار الى هذا عليّ في خبر الشورى وأشياء أخرى سنأتي على ذكرها في غير هذا المحل الاّ انهم كانوا مسوقين الى ذلك ايضا باحكام الضرورة ودواعي الزمان والمكان ومراعاة رغائب الجمهور في بعض الاحيان وهذا ما أراه موافقاً للحقيقة في هذه المسئلة والله أعلم بما وراء ذلك

(اول اعماله في خلافته)

لما بويع عثمان رضي الله عنه خطب الناس خطبة غراء في الوعظ ستأتي في باب خطبه وقيل أرتج عليه لما أراد ان يخطب فقال : ايها الناس انّ اول

مركب صعب وانّ بعد اليوم اياماً وان أعش تأتكم الخطبة على وجهها وما كنا خطباء وسيعلمنا الله : (اخرجه ابن سعد) . قالوا وزاد في الاعطيات مائة مائة ووفّد أهل الامصار : قال الطبري وهو أول من فعل ذلك وكان عبيد الله بن عمر لم يزل محبوساً عند سعد بن أبي وقاص منذ أخذه بعد قتله الهرمزان وجفينة فلما تمت البيعة لعثمان جلس في جانب المسجد ودعا بعبيدالله وقال لجماعة من المهاجرين والانصار . اشيروا عليّ في هـذا الذي فتق في الاسلام ما فتق . فقال عليّ ارى ان تقتله . فقال بعض المهاجرين قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم : وانما أشار عليّ بقتله لانه ثبت يومئذ انّ الهرمزان لما ضربه عبد الله بالسيف قال لااله الا الله كما انه لم يثبت اشتراكه مع أبي لؤلؤة فى جريمة الاغتيال شهد به عبدالرحمن بن أبي بكر من رؤيته ليلة الحادثة مع أبي لؤلؤة وفى يد هذا خنجر سقط منه لما رهقهما عبد الرحمن . وكان عليّ شديداً فى الحق فأشار بقتله وأشـار غيره بعدم قتله والامر كما لايخفى على الناقد يوجب الحيرة والموقف حرج يحتاج الى أناة وكان ممن حضر يومئذ عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين انّ الله قد اعفاك ان يكون هـذا الحدث ولك على المسلمين سلطان انما كان هـذا الحدث ولا سلطان لك . قال عثمان انا وليهم وقد جعلتها ديةً واحتملتها فى ما لي : وانتهى الاشكال

هكذا رواها الطبري قال وكان رجل من الانصار يقال له زياد بن لبيد البياضي اذا رأى عبيد الله بن عمر قال

ألا يا عبيدَ الله مالك مَهْربٌ ولا ملجا من ابن أرْوَى ولا خفَر
أصبْتَ دماً والله فى غير حِلّهِ حراماً وقتلُ الهُرْمُزان له خطر

فى ابيات . فشكا عبيدالله الى عثمان فدعا زياد بن لبيد فنهاه فانشأ زياد

يقول في عثمان ابياتاً منها

أبا عمرٍو عبيد الله رَهْنٌ فلا تشكُكْ بقتل الهرمزان

وفي رواية أخرى للطبري عن القماذبان بن الهرمزان انّ عثمان دعاه فامكنه من عبيد الله قاتل ابيه ليقتله فرجاه المسلمون بالعفو عنه فعفى عنه وفي هذا الخبر نظر لانه لو صح لما بقي عليّ بن أبي طالب مصراً على قتل عبيد الله حتى خلافته حيث دعا ذلك عبيد الله الى الفرار والانحياز الى معاوية بن أبي سفيان

ومن أحسن اعمال عثمان (رض) التي عملها عند استخلافه كتبه التي كتبها الى الولاة وعمال الخراج وعامة الناس فقد كتب الى كل فريق من هؤلاء كتاباً بلغ الغاية في النصح والارشاد وحمل العمال على طريق العدل وحثهم على القيام على أخذ الحق من وجهه وصرفه في وجهه والمساواة بين الناس مسلمهم ومعاهدهم كما سترى ذلك في باب كتبه ان شاء الله

وكان عمر بن الخطاب قال قبل وفاته (أوصي الخليفة من بعدي ان يستعمل سعد بن أبي وقّاص فاني لم اعزله عن خيانة) ففي رواية انّ أول عامل بعثه عثمان سعد بن أبي وقّاص على الكوفة وعزل المغيرة بن شعبة والمغيرة يومئذ بالمدينة فعمل عليها سعد سنة وبعض أخرى : قال الطبري وامّا الواقدي فقد قال انّ أسامة بن زيد بن أسلم حدثه عن أبيه انّ عمر أوصى ان يقرّ عماله سنة فلما ولي عثمان أقر المغيرة بن شعبة على الكوفة ثم عزله واستعمل سعد بن أبي وقّاص ثم عزله واستعمل الوليد بن عقبة فان صح ما رواه الواقدي من ذلك فولاية سعد الكوفة من قبل عثمان كانت سنة ٢٥

باب

فتوحاته

(فتح ارمينيا والقوقاز)

(وجغرافيتهما)

تحد ارمينيا من جهة الشمال بالبحر الاسود وكرجستان ومن الشرق بكرجستان أيضاً وجزء من بلاد فارس ومن الجنوب بكردستان والجزيرة ومن الغرب بآسيا الصغرى . هذه حدود ارمينيا الآن الا ان العرب كانوا يتوسعون بهذا الاسم فربما ادخلوا في ارمينيا قسماً من بلاد القوقاز من جهة الشمال وهو أران المشتمل على مقاطعتي ايروان وتفليس وكانوا يسمون هذا القسم باسم الران وهو يمتد شمالا الى داغستان . وشرقاً الى آذربيجان وبحر الخزر واما من جهة الجنوب فقد كانوا يدخلون فيها قسماً من كردستان وهو عمالة بتليس وربما جعلوها من ارمينيا الرابعة التي يجعلون نهاية حدها الجنوبي الجزيرة لهذا لم يذكر مؤرخوهم من المتقدمين فتح القوقاز على حدة بل جعلوه مضموماً الى فتح ارمينيا ولكي يكون القارئ على بينة من الاماكن التي ورد ذكرها في فتح هذه البلاد في كتب المؤرخين ويفرق بين ما هو تابع منها لارمينيا وما هو تابع للقوقاز رأيت من اللازم التوسع في جغرافية هذين القطرين وقبل ان ابسط جغرافية القوقاز اذكر هنا بعض الاماكن الشهيرة في ارمينيا زيادة في الايضاح

فمن مدن ارمينيا الشهيرة خلاط وقاليقلا وارزروم او ارزن الروم (ويقول أبو الفداء أنها نفس قاليقلا) والى جهة الغرب منها ارزنجان ثم ارجيش على بحيرة وان ووان المنسوبة اليها هذه البحيرة وهي في الطرف الشرقي منها

وفى الجهة الشرقية من سلسلة جبال ارمينيا جبل الجودي او أراراط الذى رست عليه سفينة نوح . ومن انهرها الفراة وأراس المعروف عنـد العرب بنهر الرّس وينحدر من الجبال قرب ارزروم ويمر بين مقاطعتي القارص وارزروم ويقطع كرجستان حتى يلتقي مع نهر كور الآتي من اعالي القارص ويصبان فى بحر الخزر

وامّا القوقاز فيحدها شمالا الروسيا وجنوبا العجم وتركية أسيا وشرقاً بحر الخزر الذي يفصلها عن بقيــة آسيا الروسية وغربا البحر الاسود ويسمى العرب هذه البلاد جبال كوه قاف وبلاد القبق وربما دعوها باسم بلاد الران (أرّان) من قبيل تسمية الكل باسم الجزء . فمن أقسام هـذه البلاد الجنوبية ايبريا أو كرجستان وعاصمتها تفليس على نهر كور وهي جزء من بلاد شروان الممتدة شمالاً الى داغستان ويظهر من سياق خبر الفتح فى تاريخ البلاذري ان العرب كانوا يسمون هذا الجزء كورة جرزان وانه يمتد غرباً الى آسيا الصغرى. ومن مدن الران الشهيرة ايروان وفيها كنيسة كبرى للارمن ومن مدنه المشهورة عند العرب منجليس وجرزان وبرْدَعة والباب أو باب الابواب [1] والبيلقان : قال الاصطخري : ليس فى أرّان مدينــة أكبر من بردعة والباب وتفليس ومن اقسامه الشمالية بلاد الچركس فى الجهة الشمالية من جبل قوقاز ويجري فيها نهر قوبان الذي يصب فى البحر الاسود ونهر كوما وترك (تهرك) اللذان يصبان فى بحر الخزر : ومن

(١) قال القرماني في تاريخه ما خلاصته ان باب الابواب على شاطئ بحر الخزر وان سبب هذه التسمية ان كسرى انوشروان لما بناها جعلها على سور في البحر يمتد مسافة شاسعة وجعل له ابواباً اسكن في كل باب قوماً يمنعون سكان البلاد المتصلة بالجبل من الهجوم على بلاده

أقسامه داغستان على بحر الخزر وفيها يجري نهر سمور في السهول الواقعة شمال داغستان . ومن مدنها الشهيرة باكو التي فيها منابع النفط ولعلها التي يسميها القرماني في جغرافيته بالويه . ودربند على شاطئ بحر الخزر وهي ذات المضيق المعروف بمضيق دربند الذي اجتازه عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي بجيشه الى السهول الشمالية حيث قتل على نهر ترك الذي يسميه العرب نهر بلنجر كما سيأتي الكلام على ذلك

واما فتح ارمينيا والقوقاز فقد اضطربت الروايات في فتحهما لتعدد الغزوات التي غزاها المسلمون لهذه البلاد في خلافة عمر وعثمان رضي الله عنهما فبعضها يقول ان الفتح الاول لهذه البلاد كان سنة ١٨ على يد بكير ابن عبد الله وعبد الرحمن بن ربيعة الباهلي وحذيفة بن اليمان من جهة الشرق وحبيب بن مسلمة الفهري من جهة الغرب وان عبد الرحمن قتل يومئذ في بلنجر وفي بعضها انّ عبد الرحمن قتل ثمة سنة ٣٠ ﻫ في خلافة عثمان وفي بعضها انّ الذي قتل فى بلنجر اخوه سلمان وذلك سنة ٢٦ وبعضها لا يقول بقتل سلمان بل ببلوغه مدينة الباب فقط فى غزوته الثانية والذي يؤخذ من مجموع الروايات التي جاءت فى فتح ارمينيا ان عبد الرحمن وأخاه سلمان قتلا فى بلاد الترك أو الخزر على نهر ترك الذي يسميه العرب نهر بلنجر وقد ذكر ذلك أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب فى ترجمة كل من عبدالرحمن وسلمان وجاراه على ذلك ابن الاثير فى أسد الغابة الاّ انهما لم يحققا السنة التي قتل فيها سلمان بل قالا قيل انه قتل سنة ٢٦ وقيل انه قتل سنة ٢٨ وقيل سنة ٣٠ وقالا انّ أخاه عبد الرحمن قتل لثمان سنين مضين من خلافة عثمان والاختلاف فى زمن قتل سلمان وعبد الرحمن اختلاف بالضرورة فى زمن الفتح أيضاً

والظاهر ان الاضطراب في هذه الروايات عند مؤرخينا أدخل الغلط في سرد أخبار هذا الفتح على مؤرخي الافرنج ايضاً فقد ذكر ديفرجي ان عبد الرحمن غزا ارمينيا قبل قتل يزدجرد بمدة ولم يبين تاريخ دخوله ارمينيا ثم نقل عن احد مؤرخيهم وهو المسيو سان مرتان خبر دخول سلمان وحبيب وفتحهما البلاد في خلافة عثمان سنة (٦٣٩ م) اي سنة (١٨ هـ) مع ان الخليفة في هذا التاريخ كان عمر بن الخطاب وانّ سلمان قتل في بلنجر في هذه الغزات وجلا العرب عن ارمينيا بعد قتله ثم قال لكن العرب عادوا اليها بقوة عظيمة سنة (٦٤٦ م) (٢٦ هـ) واكرهوا امراء البلاد على دفع الجزية

ويؤخذ من هذا ان ديفرجي وهم بالتاريخ فوضع الحرب الثانية في مكان الاولى اذ لا خلاف بين المؤرخين في انّ العرب دوخوا ارمينيا مرتين الاولى على عهد عمر والثانية على عهد عثمان وقد أيّد هذا تواريخ الارمن أيضاً وأشار اليه القس جبرائل الخانجي في مختصر تاريخ الارمن وان لم يذكر أسماء الفاتحين من العرب في الحرب الاولى والثانية ولم يعين تاريخهما بالضبط ولا عبرة بخطأ ديفرجي بالتاريخ اذ الثابت عنده وعند مؤرخينا ان الحرب وقعت على عهد عمر مرة وعلى عهد عثمان مرة وكانت الاولى سنة (١٨ هـ) والثانية (سنة ٢٦ هـ) وانما تشابه الوقائع وسلوك الفاتحين طريقاً واحداً في الفتح الاول والثاني أدخل هذا الوهم على مؤرخي الافرنج لذا رأيت ان أمحص هذه الروايات وأسوق الخبر ملخصاً عن مؤرخينا وما ورد في تاريخ ديفرجي ومختصر تاريخ الارمن على وجه لا يضطرب فيه الذهن فأقول

قد كان بكير بن عبد الله وعُتبة بن فرقد فتحا في خلافة عمر (رض)

بلاد آذ ربيجان الواقعة الى الشرق من ارمينيا ولما كتب بكير الى عمر بالفتح كتب عمر الى سراقة بن عمرو بغزو الباب وجعله على حربها أي اميراً للحرب وجعل عمر على مقدمة سراقة عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي وعلى احدى مجنبتيه (جناحيه) ابن أسيد الغفاري وعلى الأخرى بكير بن عبد الله المتقدم وعلى المقاسم سلمان بن ربيعة وكتب الى حبيب بن مسلمة الفهري ان يمد سراقة وهو يومئذ بالجزيرة ونهض سراقة على هذا الترتيب من البصرة ولما سارت هذه الجيوش تقدم عبد الرحمن بن ربيعة الى ارمينيا الشرقية وأخذ يفتح البلاد حتى بلغ الباب على شطوط بحر الخزر والملك عليها يومئذ شهريار فكاتبه شهريار واستأمنه ولما فرغ سراقة من الباب بعث الامراء والقواد الى ما يليه من بلاد ارمينيا فارسل بكير بن عبد الله الى موقان وحبيب ابن مَسْلَمَة الفهري الى تفليس عاصمة كرجستان وحذيفة بن اليمان الى جبال اللان (القوقاز) فاشتبكت جنوده في أطراف ارمينيا مع الامير اوهان ابن كامساراكان وأخيه ديران فقتلا وتشتت جنودهما وذلك بخيانة أحد قواد الارمن المسمى ساحور الذي خان اوهان وانضم بجيشه الى العرب كما يقول ديفرجي وصاحب مختصر تاريخ الارمن

واما حبيب بن مسلمة الفهري فقد قصد كرجستان وعاصمتها تفليس فنهض له تيودور احد امراء البلاد وكانت يومئذ منقسمة على بعضها واجتهد في ان يضم كل امراء ارمينيا تحت راية واحدة لقتال المسلمين فلم يفلح مع انه كان يساعده على هذا القصد البطريرك استراس الذي يئس من نجاح مسعاه فمات كمداً وبينما كان الارمن يشتغلون في اقامة بطريرك غيره اذ فاجأهم جند الاسلام بقيادة

حبيب بن مسلمة الفهرى ووضعوا الحصار على مدينة دوڤان [1] التي هي مقر البطريرك ويقول ديفرجي ان الحصار بدأ في نوفمبر سنة (٦٣٩ م) وهو يوافق ذا القعدة (سنة ١٨ ﻫ) واستمر الى اليوم السادس من يناير من السنة التالية وهو يوافق يوم ٥ محرم من سنة (١٩ ﻫ) حيث فتحها حبيب ثم أخذ باتمام فتح ارمينيا وكرجستان ففتح وان ونخشوان وسيس على الضفة الثانية من نهر الرّس ويسميه الجغرافيون (أراس وأرا كس) ومنها سار الى ارمينية الغربية ثم عطف على ايبريا التي هي جزء من شِرْوان وكرجستان الحالية واخذ عاصمتها تفليس والمدن الأخرى الكبرى وفي اثناء ذلك مات سراقة واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة فأقره عمر (رض) على فُرج الباب وأمره بغزو الترك فسار شمالا واستخضع أكثر بلاد الجبل الممتدة على شطوط بحر الخزر وكان سكانها من الجهالة والتوحش على جانب عظيم وأمعن عبد الرحمن في البلاد حتى بلغ دربند واجتاز مضيقها الى السهول الشمالية وبلغت خيله على مائتي فرسخ من بلنجر ثم عاد الى الباب ولم يزل يردد الغزو فيهم حتى قتل في احدى غزاته على نهر ترك (ته رك) الذي يسميه العرب نهر بلنجر قتله خاقان ملك الخزر واخذ الراية أخوه سلمان وخرج بالناس فسلك طريق جيلان شمالي ارزنجان وبعضهم سلك طريق الباب الى ارمينيا وهنا نقطة الخلاف بين المؤرخين هل قتل عبد الرحمن في خلافة عمر أو في خلافة عثمان أم قتل هو في خلافة عمر وأخوه في خلافة عثمان فاذا سلمنا بما رواه الطبري من انّ عثمان كان أمد عبد الرحمن بأخيه سلمان وانّ الفارين من جند عبد الرحمن التقوا بسلمان في الطريق فنجاهم الله فتكون وفاة عبد الرحمن

(١) وفي مختصر تاريخ الارمن : تفين

في خلافة عثمان ولا عبرة بتعيين السنة التي قتل فيها بل العبرة في الفتح وهل حصل في زمنه أم لا ومما لا خلاف فيه انّ عبد الرحمن بلغ في فتوحه شمال القوقاز من جهة بحر الخزر كما بلغه حبيب من جهة البحر الاسود في خلافة عمر بن الخطاب اي ما بين سنة ١٨ وسنة ٢٠ هـ الاّ انّ ذلك الفتح كان فتحاً هيّناً على الجزية ثم تراجع الامراء الذين فرقهم سراقة بن عمرو للفتح كما نقل ذلك ابن خلدون في كلامه على فتح جبال ارمينيا الا عبد الرحمن ابن ربيعة فقد بقي في بلاد الخزر . ومما يؤيد ان هذا الفتح لم يكن فتحاً تثبت فيه البلاد على طاعة الخليفة ما نقله ابن خلدون ايضاً من انّ سراقة كتب الى عمر بخبر الامراء وتوجيههم الى فتح تلك البلاد : فلم يرج عمر تمام ذلك لانه فرج عظيم : أي انّ عمر لم يكن على ثقة من امكان فتح تلك البلاد وتملكها لاتساع فروجها اي ثغورها وتنائي اطرافها التي تحتاج الى كثير من الجند المرابط ولعله صدق حذره حتى قال ديفرجي انّ المسلمين اضطروا عقب ظفر الخزر على نهر ترك الى الجلاء عن كل ارمينيا وعادوا اليها بقوّة اعظم سنة (٦٤٦ م) أي سنة (٢٦ هـ) وهي السنة التي وجه فيها عثمان (رض) حبيباً وسلمان الى استرداد البلاد وفتح ارمينيا والقوقاز ففتحاها وكان الفتح الاول في الحقيقة تمهيداً للفتح الثاني الذي صارت به البلاد تابعة الى اليوم للدول الاسلامية ولم تنتقض الاّ في فترات قليلة ثم استتب فيها الامر للمسلمين وقد أشار صاحب مختصر تاريخ الارمن الى تسليم الارمن بعد الحرب الثانية للعرب على عهد ولاية سنباط بن فارازديروس من قبل امبراطور القسطنطينية اذ كان الارمن طلبوا والياً من قبله على بلادهم بعد اختلال أمر دولة الفرس التي كانت متسلطة عليهم وزالت سلطتها منذ بدأت حروبها مع العرب فولى

الامبراطور عليهم فارازديروس والد سنباط وتولى مقدار سنة ومات وأخلفه ابنه سنباط

واليك بيان ما ذكره المؤرخون عن سبب ارسال عثمان (رض) لحبيب وسلمان الى ارمينيا وكيفية فتحهما للبلاد وذلك سنة (٢٦ هـ) ولا عبرة بما يوجد في سياق خبر الفتح الثاني من الشبه بسياق الخبر الاول فان حبيباً وسلمان سلكا على ما أرى في هذا الفتح عين الطريق الذي سلكاه في الفتح الماضي اي انّ سلمان أخذ الى القوقاز من شرق ارمينيا وحبيباً أخذ اليها من قلب ارمينيا وغربها وقد أشار ديفرجي في كلامه على فتح ارمينيا الى ان العرب لما عادوا الى فتحها فى المرة الثانية سنة (٦٤٦ م) (٢٦ هـ) انتهوا الى اراراط من الولايات التى دخلوا اليها أوّل مرة

انتقضت ارمينيا وآذرْبَيْجان ايضاً بعد الفتح الذي كان في خلافة عمر (رض) امّا لقلة الجنود المرابطة فى البلاد ودخول الوهن على نفوسهم بعد قتل عبد الرحمن بن ربيعة ثم تحيزهم الى الاطراف والثغور التي من جهة فارس والجزيرة . واما لأن الامراء الذين فتحوا البلاد يومئذ اكتفوا من السكان بالجزية ثم تراجعوا الى الثغور كما تقدم ذكره لثقتهم بضعف امراء البلاد عن النهوض الى الثورة والخروج عن الطاعة . او لعدم كفاية الجند الذين معهم للمحافظة على البلاد وبسط جناح السلطة على تلك الارجاء السحيقة عن مقر الخلافة البعيدة عن مستودع القوّة والامداد كالبصرة والكوفة والشام فلما استخلف عثمان (رض) وعزل عتبة بن فرقد عن ازبيجان بلغه انّ البلاد انتقضت فاستغزى الوليد بن عقْبة والي الكوفة فغزاها فصالحه أهل كور آزربيجان على صلح حذيفة بن اليمان وبعث سلمان بن ربيعة الباهلي الى ارمينيا

في اثني عشر الفاً فسار اليها واثخن ثم انصرف الى الوليد وعاد الوليد الى الكوفة وجعل طريقه على الموصل فلقيه كتاب عثمان انّ الروم أجلبوا على معاوية بالشام فابعث اليهم رجلاً من أهل النجدة والبأس في عشرة آلاف فخطب الوليد في الجند واستحثهم على نصرة أهل الشام فانتدب منهم ثمانية آلاف فسار بهم الى الشام ثم دخلوا بلاد الروم مع حبيب بن مسلمة الفهري فشنوا الغارات وافتتحوا الحصون

المعروف ان مؤرخينا اذا ذكروا بلاد الروم انما يعنون بها آسيا الصغرى التي كانت يومئذ تابعة لامبراطورية القسطنطينية وكل ما هو تابع لها من الجزر ايضاً وربما اطلقوها احياناً على كل البلاد التي تلي الثغور الشامية والجزرية وهي ارمينيا والاناضول فاذا اعتبرنا هذا الاطلاق في هذه الرواية فيكون فتح ارمينيا على عهد ولاية الوليد بن عقبة على الكوفة والاّ فيكون مسير هذه الجنود الى بلاد الروم لصد هجمة أرادها الامبراطور قسطنطين على سورية أو لامداد أهل ارمينية على حبيب مسلمة الفهري كما ترى في الرواية الآتية التي هي أصح الروايات الواردة في أخبار فتح ارمينيا في خلافة عثمان وهي

لما استخلف عثمان (رض) كتب الى معاوية بولايته على الشام وولى عمير بن سعد الانصاري الجزيرة ثم عزله وجمع لمعاوية الشام والجزيرة وثغورها وأمره ان يغزو شمشاط وهي ارمينيا الرابعة أو يغزيها وقد كان حبيب بن مسلمة الفهري فتحها مع عياض بن غنم في خلافة عمر ثم أقفلت. وكان لحبيب رضي الله عنه أثر جميل في فتوح الشام والجزيرة وارمينيا فوجّهه معاوية في ستة آلاف مقاتل الى فتح ارمينيا وقيل بل كتب اليه عثمان يأمره

بذلك فنهض اليها حتى أناخ على قاليقلاسنة (٢٦هـ) فخرج اليه أهلها فقاتلهم حتى ألجأهم الى المدينة فطلبوا الصلح على الامان او الجزية فأجابهم الى ذلك فجلا منهم من جلا وأقام من أقام

وقولهم انّ حبيبا نهض الى قاليقلا يدل على ان ما يليها من البلاد الى الجزيرة لم يخرج يومئذ عن الطاعة اذ انّ المؤرخين لم يذكروا لحبيب قتالاً مع أحد فيما دون قاليقلا . ولما فتح حبيب قاليقلا أقام عليها أشهراً فبلغه انّ بطريق ارمنياقس واسمه الموريان قد جمع له جموعاً عظيمة وانضمت اليه امداد أهل اللان والخاز وسمندر من الخزر . وقال ابن الاثير ان ارمنياقس هي بلاد ملطية وسيواس واقصرا وقونيه وما والاها من البلاد الى خليج القسطنطينية . وهذه الزيادة لم يذكرها البلاذري ولا غيره من المتقدمين في سياق هذا الخبر وانما ذكرها ابن الاثير من عنده وهي خطأ على ما أرى اذ ليست الولايات التي ذكرها ابن الاثير من ارمينيا بل هي من ولايات آسيا الصغرى التابعة لامبراطورية القسطنطينية وانما كانت سيواس قديما تعتبر من ارمينيا ثم انضمت الى الامبراطورية الشرقيـة فامّا ان يكون الموريان يومئذ بطريقا على ارمينيا الغربية فسموه والي ارمينياقس وهو الذي أجلب عليهم بجموع من بلاد الخزر والقوقاس وارمينيا الغربية ولا دخل في هـذه التسمية لقونيه واقصره وغيرها من ولايات الامبراطورية الشرقية وامّا انه كان والياً على سيواس التي هي ارمينيا الامبراطورية وأجلب عليهم بجيوش رومية من هذه الولايات الاسيوية من قبل امبراطور القسطنطينية وعندي ان الاول ارجح

لمـا انتهى الى حبيب هذا الخبر كتب الى عثمان (رض) يسأله المدد

فكتب الى معاوية ان يشخص اليه من أهل الشام والجزيرة قوماً ممن يرغب فى الجهاد فبعث اليه معاوية الفي رجل أسكنهم قاليقلا وأقطعهم بها القطائع وجعلهم مرابطة بها وكتب أمير المؤمنين عثمان الى سعيد بن العاص ايضا وهو عامله على الكوفة بعد الوليد يأمره بامداده بجيش عليه سلمان بن ربيعة الباهلي وهو سلمان الخير وكان غزّاء فاضلاً خيّراً فسار سلمان بستة آلاف من أهل الكوفة وقد اقبلت الروم ومن معها فنزلوا على الفرات وقد ابطأ على حبيب المدد ورأى حبيب ان يبيّتهم ليلاً فأمر جنوده فبيتوهم فاجتاحوهم وقتلوا قائدهم

ومما يؤثر عن شجاعة النساء المسلمات وقوة جاشهن ومشاركتهن للرجال بشدائد الحروب يومئذ انّ أمّ عبدالله الكلبية امرأة حبيب قالت ليلتئذ له : أين موعدك : قال سُرَادِق الطاغية (يعني الموريان) او الجنة : فلمّا انتهى الى السرادق وجدها عنده

وحق لنساء مثل هذه المرأة الفاضلة التي تسابق الرجل الى الشرف او الموت أنْ يربين رجالاً عظاما وابطالاً كراماً مثل أولئك الرجال الذين فتحوا تلك الممالك الواسعة وسادوا على الامم الكثيرة . وما أقبح بالمرأة ان تفرط بالرفاهة وتستلم لعوامل الضعف والسكينة وهي أمّ الرجل الذي تقوم على كواهله دعائم الحياة البيتية فامّا سعيدة وامّا شقية

ثم انّ سلمان ورد وقد فرغ حبيب فأراد سلمان ان يتأمر على حبيب فأبى عليه حبيب حتى قال أهل الشام لقد هممنا بضرب سلمان فقال أوس ابن مغراء في ذلك وهو من جند سلمان

فانْ تضربوا سلمان نضرب حبيبكم وانْ ترحلوا نحو ابن عفّان نرحل

وان تُقسطوا فالثغر ثغر أميرنا وهذا أميرٌ في الكتائب مقبل
ونحن ولاة الثغر كنا حماتهُ ليالي نرمي كلَّ ثغر وننكل

هكذا روى البلاذري في تاريخه انّ الاختلاف بينهما وقع في هذه الغزوة وذكر البيت الاول من الابيات الثلاثة لكن الطبري أورد هذه الابيات في أخبار سنة (٣٢ هـ) وقال ان هذا الاختلاف وقع بينهما في هذه السنة في بلاد الخزر حيث كان سعيد بن العاص استعمل سلمان على ثغر الباب وأمدّه عثمان بحبيب بن مسلمة الفهري وفي البيت الثاني والثالث مايدل على ان هذا الخلاف كان في الباب اذ كان ثغر المسلمين يومئذ وهو تابع لعامل الكوفة وأميره يومئذ سلمان كما يظهر ذلك من قوله وان تقسطوا الى آخر البيت فاذا صح انّ هذه الحادثة كانت سنة ٣٢ فيكون سلمان لم يقتل في الخزر وانما الذي قتل أخوه فقط وذلك لان الذي كان يغزو الخزر بجند الكوفة من الباب يومئذ هو حذيفة بن اليمان وكان أميراً للحرب فيها ومازال يغزوهم حتى قتل عثمان (رض) كما روى الطبري في تاريخه

لما انتهى سلمان الى حبيب وقد فرغ من القوم سار الى غزو أرّان ومن ثم افترق القائدان فتوغل حبيب في ارمينيا الغربية متجهاً الى الشمال واتجه سلمان الى ارمينيا الشرقية آخذاً نحو الشمال ففتحا البلاد التي بين البحر الاسود وبحر الخزر حتى القوقاز حبيب من جهة الغرب أي من جهه البحر الاسود وسلمان من جهة الشرق أي من جهة بحر الخزر. فامّا ما فتحه حبيب بن مسلمة من البلاد فنرجئه الى خبر فتوحاته الذي سيرد في ترجمته ان شاء الله لانا عزمنا ان نفرد له ترجمة خاصة مع رجال عثمان رضى الله عنه وعنهم أجمعين

واما سلمان فانه سار الى أرّان ففتح مدينة البيلقان (فيتقران) صلحا واشترط على أهلها اداء الجزية والخراج ثم اتى بردعة وعسكر على نهر الثرثور على فرسخ منها فامتنعت عليه فماناها أياماً فصالحه أهلها على مثل صلح البيلقان وفتحوا له أبوابها فدخلها وأقام بها ووجّه خيله ففتحت غيرها من البلاد والرساتيق في أران ودعا أكراد البوشنجان (او البلاسجان) الى الاسلام فقاتلوه فظفر بهم فأقر بعضهم على الجزية وأدّى البعض الصدقة ممن دخلوا في الاسلام ثم سار الى مجمع نهر الكر (كور بالكاف الثقيلة) والرّس «أراس» فعبر الكر ففتح قبالة وكل البلاد الواسعة التي على الضفة الشمالية من نهر الكر ويسميها ديفرجي بلاد شاكي ثم دخل بلاد سشيوان وصالحه صاحب شكن وشيروان والباب وكل هذه البلاد واقعة الى الشمال الشرقي من نهر الكر حتى داغستان ومن ثم اختلف المؤرخون فبعضهم قال ان سلمان انتهى الى الباب ولم يتجاوزها ومنهم ابن خلدون و بعضهم يقول انه استخضع كل امراء الجبل ثم اجتاز مضيق دربند حيث قُتل مع معظم جيشه على نهر بلنجر وفيه أوفى أخيه عبد الرحمن وفي قتيبة بن مسلم فاتح تركستان يقول ابن جمانة الباهلي مفتخراً بهما لانهما باهليان

وانّ لنا قبرين قبر بلنجر وقبر بصينستان ياله من قبر
فذاك الذي في الصين عمّت فتوحهُ وهذا بأعلى الترك يسقى به القطر

ولا جرم انَّ قتيبة وسلمان وأخاه ليسو بفخر باهلة فقط بل هم وأمثالهم من الفاتحين فخر الأمة الاسلامية والذكر الخالد لها الذي يمثل عظمة رجالها الفاتحين تمثيلاً تزدهي به صفحات التاريخ

هذا ما انتهى اليه تحقيقنا في فتح ارمينيا والقوقاز الذي بلغ به المسلمون نهر ترك الذي يصب في بحر الخزر ماراً في السهول الواقعة وراء جبل القوقاز وفي اعتقادي ان المسلمين لو لم ينكبوا بنكبة نهر ترك ويخرب الخزر ما بينهم وبين مدينة الباب من البلاد والقلاع صداً لهجماتهم المتوالية على تلك الاصقاع السحيقة كما ذكر ذلك سديو لتجاوزا في فتوحاتهم يومئذ نهر قوما وأمعنوا في روسيا الشرقية على قسمين قسم ينعطف على بلاد القلموق واستراخان ويدور حول بحر الخزر أي بحر قزبين حتى ينتهي الى جرجان حيث يلتقي بالجيوش الاسلامية الضاربة في انحاء ولاية خراسان ويسير الى معاونة الجيوش الآخذة بتلابيب يزدجرد الذي قُتِلَ على نهرِ المرغاب. وقسم يتتبع مجرى نهر ولغا الى قازان وما والاها والله أعلم

دخول معاوية الى بلاد الروم
وفتح قبرص

كان اولئك الفاتحون كالتيار الجاري اذا صُدَّ من جهة انقلب الى جهة أخرى فان تذامر الخزر على قتال المسلمين واجتماعهم لصدهم عن التوغل فيما وراء بحر قزبين حوّل وجهة الفاتحين ثانية الى بلاد الروم وقد كانت امبراطورية القسطنطينية منذ فصل عنها المسلمون مصر وسورية والجزيرة تنظر الى جيوش المسلمين نظر الحذر وتراقب حركات الجيوش الاسلامية مراقبة الواقف لعدوّه بالمرصاد وكان القواد وزعماء الفتح الاسلامي عرفوا من الدولة البزنطية هذا الحذر فتحولوا عن مهاجمتها الى جهات أخرى وهكذا الى سنة (٢٥ أو ٢٦ هـ) حيث أغار معاوية بن أبي سفيان على الاناضول من جهة

اقليمي قبادوكيا وفريجيا فاخذ عمودية (١) ثم ارتد ولو رأى غرة من الروم لامن في البلاد حتى جدران القسطنطينية لكن الظاهر انه وجدالقوم في مكانةمن اليقظة والتحصن وجد بها الوصول الى بغيته من جهة البر أمراً دونه الصعاب فاتجه خاطره الى البحر وقد كان شديد الرغبة بالغارة على سواحل الاناضول وجزر البحر الابيض من عهد عمر بن الخطاب ولكن عمر رضي الله عنه لم يأذن له بذلك فاستشار عثمان رضي الله عنه هذه المرة اي سنة ٢٧ بغزو الروم من جهة البحر فأذن له على شرط ان يخير الناس فمن اختار الغزو في البحر يحمله معه فأعد لهذه الغزوة اسطولاً من سواحل الشام وكتب الى عبد الله بن سعد بن أبي سرح عامل مصر باعداد اسطول آخر واستعمل عبد الله بن قيس الجاسي على البحر وسار الاسطولان فاجتمعا في قبرص فصالحهم أهلها بعد قتال شديد على سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون الى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون عن ذلك وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم اليهم ويكون طريق المسلمين الى العدو عليهم . بمعنى ان تكون قبرص مستودعاً حربياً في البحر الابيض للمسلمين ومركز اتصال بينهم و بين اساطيلهم الماخرة في هذا البحر تلجأ اليها عند الحاجة

(١) كبادوكيا مقاطعة في الجهة الشرقية من آسيا الصغرى مما يلي ارمينيا وكانت تسمى قديماً بهذا الاسم وفريجيا او فروغيا مثلها أيضاً وهي من المقاطعات الوسطى في آسيا الصغرى واما عمورية فقد قال لاروس في قاموس العلوم الجديد (Nouveau Larousse illustré) انها من مدن فريجيا الكبرى واقعة على حدود غلاطية وكانت موطن ومنشأ الامبراطور تيوفيل وقد تخربت في حروب المسلمين ضد الامبراطورية الشرقية

وقد ذكر سديو في تاريخه ان معاوية فتح سنة (٢٩ هـ) أيضاً اقريطش (كريد) وجزيرة كوس وجزيرة رودس ومؤرخونا لم يقولوا بهذا والظاهر ان هذه الجزر فتحها معاوية في خلافته ايام هجماته المتتابعة على سواحل الروم وتدميره لاسطولهم العظيم ثم محاصرته للقسطنطينية كما سيأتي خبر ذلك كله في سيرة معاوية رضي الله عنه

فتح بلاد المغرب

وجغرافيتها

بلاد المغرب أو افريقيا الشمالية الغربية يحدها من الشمال الاوقيانوس الاطلانتيك ومضيق جبل طارق والبحر المتوسط وشرقاً بلاد مصر والبحر المتوسط أيضاً وجنوباً الصحراء الكبيرة وغرباً الاوقيانوس وكانت تنقسم في صدر الاسلام الى ثلاثة أقسام كبرى وهي (المغرب الادنى) وفيها ولايتا طرابلس وتونس وكانت قاعدتها القيروان بالقرب من تونس (والمغرب الاوسط) وهي المعروفة بالجزائر وقاعدتها تلمسان ومدينة الجزائر على البحر المتوسط (والمغرب الاقصى) وقاعدته فاس ومراكش . وينقسم الآن كل من هذه الاقسام الى أقسام صغرى فطرابلس الغرب تنقسم الى ثلاثة أقسام طرابلس وفزّان وبنغازي وهي تابعة للدولة العليـة (وتونس) وهى ولاية مستقلة تحت حماية فرنسا وهي تنقسم الى أقسام كثيرة صغرى (والجزائر) وهي تنقسم الى ثلاثة أقسام كبرى وهي الجزائر . ووهران وقسنطينة وهي تابعة للدولة الفرنساوية واما القسم الثالث وهو المغرب الاقصى فاشهر أقسامه

يحكمه الآن مولاي السلطان عبد العزيز (١) وأشهر مدن المغرب الادنى : طرابلس الغرب : وهي فرضة بحرية : وبرقة : وكانت تسمى قديماً انطابولس عمالات فاس . ومراكش . والسوس . ودرعه وتافيلالات وهو مستقل

(١) ما زال أهالي هذا المغرب في غفلة عن اطماع الدول الاوربية في هذه البلاد وحكومتهم فوضى لا عناية لها بالتعليم وانشاء دور العلم والصناعة الحديثة وتأسيس قواعد الحكومة على الاصول الجديدة التي ترتبط بها سعادة الامم وقوتها حتى فاجأها الاتفاق الفرنساوي الانجليزي الذي عقد بين هاتين الدولتين من بضعة شهور ومن مقتضاه اطلاق يد فرنسا في مراكش وعدم تعرض انجلترا لها بشيء اذا أرادت أخذ هذه البلاد وقد بدأت الحكومة الفرنساوية في التذرع بالذرائع السياسية للاستيلاء على هذه المملكة العظيمة ولم نسمع للحكومة المراكشية بازاء هذا الخطر المقبل والعدو اللدود الا لغطاً لايغني عنها شيئاً وانما تغني القوة والقوة بالعلم والتربية التي جعلت الامة اليابانية في ثلاثين سنة من أقوى دول الارض ولعمري ان استمساك أهل المغرب بالقديم وتحريمهم على أنفسهم الاخذ بكل أمر نافع لتوهم حرمة ذلك في الدين سينتهي بهم الى ما انتهى اليه حال بقية الممالك الاسلامية في آسيا وافريقيا كالهند والتركستان وتونس والجزائر والصومال وغيرها وأين من يعقل ويتبصر . وينظر الى المستقبل ويتدبر . وقد مني المسلمون بمرض الخمول فاصبحوا كالطير التي تعيش يوماً بيوم ولا تنظر الى ما يكون في الغد ولو ذلك لتنبه مسلمو المغرب الى ترقي اوروبا منذ قرن لانهم أقرب الامم جواراً لها ولاخذوا بالاسباب التي أوصلت جيرانهم الى قمة المجد والقوة وألفوا في افريقيا الشمالية من طرابلس شرقاً الى المحيط غرباً مملكة عظمى من أخصب ممالك الارض تحتوي على ١٦ مليوناً من النفوس اذا صارت لهم حكومة منظمة وانتشرت بينهم المعارف والعلوم لا يتيسر لدولة مهما كانت قوية ان تقدم على نزع استقلالهم قط بل ولكانوا لهذا العهد أصحاب السيادة على قسم كبير من اواسط افريقيا وغربيها ولعل المستقبل بهذه الامنية كفيل لاسيما متى شعر المسلمون هناك بألم الاستعباد واستناروا بشيء من نور المدنية الحديثة والله بما يأتي في الغد عليم

وفرضتها بنغازي : وتونس : وهي قرب اطلال قرطاجنة القديمة [١] وتسمى قديماً افريقياً وربما سموا اقليم تونس بهذا الاسم ثم سموا القارة كلها به من قبيل تسمية الكل باسم الجزء وهي على البحر ويليها : قابس : وبنزرت وصطفورة المعروفة قديماً بصوفيطوله وبالقرب من تونس مدينة القيروان أسسها عُقْبة بن نافع الفهري وجعلها قاعدة البلاد وبالقرب من القروان مدينة : رقّادة : والى الجنوب الشرقي منها مدينة طفاقس

ومن مدن المغرب الاوسط الشهيرة مدينة الجزائر المعروفة بجزائر مزغنة

---

(١) قرطاجنة مدينه عظيمة على البحر الابيض المتوسط أسسها الفنيقيون سكان سواحل سوريه وكان لها في التاريخ القديم شأن عظيم ومنها ظهر القائد الشهير هنبال الذي غزا الرومانيين في عقر دارهم وما زالت قرطاجنة التي كانت ضرة رومة شجي في حلق الرومانيين حتى والى عليها الرومانيون الغزوات وأخربها القائد سيبون سنة(١٤٩) قبل المسيح والظاهر ان الخراب لم يأت عليها كلها بل حفظت شيئاً من رونقها القديم الى العصر الاسلامي وتكرر عصيان أهلها وامتناعهم في حصونها العظيمة ولما اشتدت الفتنة الكبرى في افريقيا على عهد عبد الملك بن مروان أرسل حسان بن النعمان الغساني لاستخضاع أهلها فقصد البربر وقاتلهم ثم قصد قرطاجنة وافتتحها ولما عاد عنها امتنعت ثانية فرجع اليها وحاصر أهلها حتى الجأهم للتسليم بعد ان فر منهم من طريق البحر من فر ثم أمر بتخريبها فخربت وعفا أثرها ومن انقاضها عمرت مدينة تونس . وهذا التخريب وان عدّ عند الأثريين سيئة لحسان الا انه عند السياسيين ليس بشيء لان الدول من دأبها ان يعفي اللاحق منها أثر السابق واذا خرب المسلمون في افريقيا هذه المدينة فقد اقاموا مدناً غيرها ربما كانت أعظم منها كتونس والقيروان والقاهرة وغيرهن وانما تفضل قرطاجنة على غيرها باعتبار أنها أثر قديم من آثار أمة عظيمة كان لها شأن كبير في التاريخ . لذا فليس ببدع ان يأتي حسان ما أتاه ويأتيه غيره في كل دولة من الدول لاسيما وان اعتبار البلدان التاريخي الأثري لم يكن في تلك العصور بالمنزلة التي انتهى اليها في هذا العصر

او مزغنان : ومدينة تلمسان : وهما من الاقليمين المعروفين قديماً بموريتانية القيصرية والسيتفية : ومدينة قسطنطينة : وهي حاضرة الاقليم المعروف قديماً باقليم نوميديا : ومدينة مستغانم وهي على البحر ويصب قربها نهر الشليف او شلف ومدينة بونه أو عنّابه وهي على البحر المتوسط أيضاً ووهران مثلها أيضاً

ومن مدن القسم الثالث مراكش وفاس ومكناس او مكناسة لزيتون في جهة الشمال والوسط وططوان وسبتة ومليلا على شواطئ البحر المتوسط ومغادر وطنجة والرباط وسلا على شواطئ الاوقيانوس الاطلانتيك وطفيلة والسوس في جهات الجنوب والجنوب الشرقي . ومن جبالها جبل درن وغمارة ومديونة ونسر وكلها شعب من جبال أطلس الشهيرة

امّا فتح بلاد المغرب فقد تقدم معنا في سيرة عمرو بن العاص انه فتح برقة وطرابلس في خلافة عمر رضي الله عنه وضرب على أهلها الجزية ثم عاد بعد ان استخلف عقبة بن نافع الفهري على البلاد وقيل انه لم يستخلفه وانّ عثمان رضي الله عنه أرسله اليها لمّا أمر ابن أبي سرح بغزوها وتحرير الخبر عن ذلك انّ عثمان (رض) كان استعمل على الحرب في مصر عبد الله بن سعد ابن أبي سرح وأمره بغزو افريقيا سنة (٢٤ هـ) أو سنة (٢٥ هـ) وقال له ان فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم فامر عقبة بن نافع بن عبد القيس على جند وعبد الله بن نافع بن الحرث على آخر وسرحهما فخرجوا الى افريقيا في عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها ثم انّ عبد الله بن سعد بن أبي سرح شكا عمراً الى عثمان لخلاف وقع بينهما فاستقدمه عثمان واستقل ابن أبي سرح على

امارتي الخراج والحرب في مصر وكتب عبدُ الله يستأذن عثمان في قصد افريقيا ثانية ويستمده فاستشار عثمان (رض) الصحابه فأشاروا به فجهز العساكر من المدينة وفيهم جماعة من الصحابة وابناء الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين وابن الزبير وكثير غيرهم وساروا مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة (٢٦ هـ) ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة ثم ساروا الى طرابلس فقاتلهم الروم قتالا خفيفاً فبث عبد الله السرايا فى كل ناحيـة وسار الى افريقيا (تونس) فقابله عند مدينة يعقوبة وفي رواية سبيطلة حاكم (بطريق) افريقيا الشمالية من قبل امبراطور القسطنطينية واسمه غريغوار ويسميه العرب (جرجير) بمائة وعشرين ألف مقاتل واشتبك بينهم القتال وجاءهم عبد الرحمن بن الزبير [١] مدداً من قبل عثمان فشهد الحرب وقد غاب عنها عبد الله بن سعد فسأل عنه فقيل له انه سمع منادي جرجير يقول من يقتل ابن ابي سرح فله مائة ألف دينار وأزوّجه ابنتي فخاف وتأخر عن حضور القتال فقال له ابن الزبير نادي أنت بأن من قتل جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده : وقد كان جرجير لما سمع بوصول المدد سُقِطَ في يده الاّ انه جالد المسلمين جلاداً عظيماً فلما ابطأ عليهم الفتح أشار عبدالله بن الزبير على عبد الله بن سعد بأن يترك جماعة من ابطال المسلمين متأهبين للحرب ويقاتل العدوّ بباقي العسكر الى أن يضجروا فيحمل عليهم بالآخرين على غرة ففعل

(١) الزبير هنا بفتح الزاي كما صححه فى أسد الغابة وهو غير الزبير (بضم الزاي) ابن العوام والد عبد الله الذي قال بعض المؤرخين انه جاء مدداً لعبد الله بن سعد مع انه كان فى الجيش الذي بعثه عثمان (رض) لابن سعد قبل هذا كما رأيت

وركبوا من الغد الى القتال وألحوا على الاعداء حتى أتعبوهم ثم افترقوا وقد انهكهم التعب فركب عبد الله بن الزبير مع الفريق المستريحين وحملوا حملة واحدة حتى غشوا عسكر جرجير في خيامهم فانهزموا وقتل عبدالله بن الزبير جرجير (غريغوار) واخذت ابنته سبية فنفلها ابن الزبير وحاصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح سبيطلة ففتحها وكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف وهو فتح عظيم لم يفتح على احد مثله

ثم انّ عبد الله بن سعد بعث سراياه الى انحاء البلاد وعليها القواد ومنهم ابن الزبير فجالوا في اقطار المغرب غرباً وشرقاً وجنوباً فاغاروا من جهة الجنوب على اقليم بيزاسنه المعروف ببلاد النخل أو الجريد ومن الشمال والغرب على اقليمي نوميديا وموريتانيا في الجزائر ثم بلاد فاس ومراكش المعروفة بموريتانيا الطنجية وهكذا حتى انقادت لهم البلاد الى بوغاز جبل طارق ودفع أهلها لهم الجزية التي كانوا يدفعونها لقيصر الروم كما ذكر ذلك سديو في خلاصة تاريخ العرب واما مؤرخونا فقد اختصروا جداً في أخبار هذا الفتح وذكروا الصلح الذي عرضه عظماء افريقيا على ابن سعد وهو ان يعطوه ثلاثمائة قنطار من الذهب أي مليونين وخمسمائة ألف دينار ونيفاً فقبل ذلك منهم وأرسل ابن الزبير بالفتح والخمس الى أمير المؤمنين عثمان فاشتراه مروان بخمسمائة ألف دينار : قال ابن خلدون وغيره : و بعضهم يقول اعطاه اياه «أي الخمس» ولا يصح وانما اعطى عبد الله بن سعد بن أبي سرح خمس الغزوة الاولى

امّا عبد الله بن سعد فمن قائل انه عاد الى مصر ولم يولّ على افريقيا أحداً قال بهذا البلاذري في روايته عن الواقدي وقال الطبري ان عثمان صرف

عبد الله بن سعد عن افريقيا وولى عليها عبدالله بن نافع بن عبد القيس وقال ابن خلدون وغيره انه ولى عليهم والياً منهم ولعله الأصح كما يستدل على ذلك بمجيء قائد من قبل امبراطور الروم وطرده للوالي الذي ولاه المسلمون كما سترى : هذا ولما أصاب ابن سعد من افريقيا ما أصاب ورجع الى مصر جهز قسطنطين بن هرقل (هراقليوس) امبراطور القسطنطينية أسطولاً كبيراً مؤلفاً من ستمائة مركب أراد ان يهاجم به الاسكندرية على قول ابن خلدون وابن الاثير لم يذكر الجهة التي كان يريدها قسطنطين وفي ظني انه كان يريد افريقيا بدليل التجاء الامبراطور الى جزيرة صقليا (سيسليا) بعد انكساره في هذه الغزوة وهي قريبة من تونس ولما بلغ المسلمون خروج هذا الاسطول خرج لملاقاته في البحر اسطولان أسطول من الاسكندرية مع عبد الله بن سعد واسطول من سورية مع معاوية بن أبي سفيان والتقيا معه في عرض البحر فقرنوا السفن الى بعضها واقتتلوا قتالاً شديداً حتى استحرّ القتل فانهزم قسطنطين جريحاً الى صقليا بما بقي معه من الروم ولمّا علم أهل صقليا بفراره قتلوه . وسمى المسلمون هذه الغزوة غزوة ذات الصواري والمكان كذلك لكثرة ما كان فيها من الصواري

ثم ان الامبراطور قونستانس الثاني غضب على أهل افريقيا لما اعطوه من المال لعبدالله بن سعد لانه أكثرمما كانوا يعطونه لامبراطرة الروم واغتنم فرصة اضطراب المسلمين وانقسامهم في التنازع على الخلافة فأرسل من قبله بطريقاً ليأخذ منهم مثله فأبوا فقاتلهم وطرد البطريق الذي ولوه عليهم بعد جرجير (غريغوار) فالتجأ الى معاوية بن أبي سفيان وقد كان اجتمع له الامر فنصره وبعث معه ابن خديج لتدويخ البلاد وطرد الروم عنها ثانية كما سترى ذلك

في خلافة معاوية (رض)

﴿ تتمة فتح بلاد فارس وخراسان وطبرستان ﴾

(وقتل يزدجرد)

علمنا مما تقدم في سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان المسلمين فتحوا قسماً عظيماً من بلاد فارس أو مملكة الاكاسرة المعروفة قديماً ببلاد مادي وقد رأيت ان أبين هنا أقسام هذه المملكة ليكون القارئ على بينة مما فتح منها على عهد عمر (رض) وما فتح على عهد عثمان (رض) فاقول

بلاد فارس تنقسم الآن الى ثلاثة اقسام فارس الغربية وهي مملكة ايران وفارس الشرقية وهي مملكة افغانستان وبلوجستان وكان العرب يقسمونها الى أقسام كثيرة يسمونها كور (فالقسم الشمالي منها) مما يلي ارمينيا غرباً والقوقاز شمالاً يعرف بكورة آزربجان ومن مدنه الشهيرة تبريز وزنجان والبير والموقان والطيلسان والى الشرق منها قزبين الواقعة شمال بلاد الجبل حيث كانت تسمى بلاد الديلم ثم ان شرقي هذا القسم في الجهة الجنوبية من بحر الخزر أو بحر قزبين طبرستان وجرجان ومن مدنها الشهيرة دماوند (او دنباوند) واستراباذ والدامغان وقومس في جهة الجنوب وأبيورد ونسا وسرخس ومرو الشاهجان في جهة الشمال والشرق من هذا القسم والجزء الغربي منه يعرف الآن بمازندران (والقسم الغربي منها) يعرف بالعراق العجمي وخوزستان وبلاد الجبل ومن مدن العراق العجمي الشهيرة المدائن والنهروان على دجلة ومناذر وقصر شيرين ثم نهاوند وقاشان واصفهان من بلاد الجبل والاهواز ورامهرمز والسوس وجنديسابور من خوزستان (والقسم الجنوبي منها) يعرف بفارس وكرمان ومكران اوكورة السند

(وتعرف الآن ببلوجستان) وسجستان وهي بين مكران وخراسان ومن مدن فارس الشهيرة إصْطَخْر وفساودارابجرد وكازرون وجور ثم جيرفت وهميد والسيرجان من مدن كرمان ثم مكران وقنداييل وقنزبور وارمائيل وبيرون والديبل (ثغر على المحيط الهندي من كرمان او السند) ثم زالق على طرف المفازة المعروفة بمفازة كرمان (لعلها صحراء لوط) وزرنج التي يؤخذ منها الى وادي سناروز والكش من ناحية الهنـد ورشت وناشرورز من سجستان (والقسم الشرقي والشمالي الشرقي) يعرف بخراسان وطخارستان وزابلستان وهذا القسم اكثره واقع الآن في افغانستان وكان العرب يقسمونه الى اقسام كثيرة اوكور فمنها كورة مرو وهراة وطوس ونيسابور من ولاية خراسان وغزنة وكابل من زابلستان وبلخ من طخارستان : وأشهر مدن خراسان نيسابور الواقعة في الجهة الشماليـة الغربيـة من خراسان وطوس الى الشمال منها أيضاً ومن مدن نيسابور زام وبشت وباخرز وجوين وأبَرْشَهر وبيهق واسفرائن وأرغيان وغيرها ثم هراة ومرو الروذ في الجهة الشرقية من خراسان ومن مدن هذه الجهة بوشنج وباذغيس وباغون وطاغون وسنج وغيرها امّا طخارستان الواقعـة شرقي خراسان وشمال زابلستان وجنوب السغانيان فانّ من مدنها الشهيرة بلخ وهي عاصمتها وتعد الآن من بلاد التتار الجنوبية الواقعة جنوبي نهر جيحون والجوزجان والفارياب والطالقان وغيرها : وأمّا زابلستان فمن مدنها الشهيرة كابل وغزنه اهـ

هذا ما احببت بيانه من جغرافية هـذه البلاد وأما فتحها فقد تقدم الخبر عن فتح القسم الاكبر منها في خلافة عمر (رض) وقد كنت رأيت اختلافاً في بعض الروايات عن فتح خراسان هل كان على عهد عمر أو على

عهد عثمان والذي اتفق عليه أكثر المؤرخين ان فتح خراسان وسجستان وقسم من طخارستان كان على عهد عمر بن الخطاب ثم انتقضت أكثر بلاد فارس فأعاد المسلمون الكرة عليها على عهد عثمان (رض) ودوخوا هذه المملكة الى المحيط جنوباً والهند شرقاً وجيحون شمالاً فاستكمل لهم فتح فارس الشرقية والغربية وجزء من السند وقسم من تركستان واليك مجمل خبر الفتح

في السنة الثالثة من خلافة عثمان رضي الله عنه انتقضت آمد وبلاد الاكراد فعزم أبو موسى الاشعري والي البصرة يومئذ على الخروج لرد القوم الى الطاعة فحمل ثقله على أربعين بغلاً بعد ان كان يحض على الجهاد مشياً فتألب عليه أهل البصرة وذهب منهم وفد الى أمير المؤمنين عثمان فاستعفوه منه وتولى كبر ذلك غَيْلان بن خَرَشة الضبي فعزله عثمان وولى عبد الله بن عامر بن كُرَيْز بن ربيعة القرشي وهو ابن خال عثمان وكان ابن خمس وعشرين سنة وجمع له جند أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاصي من عُمَان والبحرين فصرف عبيد الله بن مَعْمَر عن خراسان وبعثه الى فارس وولى على خراسان مكانه عمير بن عثمان بن سعد فأثخن فيها حتى بلغ فرغانة ولم يدع كورة الا أصلحها ثم ولى عليها في السنة التالية أُميرْ بن احمر اليَشْكُري وعلى كرمان عبد الرحمن بن عُبَيْس واستعمل على سجستان عبد الله بن عُمَيْر الليثي فأثخن فيها الى كابل ثم عمران بن الفُضَيْل البُرْجُمي وعلى مكران عبيد الله بن معمر فأثخن فيها حتى بلغ النهر

ثم انَّ أهل فارس ثاروا وانتقضوا بعبيد الله بن معمر فسار اليهم فالتقوا على اصطخر فقتل عبيد الله وبلغ الخبر ابن عامر فاستنفر أهل البصرة وسار بالناس الى فارس وكان على مقدمته عثمان بن أبي العاصي وفي المجنبتين أبو

برزة الاسلمي ومعقل بن يسار وعلى الخيل عمران بن حصين وكلهم له صحبة فلقيه الثائرون باصطخر فقتل منهم مقتلة عظيمة وانهزموا وفتح اصطخر عنوة وسار بعدها الى دار ابجرد ومدينة جور وكان هَرِم بن حيّان محاصراً لها فلما جاء ابن عامر فتحها ثم عاد الى اصطخر وقد انتقضت ثانية فحاصرها طويلاً ورماها بالمجانيق وافتتحها عنوة ففنى فيها أكثر اهل البيوتات والاساورة لانهم كانوا لجأوا اليها ووطئ ابن عامر أهل فارس وطأة لم يزالوا منها في ذل وكتب الى عثمان رضي الله عنه بالفتح فكتب اليه ان يستعمل على بلاد فارس هَرِم بن حسان اليشكري وهرم بن حيّان العبدي والخرّيت بن راشد والمنجاب بن راشد والترجمان الهجيمي وأمره ان يفرق كور خراسان على جماعة فيجعل الاحنف بن قيس على المروين وحبيب بن قرّة اليربوعي على بلخ وخالد بن عبد الله بن زهير على هراة وأمير بن أحمر على طوس وقيس بن الهيثم السلمي على نيسابور ثم انّ عثمان رضى الله عنه جمع هذه الولاية قبل موته لقيس واستعمل أمير بن أحمر على سجستان

لما رجع ابن عامر الى البصرة بلغه نقض أهل خراسان ونكثهم فأتاه الاحنف بن قيس وقال له أيها الامير انّ عدوّك منك هارب ولك هائب والبلاد واسعة فسر فانّ الله ناصرك ومعزّ دينه فتجهز وسار واستخلف على البصرة زياداً واستعمل على حرب سجستان الربيع بن زياد الحارثي وعلى كرمان مجاشع بن مسعود السلمي وتقدم هو الى نيسابور وجعل على مقدمته الاحنف بن قيس فأتى الطبسين وهما حصنان وهما بابا خراسان ففتحهما عنوة ثم سيّر امزاءه الى أعمال نيسابور ففتحوا زام وقهستان وبيهق وبشت ثم تقدم ابن عامر وافتتح نيسابور وكل أعمالها وطوس كذلك وهراة وأعمالها

كما سيأتي تفصيل الخبر عن ذلك في سيرة ابن عامر ان شاء الله

وسيّر ابن عامر الاحنف بن قيس الى طخارستان فأتى سوانجرد فصالحه أهلها على ثلاثمائة ألف درهم ثم مضي الى مرو الروذ فقاتله أهلها ثم صالحوه وسيّر سرية فاستولت على رستاق بنغ فعظم الامر على أهل طخارستان فاجتمع لقتاله أهل الجوزجان والطالقان والفارياب ومنهم ملك الصغانيان (من تركستان الشرقية) فقاتلهم الاحنف قتالاً شديداً حتى هزمهم وقل جمعهم وفتح البلاد المذكورة ثم سار الى بلخ وهي مدينة (عاصمة) طخارستان فافتتحها ثم انعطف على خوارزم الواقعة على نهر جيحون في تركستان الغربية وحاول فتحها فلم يتيسر له ذلك فعاد الى بلخ وسيأتي الكلام على ذلك مفصلا في سيرة الاحنف ان شاء الله

واما مجاشع بن مسعود السلمي الذي سار لفتح كرمان فانه فتح هميد ثم اتى السيرجان وهي مدينة كرمان فحاصرها أياماً ثم افتتحها وفتح جيرفت عنوة ثم سار في كرمان فاستخضع أهلها ودوّخ مدنها وهرب كثير من أهل كرمان فلحقوا بمكران وسجستان فأقطعت العرب أراضيهم فعمروها واحتفروا لها القنيّ في مواضع منها وأدُّوا العشر عنها

واما الربيع بن زياد الحارثي الذي سار الى فتح سجستان فانه قطع المفازة (لعلها مفازة كوهستان وهي غير قوهستان التي مرّ ذكرها) فأتى حصن زالق وأغار على أهله وأسر الدهقان فافتدى نفسه بان غرز عنزة (١) وغمرها ذهباً وفضة وصالحه على صلح فارس ثم فتح كركويه ثم اتى روشت بقرب زرنج فقاتله أهلها وأصيب رجال من المسلمين ثم انهزم أهلها ثم أتى

(١) العنزة بفتحتين اطول من العصا وأقصر من الرمح وفيها زج كزج الرمح

ناشروذ ثم شرواذ ثم زرنج فنازلها وقاتله أهلها فهزمهم فصالحه مرزبانها على مال كثير ودخل المسلمون المدينة ثم ذهب الى وادي سناروز ثم رجع وأقام فى زرنج سنة وعاد الى ابن عامر بعد ان استخلف عليها عاملاً فاخرج أهل زرنج العامل وامتنعوا فاستعمل ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب ابن عبد شمس على سجستان فسار اليها فحصر زرنج فصالحه مرزبانها على ألفي الف درهم (مليونين) وغلب عبد الرحمن على ما بين زرنج والكش من ناحية الهند وغلب من ناحية الرخج على ما بينه وبين الداون فلما انتهى الى بلد الداون حصرهم في جبل الزوز ثم صالحهم ودخل على الزور وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتتان فقطع يده واخذ الياقوتتين ثم قال للمرزبان دونك الذهب والجوهر وانما اردت أن أعلمك انه لا يضر ولا ينفع. وفتح عبد الرحمن كابل وزابلستان وهي ولاية غَزْنة ثم عاد الى زرنج فأقام بها حتى اضطرب أمر عثمان فاستخلف عليها أُمَيْر بن أحمر وانصرف فعادوا الى العصيان

واما تم لابن عامر مثل هذا الفتح العظيم قيل له لم يفتح لاحد مافتح عليك. فقال لا جرم لأجعلنّ شكري لله على ان اخرج محرماً من موقفي هذا: فأحرم بعمرة من نيسابور وقدم على عثمان فاستخلف قيس بن الهيثم على خراسان فعاد القوم الى العصيان وجمع أمير منهم اسمه قارن جمعاً كبيراً من ناحية الطبسين وأهل باذغيس وهراة وقهستان وأقبل في أربعين ألفاً لمحاربة المسلمين فاستشار قيس بن الهيثم عبد الله بن خازم وقال ما ترى. قال أرى ان تخلي البلاد فاني أميرها ومعي عهد من ابن عامر اذا كانت حرب بخراسان فأنا أميرها وأخرج كتاباً كان قد افتعله عمداً فكره قيس منازعته وخلاه والبلاد وأقبل الى ابن عامر فلامه ابن عامر: قال جاءني

بعهد منك :

امّا ابن خازم فسار لملاقات قارن باربعة آلاف فلما قرب منه أمر الجند ان يدرج كل رجل منهم على زج رمحه قطناً مغموساً بالدهن أو النفط فلما أمسى أمرهم ان يشعلوا النيران في اطراف الرماح وانتهت مقدمته الى قارن نصف الليل فناوشوهم وهاج الاعداء على دهش وكانوا آمنين من البيات ولما دنا ابن خازم منهم ورأوا النيران يمنة ويسرة تتقدم وتتأخر وتنخفض وترتفع هالهم ذلك ثم غشيهم ابن خازم بجنوده فانهزموا وقتل قارن وتم الفتح وكانت مكيدة ابن خازم سبب النصر فكتب الى ابن عامر بالخبر فرضي وأقره على خراسان فلبث عليها حتى انقضى أمر الجمل وأقبل الى البصرة فشهد وقعة ابن الحضرمي وكان معه في دار سنبيل

هذا ما احببت ايراده من فتح فارس وخراسان وامّا طبرستان فقد كان فتحها على يدي سعيد بن العاص أمير الكوفة من قبل عثمان سنة (٣٠ هـ) وذلك ان سعيداً سار من الكوفة يريد خراسان بجيش فيه جماعة من الصحابة منهم حذيفة بن اليمان وفيه الحسن والحسين وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم وكان ابن عامر خرج من البصرة قاصداً خراسان فلما وصل سعيد وجده قد نزل ابْرَشَهْر فنزل قومس وهي صلح صالحهم عليها حذيفة بن اليمان بعد وقعة نهاوند ولم تنتقض وأتي جُرْجان فصالحوه على مائتي ألف ثم أتي طَمِيسه وهي كلها من طبرستان متاخمة جرجان وهي على ساحل بحر الخزر اي بحر قزبين فقاتله أهلها قتالاً شديداً حتى صلى صلاة الخوف وضرب يومئذ سعيد أحد المشركين على حبل عاتقه فخرج السيف من تحت مرفقه وحاصرهم

فسألوا الامان فأعطاهم وافتتح سهل طبرستان والرويان ودنباوند وأعطاه أهل الجبال مالاً . ثم كان المسلمون بعد ذلك يغزون طبرستان ونواحيها فربما أعطوا الاتاوة عفواً وربما أعطوها بعد قتال وما زالت هذه البلاد (اي جرجان وطبرستان) على شيء من الاستقلال يأبى أهلها الخضوع التام للدولة الاسلامية مدة الخلفاء الراشدين وبعض الامويين حتى استخضعها يزيد بن المهلب في خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان

﴿ مقتل يزدجر ﴾

كانت جيوش المسلمين في عهد عمر بن الخطاب ألجأت يزدجر للفرار الى حلوان ثم اصفهان وكانت كلما تقدمت في البلاد يفر أمامها حتى استقر على ما يقال في كرمان ولما انتقضت البلاد من فارس وخراسان على عهد عثمان ودوخها ثانية عبد الله بن عامر كما رأيت أخذ بمطاردة يزدجر وأرسل في أثره هرم بن حيان فاتبعه الى كرمان فهرب منها الى خراسان ثم لحق بمرد الروز وكاتب ملوك الصين وفرغانة والخزر فامدوه فسار بهم الى سجستان وقيل الى جرجان فالتقى بجيوش المسلمين فهزموه فالتجأ الى مرو الشاهجان فمنعه صاحبها من الدخول وكتب الى نيزك طرخان من ملوك الترك يستقدمه لقتل يزدجر ومصالحة العرب عليه وان يعطيه كل يوم ألف درهم فجاء نيزك الى يزدجر متظاهراً بنصرته واحتال عليه ليقتله فاحس يزدجر بالدسيسة ففر بنفسه وآوى الى ارحاء على نهر المُرْغاب وهو نهر يسيح فى مرو الروذ ثم يغيض في رمال الصحراء ثم يظهر في مرو الشاهجان فقتله صاحب الرحى وألقى شلوه في الماء : ويقول (سديو) في تاريخه انَّ الذي أمَدَّ يزدجر هو ملك الصين والتتار المسمى تاي تسنغ وانه هو الذي ساط عليه

بعد ذلك من قتله فقتل على شاطئ نهر المُرغاب وانقضت بقتله ايام الدولة الساسانية التي استمرت دولتها زاهيـة واعلامها على تلك الممالك خافقة نحو ثلاثمائة وتسع وعشرين سنة والملك بيد الله يؤتيه من يشاء

باب

﴿ أهم الاخبـار والحوادث فى عصره ﴾

(سقوط خاتم النبي في بئر أريس)

كان لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم خاتم من فضة نقش عليـه ثلاثة أسطر محمد . ورسول . والله . ولما توفي تختم به أبو بكر ثم عمر ثم تختم به عثمان ست سنين فحفروا بئراً بالمدينة شرباً للمسلمين فقعد عثمان على رأس البئر فجعل يعبث بالخاتم فسقط من يده في البئر فطلبوه فيها فلم يقدروا عليه فجعل مالاً عظيماً لمن جاء به واغتم لذلك غماً شديداً فلما يئس منه صنع خاتماً آخر على مثاله ونقشه فبقي في اصبعه حتى قتل وذهب الخاتم فلم يدر من أخذه وكان فقد هذا الخاتم مما أوخذ عليه عثمان رضي الله عنه لما بدأت المطاعن عليه

﴿ الطعن على العمال ﴾

﴿ خبر الوليد بن عقبة ﴾

كان الوليد بن عُقْبة [1] عاملا لعمر (رض) على عرب الجزيرة فلما كان بين سعد بن أبي وقاص و بين عبـد الله بن مسعود ما كان ممـا سبق ذكره في سيرة سعد عزل عثمان سعداً عن الـكوفة وولاها الوليد بن عقبة فقدم الـكوفة وسار في الناس سيرة حسنة فـكان أحب الناس في الناس

---

(١) هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط أبان بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف وكان الوليد بن عقبة أخا عثمان بن عفان لامه وأمهما أروى بنت عامر ابن كريز

وأرفقهم بهم فكان كذلك خمس سنين وليس على داره باب حتى نقم منه بعض الناس أموراً منها اتهامه بشرب الخمر وأفاضوا في الطعن عليه حتى استقدمه عثمان (رض) وأقام عليه الحد . وملخص الخبر على ما جاء في تاريخ الطبري انّ شباباً من أهل الكوفة نقبوا على ابن الحيسمان الخزاعي وكاثروه فنذر[1] بهم فخرج عليهم بالسيف فلمّا رأى كثرتهم استصرخ فقتلوه وأشرف عليهم أبو شُرَيْح الخزاعي من سطح داره فصاح بهم واقبل اليهم الناس فاخذوهم وفيهم زُهَيْر بن جُنْدب الازدي وموَرِّع بن أبي مورّع الاسديّ وشُبَيْل بن أُبَيّ الازديّ وغيرهم فشهد عليهم أبو شُريح وابنه فكتب الوليد بهم الى عثمان فكتب اليه في قتلهم فقتلهم على باب القصر في الرحبة فقال في ذلك عمرو بن عاصم التميمي من أبيات

لا تأكلوا ابداً جيرانكم سَرَفاً أهلَ الدّعارة في ملك ابن عفّان

ولهذا نقم على الوليد آباء المقتولين وأخذوا يترقبون به العثرات وكان شاعر من بني تغلب اسمه أبو زُبيد للوليد عليه يد مذ كان على عرب الجزيرة وقد كان نصرانياً فما زال به الوليد وعنه حتى أسلم في آخر قَدْمة قدمها وحسن اسلامه فاستدخله الوليد فأتى آتٍ أبا زينب وأبا مورّع وجُنْدُباً وهم يحقدون عليه مذ قتل ابناءهم فقال لهم هل لكم في الوليد يشارب أبا زُبيد ؟ فثاروا في ذلك وقالوا لاناس من وجوه أهل الكوفة هذا أميركم وأبا زُبيد خيرته وهما عاكفان على الخمر فقاموا معهم ومنزل الوليد في الرَّحَبة مع عُمارة بن عقبة وليس عليه باب فاقتحموا عليه من المسجد وبابه الى المسجد فلم يُفجأ الاّ بهم فنحّى شيئاً فادخلة تحت السرير فأدخل بعضهم يده فأخرجه فاذا

---

(١) نذر بهم أي علم بهم فحذرهم

طبق عليه تفاريق عنب وانما نحّاه استحياء ان يروا طبقة ليس عليه الاّ تفاريق عنب فقاموا فخرجوا واقبل بعضهم على بعض يتلاومون وسمع الناس بذلك فأقبل الناس يسبونهم ويلعنونهم ويقولون اقوام غضب الله لعملهم . فدعاهم ذلك الى التجسس والبحث فستر عليهم الوليد ذلك وطواه عن عثمان ولم يدخل بين الناس في ذلك بشيء وكره ان يفسد بينهم فسكت عن ذلك وصبر : قالوا وجاء جندب ورهط معه الى ابن مسعود فقالوا . الوليد يعتكف على الخمر وأذاعوا ذلك حتى طرح على ألسن الناس . فقال ابن مسعود . من استتر عنّا بشيء لم نتبع عورته ولم نهتك ستره فأرسل الوليد الى ابن مسعود فأتاه فعاتبه في ذلك وقال ايُرضى من مثلك بان يجيب قوماً موتورين (اي لهم عليه ثار) بما أجبتَ عليَّ . أيُّ شيء استتر به . انما يقال هذا للمريب . فتلاحيا « تلاوما » وافترقا على تغاضب ولم يكن بينهما أكثر من ذلك ثم أتي للوليد برجل يدّعي السحر ووجب عليه الحد فجاء جندب فضربه قبل ان يأمر به الامير بشيء فاجتمع الوليد وابن مسعود على حبسه فحبس ثم أطلق بأمر عثمان وغضب لجندب اصحابه فخرجوا الى المدينة فاستعفوا عثمان من الوليد فقال لهم عثمان : تعملون بالظنون وتخطئون في الاسلام وتخرجون بغير اذن ارجعوا : فردهم فلما رجعوا الى الكوفة لم يبق موتور في نفسه الاّ اتاهم فاجتمعوا على رأي فأصدروه (اى تآمروا فيما بينهم على ان يكيدوا للوليد فكادوا له) ثم تغفلوا الوليد وكان ليس عليه حجاب فدخل عليه أبو زينب الازديّ وأبو مورّع الاسدي فسلاّ خاتمه ثم خرجا الى عثمان فشهدا عليه بشرب الخمر ومعهم نفر ممن يعرف عثمان ممن قد عزل الوليد عن الاعمال فسألهما عثمان كيف رأيتما قالا كنّا من

غاشيته فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر: فقال ما يقيء الخمر الا شاربها فبعث اليه: فحلف له الوليد وأخبره خبرهم: فقال نقيم الحدود ويبوء شاهد الزور بالنار فاصبر يا أُخيّ: وأمر سعيد بن العاص بجلده وكانت عليه خميصة فنزعها عنه عليّ بن أبي طالب ثم ان عثمان (رض) ولى مكانه سعيد بن العاص:

وفي رواية انّ الوليد سكر وصلى الصبح باهل الكوفة أربعاً وقال: أزيدكم: فقال ابن مسعود مازلنا معك في الزيادة منذ اليوم: وشهدوا عليه عند عثمان فامر علياً بجلده فامر عليّ عبد الله بن جعفر بجلده

وروى الطبري ان الناس كانوا في الوليد فرقتين العامة معه والخاصة عليه وفي رواية له ايضاً انّ الوليد أدخل على الناس خيراً حتى جعل يقسم للولائد والعبيد ولقد تفجع عليه الاحرار والمماليك وكان يُسمَعُ الولائد وعليهن الحداد يقلن

ياويلنا قد عُزِلَ الوليدُ وجاءنا مُجَوِّعاً سعيدُ
ينقص في الصاع ولايزيد فَجُوِّع الاماء والعبيدُ

وفي رواية له عن الشعبي ان كان مما زاد عثمان الناس على يد الوليد انْ ردّ على كل مملوك في الكوفة من فضول الاموال ثلاثة في كل شهر يتسعون بها من غير انْ ينقص مواليهم من أرزاقهم

من نظر الى هذه الروايات بنظر الناقد البصير لا يرى فيها دليلا يؤيد صحة التهمة بل يرى منها النافية ومنها المثبتة ولقد يضطرب الذهن دون التثبت من حقيقة حادثة الوليد اذ أيّ مجنون بَلْه العاقل يجلس في منزل ليس عليه باب ولا حجاب يعاقر الخمر وهو يعلم انه بين قوم موتورين يترقبون به الفرص ويتتبعون العثرات وقد أحس منهم بالشر ، وعلم منهم ارادة

الغدر ، على انه سواء صحت هذه التهمة أو لم تصح فالذي يظهر من مجمل تلك الروايات ان هناك أموراً دبرت بليل يراد بها مطلق الطعن على العمال تذرعاً للوثوب على الخلافة وايقاظ الفتنة النائمة وحسبك دليلاً على هذا انّ سعيد ابن العاص لما جعل غاشيته من القراء وأهل السابقة بعد الوليد لقي من أهل الكوفة من الطعن عليه والشكوى منه مثل ما لقي الوليد الذي يزعمون انه كان يعكف على الخمر كما سترى بعدُ

لو كان أهل الكوفة على حق في الطعن على العمال لظلم أصابهم أو استبداد ظهر من أمرائهم لعدّ عملهم حسنة من حسنات الحرية التي كانت تتمتع بها الأمة يومئذ والعدل الذي لا تضام به نفس . ولا يهضم به حق . ولكن لمّا لم يكن الامر كذلك وكانت البواعث أخفى مما يعلنون فالتاريخ والعدل يشهدان بمؤاخذتهم كما سنبسط كل شيء في محله ان شاء الله

﴿ ولاية سعيد بن العاص الكوفة ﴾

كان سعيد بن العاص مقيماً مع معاوية بالشام وكان نشأ يتيماً في حجر عثمان فتذكر عمر يوماً قريشاً وسأل عن سعيد فيمن يتفقد من أمور الناس فقيل له انه بدمشق وانه مريض : فارسل الى معاوية ان ارسل اليّ سعيد في منقل (محفة) فبعث به اليه وهو دَنِف فما بلغ المدينة حتى افاق فقال ا يا ابن اخي قد بلغني عنك بلاء وصلاح فازدد يزدك الله خيراً هل لك م زوجة : قال لا : فقال عمر لعثمان ما منعك من هذا الغلام ان تكون زوج قال قد عرضت عليه فأبى : فزوجه عمر ولم يمت عمر حتى كان سعيد م رجال الناس وقد كان عمومته ذوي بلاء في الاسلام وسابقة حسنة وقُدْ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم :

هذا ملخص ما رواه الطبري عن سعيد وذكر صاحب الاغاني في خبر أبي قطيفة بن الوليد بن عقبة من سيرة سعيد ما يدل على انه كان من الكرم وعلو النفس على جانب عظيم فذكر انه مات في قصره خارج المدينة وعليه من الدين ثلاثمائة الف فاوصى لابنه بقوله : فاذا واريتني فانطلق الى معاوية فانعني له وانظر فى ديني واعلم انه سيعرض عليك قضاءه فلا تفعل واعرض عليه قصري هذا فاني اتخذته للنزهة وليس بمال : فلما نعاه ابنه الى معاوية سأله عن دينه ليقضيه فأخبره بوصيته فأخذ معاوية قصره بدينه وهو ثلاثمائة الف درهم ولما أرادوا وفاء الديون وجدوا اكثرها هبات كتب بها على نفسه صكوكاً كي لا يرد سائلاً سأله شيئاً فوفوها عنه . وهذا منتهى ما يروي عن كرم النفس وشرف الطباع وانما اوردت هذا الخبر ليكون دليلا على سيرة بعض عمال عثمان رضي الله عنه

هذا ولما ولى سعيد على الكوفة وذلك سنة (٣٠ ﻫ) خرج وخرج معه الاشتر وأبو خُشَّة الغفاري وجُندب بن عبد الله وابو مُصعَب بن جثّامة وكانوا فيمن شخص مع الوليد فرجعوا مع هذا فلما بلغ سعيد الكوفة صعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال

والله لقد بعثت اليكم واني لكاره ولكني لم أجد بداً اذا أُمرت ان أئتمر الا انّ الفتنة قد أطلعت خَطْمها وعينيها والله لاضربنّ وجهها حتى أقمعها (أزيلها) أو تعيينى واني لرائد نفسي اليوم ثم نزل

وسأل عن أهل الكوفة فأقيم على حال أهلها فكتب الى عثمان بالذي انتهى اليه . أن أهل الكوفة قد اضطرب امرهم وغُلبَ أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقُدْمة والغالب على تلك البلاد روادف ردفت ،

وأعراب لحقت ، حتى ما ينظر الى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها

فكتب اليه عثمان (رض) اما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم الا ان يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء . واحفظ لكلّ منزلته وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق فان المعرفة بالناس (أي بحقوقهم ومراتبهم) بها يصاب العدل

فارسل سعيد الى وجوه الناس من أهل الايام والقادسية فقال : أنتم وجوه من وراءكم والوجه ينبئ عن الجسد فابلغونا حاجة ذى الحاجة وخلة ذي الخلّة (اي الحاجة) . وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخلص بالقراء والمتسمتين (الخاصة) في سَمَرة ففشت القالة والاذاعة وانقطع الذين لا سابقة لهم ولا قدمة الى بعضهم وجعلوا يعيبون التفضيل ويعدونه جفوة فكان اذا لحق بهم لاحق من ناشئ أو أعرابي او محرّر (معتوق) استحلى كلامهم فكانوا في زيادة وأولئك في نقصان حتى غلب الشر فكتب سعيد الى عثمان بذلك . فنادى منادي عثمان الصلاة جامعة فاجتمعوا فأخبرهم بالذي كتب اليه سعيد وقال : يا أهل المدينة ان الناس يتمخضون بالفتنة واني والله لاتخلصنّ لكم الذي لكم حتى انقله اليكم ان رأيتم ذلك فهل ترونه حتى يأتي من شهد مع أهل العراق الفتوح فيه فيقيم معه في بلاده ؟

فقام أولئك وقالوا كيف تنقل لنا ما أفاء الله علينا من الارضين يا أمير المؤمنين ؟ فقال نبيعها ممن شاء بما كان له بالحجاز ففرحوا وفتح الله عليهم به أمراً لم يكن في حسابهم اه

وانما اراد عثمان بهـذا الاستبدال اما ان يجعل من شهد الفتوح في العراق واهل السابقة والايام يقيمون في تلك الديار ليكثر سوادهم ويغلب على سواد العامة والروادف الذين هم من جفاة الاعراب ومنهم ظهر الشر وبهم استعان أهل الفتنة واماً ليفرق الروادف الذين هم تبع في العطاء لاهل السابقة [1] عن العراق ليقيموا مع هؤلاء حيث يقيمون ويندفع شرهم عن الناس ونعم الرأي هذا من عثمان رضي الله عنـه لو لم تكن الفتنة قد بذرت بذورها وتمخض الناس بها فلا بد من ظهورها

﴿ حادثة أبي ذر والقول ﴾

﴿ بحرمة اكتناز المـال ﴾

كان ابو ذرّ من المشهورين بالتقى والصلاح شديد التمسك في الاعتقاد جريئاً في قول الحق وكان مقيماً بالشام مع معاوية وكان يعتقد انّ كل اموال الفيء هي من حقوق المسلمين وليس للامام أو من ينوب منابه ان يحتجن [2] شيئاً منها بل ينبغي ان تقسم على الناس شيئاً فشيئاً كما كان ذلك على عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما والظاهر ان معاوية كان يتوسل الى ادخار المـال لصرفه في وجوه المصالح العامة التي تقتضيها حالة الدولة وتدرجها في مدارج الحضارة بقوله : المـال مال الله . ومعناه يضعه الامام حيث يشاء . فوجد دعاة الفتنة من هذا القول ضالة الغرض الذي ينشدونه امّا للتشويش على عثمان رضي الله عنه والتأليب على عماله لمقاصد سياسية وامّا لمطلق الافساد

---

(١) راجع تفصيل ذلك فيما كتبناه عن العطاء والجيش في الجزء الثاني من سيرة عمر بن الخطاب (رض)

(٢) احتجن المـال ضمه واحتواه

بين المسلمين تشفياً وانتقاماً . فانطلق من هؤلاء ابن السوداء أو ابن سبأ اليهودي الى الشام واندس على ابي ذرّ وامثاله من الصحابة يوسوس لهم بما يوسوس فلم تنطلي حيلته على غير أبي ذرّ واليك ما رواه الطبري بهذا الصدد عن يزيد الفقعسي قال

لما ورد ابن السوداء الشام لقى أبا ذر فقال يا أبا ذر : الا تعجب الى معاوية يقول المال مال الله الا ان كل شيء لله كانه يريد ان يحتجنه دون المسلمين ويمحوا اسم المسلمين : فأتى أبو ذر معاوية وقال ما يدعوك الى ان تسمي مال المسلمين مال الله . قال معاوية يرحمك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره ؟ قال فلا تقله . قال فاني لا اقول انه ليس لله ولكن سأقول مال المسلمين

قال يزيد وأتى ابن السوداء أبا الدرداء . فقال له من انت أظنك والله يهودياً . فاتى عُبادة بن الصامت فتعلق به فاتى به معاوية فقال هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر

وقام أبو ذر بالشام وجعل يقول يا معشر الاغنياء واسوا الفقراء : بَشّر الذينَ يكنزونَ الذهبَ والفضةَ ولاَ ينفقُونها في سبيلِ الله بمكاوٍ منْ نارٍ تكوَى بها جباهُهم وجنوبهم وظهورُهم : فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وواجبوه على الاغنياء [1] وحتى شكا الاغنياء ما يلقون من الناس . فكتب معاوية الى عثمان ان أبا ذر قد أعضل بي وقد كان من امره كيت وكيت

---

(١) هذا القول يشبه ما يقول به الاشتراكيون فى هذا العصر فى اوربا من وجوب توزيع الثروة وقد بسطت الكلام عليه فى رسالة (تنبيه الافهام الى مطالب الحياة الاجتماعية والاسلام) فلتراجع

فكتب اليه عثمان ان الفتنة قد اخرجت خطمها وعينيها فلم يبق الا ان تثبت فلا تنكأ القرح[١] وجهز اباذر اليَّ وابعث معه دليلاً وزوده وارفق به وكفكف الناس ونفسك ما استطعت فانما تمسك ما استمسكت :

فبعث اليه بابي ذر ومعه دليل فلما قدم المدينة ورأى المجالس في اصل سلع قال . بشر اهل المدينة بغارة شعواء[٢] وحرب مذكار[٣] ودخل على عثمان فقال يا أبا ذر ما لاهل الشام يشكون ذَرَبَكَ[٤] فاخبره انه لا ينبغي ان يقال مال الله ولا ينبغي للاغنياء ان يقتنوا مالاً . فقال يا أبا ذر عليَّ ان اقضي ما عليَّ وآخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد وان ادعوهم الى الاجتهاد والاقتصاد . قال فتأذن لي في الخروج فان المدينة ليست لي بدار. قال او تستبدل الا شراً منها قال امرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اخرج منها اذا بلغ البناء سلعاً . قال فانفذ لما امرك به . فخرج أبو ذر حتى نزل الرَّبذة فخط بها مسجداً وأقطعه عثمان صرمةً من الابل وأعطاه مملوكين وارسل اليه ان تعاهد المدينة حتى لا ترتد اعرابياً ففعل

وروى الطبري أيضاً عن ابن عباس قال كان أبو ذر يختلف من الربذة الى المدينة مخافة الاعرابية وكان يحب الوحدة والخلوة فدخل على عثمان وعنده كعب الاحبار . فقال لعثمان لا ترضوا من الناس بكف الاذى حتى يبذلوا المعروف وقد ينبغي للمؤدي الزكاة ان لا يقتصر عليها حتى يحسن الى

---

(١) قوله فقد أعضل بي أي أعياني وقوله أخرجت خطمها أي مقدم أنفها وقوله فلا تنكأ القرح أي لا تدميه والقرح هو الجرح

(٢) أي متفرقة

(٣) أي ذات أهوال لا يقدم عليها الا ذكور الرجال

(٤) أي حدة لسانك

الجيران والاخوان ويصل القرابات . فقال كعب الاحبار من ادى الفريضة فقد قضى ما عليه : فقال له أبو ذر يا ابن اليهودية ما أنت وما هاهنا والله لتسمعنّ مني او لادخل عليك ورفع محجنه فضربه فشجه . فاستوهبه عثمان فوهبه له وقال (لابي ذر) يا أَبا ذر اتق الله واكفُفْ يدك ولسانك اه

واعلم ان قول أبي ذر بوجوب بذل المعروف والاحسان الى الناس على الوجه الذي يقوله ناشيٌ عن استمساكه الشديد بالدين وما اشرب به قلبه من فضائل الاسلام وتعاليمه التي ترمي الى ذلك الغرض الجليل لتجعل الناس كلهم بالتمتع بثمرات الحياة شرعاً سواء الا انه كان يتغالى بهذا المشرب تغالياً تستخشن مركبه النفوس الميالة من طبعها الى المزيد من كل شيٌ على ان القصد والتوسط في هذا المذهب هو المطلوب وليس هو فوق طاقة النفوس كما يتخيله بعض الشرهين في المال المغالين فى حب الذات فلو استمسك المسلمون بعروته وحملهم الخلفاء على طريقته لكانوا اعز الامم جانباً واسعدها حالاً إذ خلق التعاون على البر اذا نشأ بنشؤ الامة وتمكن من نفوسها يصير مع الزمن ملكة راسخة في الصدور تنمو بنمو الحياة القومية. ومن العجيب ان لا يتأصل هذا الخلق ولا تنمو هذه الملكة في نفوس الامة التي نزل كتابها بالحث عليه . والتخلق به . وقام من سلفها من ينبه العقول الغافلة عنه منذ نبت الاسلام . واجتمع على كلمته اولئك الاقوام ؛ وعسانا نلم بشيٌ من هذا البحث فيما يلي من هذا الكتاب ان شاء الله

هذا وقد جاء في حكاية شخوص أبي ذر الى الربذة روايات اخرى غير ما تقدم تحاشينا ايرادها كما تحاشاه الطبري وابن الاثير وغيرهما من محققي المؤرخين علماً منهم بضعف تلك الروايات . ولا جرم ان كل ناقد بصير اذا

رأى روايتين متضادتين يرجح المعتدلة منهما لارتياح الضمير اليها بالاضافة الى عصر الخلفاء الراشدين الذي هو خير العصور الاسلامية بشهادة التاريخ نفسه

واما أبو ذر رضي الله عنه فقد توفى في الربذة سنة (٣٣ هـ) اي بعد حادثته هذه وشخوصه الى الربذة بثلاث سنين

(باب)

« آثاره في الخلافة »

من أعظم آثار عثمان رضي الله عنه وجزاه عن المسلمين خير الجزاء جمعه الناس على مصحف واحد بعدان تعددت القراآت واختلف فيها أهل الامصار. وفضله في ذلك كفضل أبي بكر رضي الله عنه في جميع القرآن وتحرير الخبر عن ذلك كما ذكره ابن الاثير وابن عساكر ان حذيفة بن اليمان لما قفل مع سعيد بن العاص من غزوة آزربيجان والباب قال حذيفة لسعيد اني قد سمعت في سفري هذا امراً لئن تُرِكَ الناس عليه ليختلفُنّ في القرآن ثم لا يقومون عليه ابداً قال وما ذاك قال رأيت أهل الشام حين قدموا علينا فرأيت اناسا من أهل حمص يزعمون لاناس من أهل الكوفة انهم اصوب قراءةً منهم وان المقداد اخذها من رسول الله (ص) ويقول الكوفيون مثل ذلك وانهم أخذوا قراءتهم عن ابن مسعود ورأيت من أهل دمشق قوماً يقولون لهم لا نحن أصوب منكم قراءة ويقول هؤلاء لهم مثل ذلك. فلما رجع الى الكوفة دخل المسجد فحذر الناس مما سمع في غزاته تلك وحذرهم ما يخاف فساعده على ذلك اصحاب رسول الله (ص) ومن أخذ عنهم وعامة التابعين . وقال له اقوام ممن قرأ على عبد الله بن مسعود وما تنكر ألسنا نقرأ على قراءة ابن أم عبد ؟ وأهل البصرة يقولون على قراءة أبي موسى

ويسمونها لباب الفؤاد وأهل حمص يقولون على قراءة المقداد وسالم . فغضب حذيفة من ذلك والصحابة والتابعون وابناؤهم وقالوا لهم انما انتم اعراب فاسكتوا فانكم على خطأ وقال حذيفة والله لئن عشت حتى آتي اميرالمؤمنين لاشكون اليه ذلك ولاشيرن عليه ان يحول بينهم وبين ذلك حتى يرجعوا الى جماعة المسلمين والذي عليه أصحاب رسول الله (ص) بالمدينة فأغلظ له ابن مسعود فغضب سعيد بن العاص وغضب حذيفة فقاموا وتفرقوا ورحل حذيفة الى عثمان حتى قدم عليه فاخبره بالذي حدث وقال انا النذير العريان فادركوا هذه الأمة . فجمع عثمان الصحابة وأقام حذيفة فيهم بالذي رأى وسمع وبالذي عليه حال الناس فأعظموا ذلك ورأوا جميعاً مثل الذي رأى فارسل عثمان الى حفصة بنت عمر ان ارسلي الينا بالصحف ننسخها وكانت هذه الصحف التي كتبت في ايام أبي بكر على الوجه الذي ذكرنا في سيرته وأمر عثمان زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان اذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل بلسانهم ففعلوا فلما نسخوا الصحف ردها عثمان الى حفصة وأرسل الى كل أفق بمصحف وحرق ما سوى ذلك . وفي رواية لابن عساكر عن مصعب بن سعيد ان عثمان خطب يومئذ في الناس وعزم على كل رجل عنده شيء من كتاب الله لما جاء به فكان الرجل يجيء بالورقة والاديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة ثم دعاهم رجلاً رجلاً فناشدهم أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أملاه عليك ؟ فيقول نعم : فلما فرغ من ذلك عثمان قال من اكتب الناس قالوا كاتب رسول الله (ص) زيد بن ثابت . قال فأي الناس اعرب ؟ قالوا سعيد بن العاص قال فليمل

سعيد وليكتب زيد فكتب زيد مصاحف ففرقها في الناس : قال وسمعت بعض اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يقول : قد أحسن وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما احرق عثمان المصاحف : لو لم يصنعه هو لصنعته انا : فجزا الله عثمان عن الامة خير الجزاء فقد أحسن وبر فيما صنع وكان له فضل في رد الناس الى قراءة واحدة كفضل أبي بكر في جمع القرآن

﴿ زيادته في المسجد الحرام وفي مسجد الرسول ﴾

في سنة (٢٦ هـ) زاد عثمان في المسجد الحرام ووسعه وابتاع من قوم وأبى آخرون فهدم عليهم ووضع الاثمان في بيت المال فصيَّحوا [1] بعثمان فأمر بهم الى الحبس وقال أتدرون ما جرأكم عليَّ ؟ ما جرأكم الاَّ حلمي قد فعل هـذا بكم عمر فلم تصيحوا به . ثم كلمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد فأُخرجوا . وفي سنة (٢٩ هـ) زاد في مسجد رسول الله (ص) ووسعه وابتدأ في بنائه في شهر ربيع الأول وكان الجص يحمل اليه من بطن نخل وبناه بالحجارة المنقوشة وجعل عُمُدَه من حجارة فيها رصاص وسقفه ساجاً وجعل طوله ستين ومائة ذراع وعرضه مائة وخمسين ذراعاً وجعل أبوابه على ما كانت عليه على عهد عمر ستة أبواب

﴿ جملة مآثره ﴾

من مآثره الجليلة انْ رَزَق المماليك دون ان ينقص شيئاً من رزق (مرتب) مواليهم كما مر الخبر عن ذلك في الكلام على عزل الوليد بن عقبة وزيادته في الاعطيات للناس . ومن مآثره ترتيب الطعام في شهر رمضان لاهل المدينة واقامته دور الضيافات في الكوفة كما روى ذلك

(١) صيح صوّت باقصى طاقته

الطبري : ومن مآثره اقطاعه الارضين التي جلا أهلها عنها للعرب لكي يعتملوا فيها ويعمروها كما مر بك الخبر عن مثل ذلك في فتح كرمان وقد كان عمر رضي الله عنه لا يأذن باعتمال العرب في الارضين كما علمت من سيرته وأذن لهم عثمان رضي الله عنه لما اتسع الفتح وانتشر العرب في البلاد وجلا من جلا من أهلها ورأى ضرورة احياء ما تركوه من الارضين وان يقوم العرب على عمرانها ضنًّا بها ان تهمل ويخسر ثمرتها الدولة والناس

ومن مآثره اتخاذ دار القضاء كما يظهر ذلك من رواية رواها ابن عساكر عن أبي صالح مولى العباس قال . ارسلني العباس الى عثمان ادعوه فأتيته في دار القضاء الى آخر الحديث فاذا صح فيكون عثمان هو أول من اتخذ في الاسلام داراً للقضاء وقد كان الخليفتان قبله يجلسان للقضاء في المسجد كما هو مشهور

﴿ أولياته ﴾

نقل السيوطي عن الاوائل للعسكري ان عثمان أول من اقطع القطائع وأول من حمى الحمى وأول من خفض صوته بالتكبير وأول من خلّق (نقش) المسجد . وأول من امر بالآذان الاول في الجمعة . وأول من رزق المؤذنين وأول من ارتج عليه (من الخلفاء) في الخطبة . وأول من قدم الخطبة في العيد على الصلاة . وأول من فوض الى الناس اخراج زكاتهم . وأول من ولي الخلافة في حياة أمه . وأول من اتخذ صاحب شرطة . وأول من اتخذ المقصورة في المسجد (المشهور ان أول من اتخذها معاوية) وأول ما وقع الاختلاف في زمانه بين الامة نخطأ بعضهم بعضاً في أشياء نقموها عليه وكانوا قبل ذلك يختلفون في الفقه ولا يخطئ بعضهم بعضاً . هذا ما نقله

السيوطي من أوائل العسكري وزاد عليه انه أول من هاجر الى الله بأهله وأول من جمع الناس على حرف واحد في القراءة اهـ

باب

أخلاقه ومناقبه

(سياسته وعدله)

كان عثمان رضي الله عنه ليّن الجانب رؤوف القلب محسناً الى الرعية ومن أبطرته النعمة وغره حلم الامير . ولم يكن له زاجر من نفسه . ورقيب عليه من خلقه . ربما انقلب الى الاساءة فى مقابل الاحسان كما وقع ذلك لعثمان (رض) فيمن أحسن اليهم كمحمد بن أبي حذيفة وامثاله من الذين حرّضوا عليه ، وأساؤا اليه ، لذا كانت سياسة اللين والاناة التي اتبعها عثمان محمودة في نفسها مذمومة فى نتائجها والعرب وان كانوا يومئذ ذوي اخلاق عالية يندر وجودها فى غيرهم من الامم كالكرم وبذل المعونة والشجاعة والاقدام الاّ انه كان ينقصهم النظر فى العواقب ، وعدم التجارب ، لبعدهم عن سياسة الملك ولوازم الحضارة ويذرى بهم الاستغراقُ فى البداوة وفَقْدُهم لاصول التربية الصحيحة وشرههم الى الفخر بالعصبية والاعتزاز بالقبيلة وكل هذا من الامور التي تبعث على حب الشقاق وهدم أركان الاناة وتسرع بخطى الناس الى مواقع الفتن لهذا فالقوم يومئذ قل ان تنجع فيهم سياسة كلها لين بل الانجع فيهم والاولى في تقويم أودهم سياسة وسط بين الشدة واللين ريثما تأنس بالطاعة نفوسهم . وتستنير بنور الاسلام عقولهم . ومن تأمل فيما جاء به الاسلام من الزواجر القامعة . والقوارع الزاجرة . والوعيد الشديد. علم لماذا اختار الشارع طريق الشدة فى استصلاح القوم وقد انتهج أبو بكر وعمر هذا

المنهج فى سياسة العرب فمضت أيامهما والأمة فى شاغل من الرهبة واشتغال بالفتح ليس فيها من يجرأ على شق عصا المسلمين او مناهضة الخليفة فى شأن من شؤون الدولة الا ما كان من نصيحة يؤدونها أو رأي صالح يبدونه أو كلمة حق يقولونها بسائق الحرية التي ألفوها والواجب الذي يدعوهم الدين اليه فلما ولي عثمان وانكشف لهم من لينه جانب الضعف ناهضه قويهم واجترأ على قول غير الحق ضعيفهم حتى اذا أراد ان يبسط على بعضهم يد القوة . ويأخذ منهم على الشكائم . نفروا منه . وتحولوا بكليتهم عنه . فكان احسانه اليهم ولينه معهم سبب اساءتهم اليه . وافترافهم فى مذاهب الاختلاف عنه . يدلك عليه ما رواه ابن عساكر فى تاريخه عن سالم بن عبد الله قال

لما ولى عثمان حج سنواته كلها الى آخر حجة حجها وحج بازواج النبي صلى الله عليه وسلم معه كما كان يصنع عمر فكان عبد الرحمن بن عوف فى موضعه وجعل فى موضع نفسه سعيد بن زيد هذا فى مؤخر القطار وهذا فى مقدمته وأمر الناس(١) فكتب في الامصار ان توافيه العمال في كل موسم ومن يشكوهم وكتب الى الناس والامصار ان ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ولا يذل المؤمن نفسه فاني مع الضعيف على القويّ ما دام مظلوماً ان شاء الله . فكان الناس كذلك فجرّ ذلك الى ان اتخذه اقوام وسيلة الى تفريق الامة اه (اي بحجة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر) وربما يعجب القارئ ان يجر مثل هذا الحلم والتناهي في الرأفة والعدل الى ما كان من الفتن والجرأة على التوثب على الخليفة لكن ما بسطناه من اخلاق القوم

(١) الناس تطلق على الواحد فأكثر فقوله امر الناس أي امر واحداً : وفى رواية الطبري فامن الناس وكتب الى الامصار الخ الحديث

يكفي للدلالة على ان عثمان جرّ على نفسه ما جرّ بسياسة اللين التي لا تصلح لقوم شأنهم ما ذكرناه لا سيما اذا اضفنا الى هذا من سياسة عثمان رضي الله عنه أمرين عظيمين (الأول) اطلاقه سراح المهاجرين من المدينة وقد كان يمنعهم عن الخروج منها عمر (والثاني) استبداله بعض العمال بمن ليسوا في مقدرة من اختارهم عمر للاعمال كسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص وأشباههما (فاما الامر الاول) فقد ذكروا ان عمر كان حجر على اعلام قريش من المهاجرين الخروج فى البلدان الا باذن وأجل [١] وروى ابن عساكر عن محمد وطلحة قالا فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذي كان أخذهم به عمر فانساحوا في البلاد فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع اليهم من لم يكن له طول ولا مزية في الاسلام وكان مغموراً في الناس وصاروا اوزاعاً اليهم وأملوهم وتقدموا في ذلك وقالوا يملكون فنكون عرفناهم وتقدمنا في التقرب والانقطاع اليهم فكان ذلك أول وهن دخل على الاسلام وأول فتنة كانت في العامة ليس لها ذلك اه

وأنت ترى من هذا الخبر مقدار الخطر الذى جرّه على نفسه عثمان بمثل هذه السياسة التي وان كانت في نفسها عدلاً وحسن صنع ومنة على قريش كمنته فى بذل جانب اللين والاحسان لعامة المسلمين الا انها جاءت قبل اوانها فكانت فتنة للمهاجرين وضراً على الخلافة كما سترى ذلك في غير

(١) روى الطبري عن الشعبي قال لم يمت عمر حتى ملته قريش وقد كان حصرهم بالمدينة وامتنع عنهم وقال ان أخوف ما أخاف على هذه الامة انتشاركم في البلاد . فان كان الرجل ليستأذنه في الغزو وهو ممن حبس في المدينة من المهاجرين ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة فيقول قد كان لك فى غزوك مع رسول الله ما يبلغك وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك .

هذا المحل ان شاء الله

واما الامر الثاني وهو استبداله من هو أقوى من العمال بمن هو أضعف فقد كان سببه استضعاف اعدائه له واغترارهم بحبه للانصاف اذا طلب أحد من الناس ان ينصفهم من احد عماله فكانوا يكيدون لعماله المكائد لكي يستعفوه ممن لا يريدونه منهم وكان من اكثر عماله يقظة وأشدّهم أخذاً برقاب أهل الفساد وأسدّهم سياسة في الرعية عمرو بن العاص فما زال به أهل مصر حتى عزله عثمان وجمع امارتي الخراج والحرب لعبد الله ابن سعد بن أبي سرح وقد كان عبد الله أميراً على الحرب في خلافة عثمان وأميراً على الصعيد الاعلى في خلافة عمر وتوفي عمر وهو أمير على الصعيد ولم يكن ابن أبي سرح بالضعيف ولا الجبان الاّ انه كان لهم من سابقته في اهدار رسول الله (ص) دمه وقرابته من عثمان وسيلة يتوسلون بها في كل وقت الى مناهضة مثله ومحاجة عثمان بولايته وقد كان ذلك كذلك كما سترى بعدُ.

واما تسرع عثمان (رض) في عزل مثل عمرو بن العاص بدسائس اولئك الناس فقد رواه ابن عساكر عن يزيد الفقعسي قال

لما خرج ابن السوداء الى مصر اعمر فيهم (اي لزمهم) فأقام فنزل على كنانة بن بشر مرة وعلى سودان بن حمران مرة وانقطع الى الغافقي فشجعه الغافقي فتكلم واطاف به خالد بن ملجم وعبد الله بن زريم واشباه لهم فصرف لهم القول فلم يجدهم يجيبون الى شيء مما يجيبون الى الوصية (اي وصية علي) فقال عليكم نابُ العرب وحجرهم ولسنا من رجاله فأروه انكم تزرعون ولا تزرعون العام شيئاً حتى ينكسر الخراج فتشكونه فيعزل عنكم ونسأل من هو أضعف منه ونخلو بما نريد ونظهر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

وكان أسرعهم الى ذلك وأعلاهم فيه محمد بن أبي حذيفة وهو ابن خال معاوية وكان يتيما في حجر عثمان . فلما ولي استأذنه في الهجرة الى بعض الامصار فخرج الى مصر وكان الذي دعاه الى ذلك انه سأله العمل. فقال (اي عثمان) لست هناك ففعلوا ما أمرهم به ابن السوداء ثم انهم خرجوا أو من شاء الله منهم وشكوا عمراً واستعفوا منه . فكان كلما نهنه (زجر) عثمان عن عمرو قوماً وسكنهم وأرضاهم وقال انما هو أمير. انبعث آخرون بشيء آخر وكلهم يطلب عبد الله بن سعد بن أبي سرح . فقال لهم عثمان اما عمرو فسننزعه عنكم لما زعمتم أنه أفسد واما الحرب فسنقره عليها ونولي من سألتم . فولى عبد الله بن سعد خراجهم خراج مصر وترك عمراً على صلاتها فمشى في ذلك سودان بن حمران وكنانة بن بشر وخارجة واشباههم فيما بين عمرو وعبدالله ابن سعد واغروا بينهما حتى احتمل كل واحد منهما على صاحبه وتكاتبا على قدر ما أبلغوا كلٌّ واحد منهما . فكتب عبد الله بن سعد (اي لعثمان) ان خراجي لا يستقيم ما دام عمرو على الصلاة فخرجوا فصدقوه واستعفوا من عمرو وسألوا عبد الله فكتب عثمان الى عمرو انه لا خير لك في صحبة من يكرهك فأقبل : وجمع مصر لعبد الله صلاتها وخراجها . فقدم عمرو فقال له عثمان : أبا عبدالله ما شأنك استحيل رأيك : فقال . يا أمير المؤمنين دعني فوالله ما ادري من اين أُتيت وما اتهم عبد الله بن سعد وان كنت لاهل عملي كالوالدة وما قدر العارفُ والشاكر على معونتي اه

وقد تقدم في سيرة عمر وسياسته مع عماله انه كان لا يعزل عاملاً عن شكاة الاّ بعد ان يرسل محمد بن مسلمة لتحقيق وجوه الشكوى و يستقدم الشاكي والمشكو منه الى المدينة ليقف بنفسه على جلية الامر كما انه لم يول

الاعمال احداً من ذوي قرباه لذا لم يجعل لأحد من الناس سبيلاً عليه ولا على عماله الاّ بالحق بخلاف عثمان فانه لما لم يسلك في سياسته مع العمال هذا الطريق الاسدّ والنهج الاوضح واطلق للقوم عنان القول بحق وبغير حق فجعل يسرع بالعزل تارة ويمسك من شاء أخرى أوجد للقوم سبيلاً اليه فقلبوا له ظهر المجن وملأوا عليه الارض بالفتن كما سيأتي الكلام عليه في محله ان شاء الله

واما عدله فما يروى عنه ما أخرجه ابن عساكر عن عطاء بن فروخ مولى القرشيين قال : اشترى عثمان من رجل أرضاً فابطأ عليه فقال ما منعك من قبض مالك . قال انك غبنتني فما ألقى من الناس أحداً الا وهو يلومني قال أذلك يمنعك ؟ قال نعم . قال فاختر بين أرضك ومالك ثم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ادخل الله الجنة رجلاً كان سهلاً مشترياً أو بائعاً . وقاضياً ومقتضياً)

ومنه ما اخرجه ابن سعد عن موسى بن طلحة قال . رأيت عثمان يخرج يوم الجمعة وعليه ثوبان اصفران فيجلس على المنبر فيؤذن المؤذن وهو يتحدث يسأل الناس عن أسعارهم وعن أخبارهم وعن مرضاهم : وهذا يدل على انه كان دائم التفقد لحال الرعية والسؤال عنهم

﴿ أدبه وتأديبه ﴾

﴿ أدبه مع نفسه ومع الرسول ﴾

اخرج ابن عساكر عن ابن عيينة انه قال. قال عثمان بن عفان ماتغنيت ولا تمنيت ولا شربت خمراً في جاهلية ولا اسلام ولا مسست فرجي بيميني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : وقوله ولامسست الخ تناه

في الادب مع الرسول صلى الله عليه وسلم والاحترام ليده الشريفة التي مس بها يده ليس بعجيب صدوره عن عثمان مع ما عرف به من حب الرسول صلى الله عليه وسلم واحترامه له وبذل ماله في سبيل مرضاته فرضي الله عنه وارضاه

﴿ تأديبه لنفسه ﴾

نقل في الرياض النضرة في فضائل العشرة من رواية ابن السمال عن أبي الفرات قال . كان لعثمان عبد فقال له اني كنت عركت اذنك فاقتص مني . فاخذ باذنه ثم قال عثمان . اشدد يا حبذا قصاص في الدنيا لا قصاص في الآخرة

وهذه مكانة من كرم الاخلاق وخفض الجناح والتقوى واعطاء الحق لايبلغها الاّ اولئك الصحابة الكرام الذين تخلقوا بخلق نبيهم عليه الصلاة والسلام

﴿ تأديبه المسلمين ﴾

من اخباره في التأديب ما اخرجه ابن عساكر عن أبي الزناد انه ذكر ان رجلاً من ثقيف جلد في الشراب في خلافة عثمان بن عفان وكان لذلك الرجل مكان من عثمان ومجلس في خلوته فلما جُلد أراد ذلك المجلس فمنعه اياه وقال . لا نعود الى مجلسك ابداً الاّ ومعنا ثالث

وروى الطبري ان رجلاً استخف بالعباس في منازعة كانت بينهما فضربه عثمان فقيل له في ذلك . فقال نعم أيُفَخّم رسول الله (ص) عمّه وأُرخّص في الاستخفاف به لقد خالف رسول الله (ص) من فعل ذلك ومن رضي به منه

﴿ تواضعه ﴾

كانت اخلاق عثمان رضي الله عنه كلها فضائل اتشح بردائها وأخذ

لنفسه بها ولو لم يأت عليه الكبر فيضعفه وتضطرب سياسته من اجل ذلك في اواخر خلافته فيكون من الطعن عليه ما كان لما شاب سيرته شائبة ولكانت كسيرة صاحبيه واما ما عدا تلك الحوادث التي حدثت له ومهدت لبعضهم سبيل الانكار عليه فهو في المكانة العليا من الاخلاق البارة والشيم الجميلة وأخصها التقوى والكرم والتواضع والحياء . فما جاء من اخبار تواضعه ما اخرجه ابن عساكر في تاريخه عن الحسن قال . رأيت عثمان نائماً في المسجد ورداؤه تحت رأسه فيجيء الرجل فيجلس اليه ثم يجيء الرجل فيجلس اليه ويجيء الرجل فيجلس اليه كأنه أحدهم . وروى عن الحسن أيضاً انه سئل عن القائلة في المسجد فقال رأيت عثمان بن عفان وهو يومئذ خليفة يقيل في المسجد ويقوم وأثر الحصا بجبينه فقيل هذا أمير المؤمنين هذا أمير المؤمنين

واخرج عن علي بن مسعدة عن عبد الله الرومي قال كان عثمان يلي وضوء الليل بنفسه فقيل له لو أمرت بعض الخدم فيكفوك قال لا الليل لهم يستريحون فيه . وعن الزبير بن عبد الله قال . حدثتني جدتي انّ عثمان كان لا يوقظ أحداً من أهله اذا قام من الليل الاّ ان يجده يقظان فيدعو فيناولوه الوضوء وكان يصوم الدهر

﴿ حياؤه ﴾

كان عثمان (رض) مشهوراً بشدة الحياء وهو خلق جميل وأدب نفسي يزين المرء اذا توسطه ولم يفرط فيه ولعلّ من جملة ما أطمع الناس في عثمان شدة حيائه وحلمه كما أشرنا الى ذلك في سياسته ولا عجب في ذلك فان من الناس من اذا استحييت منه لم يستح منك وجرّأه حياؤك عليك . ومما جاء من اخباره في الحياء ما رواه ابن عساكر عن سالم أبي جُمَيع الهُجَيمي قال

ذكر عند الحسن حياء عثمان وانا اسمع قال (اي الحسن) كان عثمان ليكون في جوف البيت والباب عليه مغلق فيضع ثوبه ليفيض عليه الماء فيمنعه الحياء ان يرفع صلبه

﴿ شفقته على الرعية ﴾

نقل في الرياض النضرة عن سليمان بن موسى ان عثمان بن عفان دعي الى قوم كانوا على أمرٍ قبيح فخرج اليهم فوجدهم تفرقوا ورأى أمراً قبيحاً فحمد الله اذ لم يصادفهم واعتق رقبة

واعلم ان الصحابة وأخصهم الخلفاء الاربعة كانوا يتحاشون فضيحة الناس خصوصاً فيما يترتب عليه حد من الحدود اقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام وسنفرد للكلام على هذا الامر باباً مخصوصاً في هذا الكتاب ان شاء الله

﴿ كرمه ﴾

كرم عثمان معروف وقد سبق في هذا الكتاب ذكر تجهيزه لجيش العسرة من ماله بما لم يسبق لاحد قبله ولما ولي الخلافة زاد في أعطيات الناس ورزق المماليك كما قدمنا وأغدق على ذوي رحمه ووصلهم وأغناهم وكان هذا مما أُنكر عليه ونقم منه لاجله وكان حبه للكرم تابعاً لمذهبه في البذل والتوسع في المعيشة والتنعم بالرزق ولم يكن ميالاً للتقشف وشظف العيش لذلك فكما كان يحب ان يوسع على نفسه يحب ان يوسع على أهله وعشيرته وليس في هذا ما يقدح في عفته أو دينه اذ الدين يأمر بصلة ذوي الرحم ويبيح التمتع بطيب العيش وطريقة أبي بكر وعمر قبله في الزهد والتقشف التي أخذا بها أنفسهما ليست بالامر المستطاع لكل مسلم وانما هي تورّع واتباع لطريقة النبي صلى الله عليه وسلم في الزهد وهي محمودة في نفسها للخلفاء

وليست بواجبه بل الواجب هو القصد وعدم الصرف والعفة عن الفضول وقد كان عثمان (رض) عفيف النفس بالضرورة لان الكرم يكون مع العفة لا مع الشره وهو من اكرم الناس ولم يحصر كرمه في ذوي قرابته بل تعداه الى غيرهم ايضاً ومما يروى عن كرمه غير ما تقدم ذكره ما اخرجه ابن عساكر عن ابن سعيد بن يربوع بن عنكشة المخزومي قال انطلقت وأنا غلام في الظهيرة ومعي طير أرسله من المسجد والمسجد بيننا فاذا شيخ جميل حسن الوجه نائم تحت رأسه لبنة أو بعض لبنة فقمت انظر اليه اتعجب من جماله ففتح عينيه فقال من انت يا غلام . فاخبرته فنادى غلاماً قريباً منه فقال لي ادعه فدعوته فامره بشيء وقال اقعد . قال فذهب الغلام فجاء بحلة وجاء بألف درهم فنزع ثوبي وألبسني الحلة وجعل الألف درهم فيها . فرجعت الى أبي فاخبرته فقال يا بني من فعل هذا بك فقلت لا أدري الا انه رجل في المسجد نائم لم أرَ قط أحسن منه . قال ذلك أمير المؤمنين عثمان

وروى ابن عساكر عن أبي اسحق السرّاج قال . قال لي أبو اسحق القرشي يوماً من اكرم الناس بعد رسول الله (ص) ؟ قلت عثمان بن عفان قال كيف وقعت على عثمان من بين الناس ؟ قلت لاني رأيت الكرم في شيئين . في المال والروح . فوجدت عثمان جاد بماله على رسول الله (ص) ثم جاد بروحه على أقاربه . قال لله درك : وكان لعثمان على طلحة بن عبيد الله خمسون الفاً فقال له يوماً قد تهيأ مالك فاقبضه قال هو لك معونة على مروءتك (وكان طلحة جواداً لذلك قال له ما قال)

﴿ صلاحه وتقواه ﴾

كان كثير التقوى والقنوت كثير الصلاة كثير قراءة القرآن شديد

الولع به والاستظهار له وسئل ابن عمر عن قوله تعالى (أمّ مَنْ هو قانت اناء الليل) الآية قال نزلت في عثمان (رواه ابن عساكر) وأخرج عن اسرائل ابن موسى قال سمعت الحسن يقول : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان لو انّ قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربنا اني أكره ان يأتي عليّ يوم لا انظر في المصحف . وروى ابن عساكر من طرق كثيرة ان عثمان كثيراً ما رؤي في المقام يصلي من أول الليل الى بزوغ الفجر

وأخرج عن الحسن قال لما كان من بعض هيج الناس ما كان جعل رجل يسأل عن أفاضل اصحاب رسول الله (ص) فجعل لا يسأل احداً الاّ ودله على سعد بن مالك (اي ابن ابي وقاص) فجلس اياماً لا يسأله عن شيء حتى استأنس به فذكر الحديث . قال اخبرني عن عثمان : قال كنا اذ نحن مع رسول الله (ص) كان أحسننا وضوءاً وأطولنا صلاة . وأعظمنا نفقةً في سبيل ألله اهـ

﴿ باب كتبه وخطبه ﴾

﴿ كتبه ﴾

لما استخلف عثمان (رض) كتب كتباً غراء الى عماله وولاته والعامة يوصيهم فيها بالقيام على الحق وحسن السيرة وقد اورد هذه الكتب الطبري في تاريخه وهذه صورتها

١

﴿ كتابه الى عماله ﴾

اما بعد فان الله امر الائمة ان يكونوا رعاةً ، ولم يتقدم اليهم انْ يكونوا جُباةً ، وان صدر هذه الامة خلقوا رعاةً ، ولم يخلقوا جباة ، وليوشكنّ

اعتكم ان يصيروا جباةً ، ولا يكونوا رعاةً ، فاذا عادوا كذلك انقطع الحياء ، والامانة والوفاء ، ألا وانّ أعدل السيرة انْ تنظروا في امور المسلمين فتُعْطُوهم الذي لهم . وتأخذوا بما عليهم . ثم تثنّوا بالذمة (اي اهل الذمة) فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم . ثم العدوّ الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء اه

فانظر كيف يحرّض الخلفاء الراشدون في كتبهم وخطبهم على حسن معاملة أهل الذمة والوفاء للعدوّ المحارب وقد رأيْتُ من هذا شيئاً كثيراً في سيرة عمر (رض) وليت شعري هل للمسلمين ان يعقلوا . وللمسيحين أهل الذمة والاجانب منهم ان يعدلوا .

٢

﴿ كتابه الى أمراء الاجناد في الثغور ﴾

اما بعد فانكم حماةُ المسلمين وذادتهم[1] وقد وضع لكم عمر ما لم يغبْ عنّا بل كان عن ملإٍ منّا . ولا يبلغني عن احد منكم تغيير ولا تبديل فيغيّر الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم فانظروا كيف تكونون فاني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه :

٣

﴿ كتابه الى عمال الخراج ﴾

اما بعد فانّ الله خلق الخلق بالحقّ . فلا يقبل الا الحقّ . خذوا الحق وأعطوا الحق . والامانةَ الامانةَ قوموا عليها . ولا تكونوا اول من يُسْلبها فتكونوا شركاء من بعدكم الى ما اكتسبتم . والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم .

(١) أي المدافعون عنهم

ولا المعاهد فان الله خصم لمن ظلمهم :

٤

﴿ كتابه الى العامة ﴾

اما بعد فانكم انما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتنّكم الدنيا عن أمركم فان امرَ هذه الدنيا صائر الى الابتداع بعد اجتماع ثلاثٍ فيكم تكامُل النعم (١) وبلوغ اولادكم من السبايا وقراءة الاعراب والاعاجم القرآن فان رسول الله (ص) قال الكفر فالعجمة فاذا استعجم عليهم أمر تكلّفوا وابتدعوا :

٥

﴿ وكتب الى عماله ايضاً ﴾

امّا بعد استعينوا على الناس وكلّ ما ينوبكم بالصبر والصلاة وأمرَ الله أقيموه ولا تدهنوا فيه واياكم والعجلة فيما سوى ذلك وارضوا من الشرّ بايسرهِ فانَّ قليلَ الشرّ كثير . واعلموا ان الذي ألّف بين القلوب هو الذي يفرقها ويباعد بعضَها من بعض . سيروا سيرةَ قوم يريدون الله لئلا تكون لهم على الله حجة : ابن عساكر

٦

﴿ وكتب اليهم ايضاً ﴾

انّ الله ألّف بين قلوب المسلمين على طاعتهِ وقال سبحانه (لو انفقتَ ما في الارض جميعاً ما ألفتَ بين قلوبهم) وهو مفرقها على معصيتهِ . ولا تعجلوا على احدٍ بحدٍّ قبل استيجابه فان الله تعالى قال(لَستَ عليهم بمُسَيْطرٍ

---

(١) النعم ضد البؤس

الأمنْ تولىَّ وكفر) من كفر داويناه بدوائه ومن تولى عن الجماعة أنصفناه وأعطيناه حتى يقطع حجته وعذره ان شاء الله : ابن عساكر :

٧

﴿ وكتب ايام الفتنة الى المسلمين يعلمهم حاله وما صبر عليه ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) الى المؤمنين والمسلمين سلام عليكم: امّا بعد فاني اذكركم الله الذي أنعم عليكم . وعلمكم الاسلام . وهداكم مِنَ الضلالة وأنقذكم من الكفر . وأراكم من البيّنات . ونصركم على الاعداء . ووسّع عليكم من الرزق . وأسبغ عليكم نعمته فان الله عزّ وجلّ يقول (وان تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوها ان الانسان لظلومٌ كفّارٌ) وقال (يا أيها الذين آمنوا اتّقوا اللهَ حقَّ تُقاته . . الى . . يهتدون) (ولتكنْ منكمْ أمةٌ يَدْعونَ الى الخير . . الى . . المفلحون) (ولاَ تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا . . الى عظيم) وقال (يا أيها الذينَ آمنوا اذكرُوا نعمةَ اللهِ عليكمْ وميثاقَهُ . . الى . سمعنا وأطَعنا) وقال (يا ايها الذينَ آمنوا انْ جاءَكمْ فاسقٌ بنبأ . . الى . . حكيم) وقال (انّ الذينَ يشترونَ بعهدِ الله وايمانهم ثمناً قليلاً . . الى . . أليم)وقال (واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يُوقَ شحَّ نفسهِ فاولئك هم المفلحونَ) وقال (وأوفوا بعهدِ اللهِ اذا عاهدتم . . الى . . يفعلون) (ولو شاء الله لجعلكمْ أمةً واحدةً ولكنْ ليَبْلوَكم فيما آتاكم . . الى . . تختلفون) (ولا تتّخذوا ايمانكمْ دخلاً بينكمْ . . الى . . أليم) (ولاَ تشتروا بعهد الله الى تعلمون) (ما عندكمْ ينفدُ وما عندَ اللهِ باقٍ وليجزينّ الذين صبروا أجرَهم باحسن ما كانوا يعملونَ) وقال (ولاَ تشتروا بآياتِ اللهِ : الآية) وقال (أطيعوا للهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الامر منكم الى تأويلاً) وقال (وعد

الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض . . الى . . الفاسقين) (ان الذين يبايعونك . . الى عظيماً) ابن عساكر :

٨

﴿ وكتب مثله ايضاً ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) : اما بعد فان الله قد رضي لكم السمع والطاعة وكره لكم المعصية والفرقة والاختلاف وقد أنبأكم فعل الذين من قبلكم وتقدم اليكم فيه لتكون له الحجة عليكم ان عصيتموه . فاقبلوا نصيحة الله واحذروا عقابه فانكم لن تجدوا أمة هلكت الا من بعد ان تختلف ولا يكون لها امام يجمعها . ومتى ماتفعلوا ذلك تفرقوا دينكم وتكونوا شيعاً قال تعالى (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً . . الى يفعلون) واني اوصيكم بما اوصاكم الله به وأحذركم عذابه وان القرآن نزل لنعتبر به وننتهي اليه(او لا ترون الى شعيب قال لقومه ياقومي لايجرمنكم شقاقي الى . . ببعيد) (وياقومي استغفروا ربكم . . الى . . ودود) ابن عساكر :

٩

﴿ وكتب كتاباً آخر مثله ايضاً ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) اما بعد فان اقواماً ممن كان يقول في هذا الحديث اظهروا للناس انما يدعون الى كتاب الله والحق ولا يريدون الدنيا ولا منازعة فيها فلما عرض عليهم الحق اذا الناس في ذلك شتى منهم آخذ للحق ونازع عنه حين يعطاه . ومنهم تارك للحق رغبة في الأمر يريدون ان يبتزوه بغير الحق . وقد طال عمري وراث (ابطأ) عليهم أملهم في الأمرة واستعجلوا القدر . واني جمعتهم والمهاجرين والانصار فنشدتهم فأدوا الذي علموا

علموا فكان اوّل ما شهدوا به ان يقتل من دعا الى نفسه او أحدٍ : وفسر لهم ما اعتدوا به عليه (اي الطعانون) وما اجابهم فيه الخ . .) ابن عساكر[1]

١٠

وكتب كتاباً ايام الحصار بعثه مع نافع بن طُريف الى اهل مكة ومن حضر موسم الحج هذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عثمان أمير المؤمنين الى من حضر الحجَّ من المسلمين : امّا بعد : فاني كتبتُ اليكم كتابي هذا وأنا محصورٌ أشربُ من بئر القصر ولا آكل من الطعام ما يكفيني خيفة ان تنفد ذخيرتي فاموت جوعا انا ومن معي .لا أُدعى الى توبةٍ أقبلها . ولا تسمع مني حجةٌ أقولها فأنشد الله رجلاً من المسلمين بلغه كتابي الاّ قدِم عليّ فأخذ الحق فيّ ومنعني من الظلم والباطل (عن الامامة والسياسة)

١١

ومن كتبه التي كتبها للامراء وأهل الامصار يستغيثهم بها كتابه الى معاوية وأهل الشام وهذه صورته

امّا بعد : فاني في قوم طالَ فيهم مقامي واستعجلوا القدَرَ فيَّ وقد

(١) هذا الكتاب والكتابان اللذان قبله اوردهم ابن عساكر متفرقين واوردهم الطبري في كتاب واحد مع اختلاف قليل في اللفظ وذكر في آخر الكتاب ما كتبه عثمان من قول الطاعنين فيه وما أجابهم عنه مما لم أر حاجة لايراده اذ اوردنا من سيرة عثمان وأخبار الفتنة ما هو بمعناه فمن اراد الكتاب برمته فليراجعه في المجلد السادس من تاريخ الطبري

خيَّروني بين انْ يحملوني على شارِف[1] من الابل الدحيـل[2] وبين انْ انزع لهم رداءَ الله الذي كساني . وبين أنْ أقيدهم ممن قتلتُ . ومن كان على سلطانٍ يخطيءُ ويصيبُ . فياغوثاه ثم يا غوثاه . ولا أمـير عليكم دوني . فالعجل العجل يامعاوية وأدركْ ثم أدركْ . وما أراكَ تدركُ (الامامة . .)

١٢

(ومثله ما كتبه لاهل الامصار)

(اما بعد) فانَّ الله بعث محمداً (ص) بالحقّ بشيراً ونذيراً . وبلَّغ عن الله ما أمرَهُ ثم مضى وقد قضى الذي عليه . وخلَّفَ فينا كتابهُ فيـه حلالُهُ وحرامُهُ . وبيان الامور التي قدَّر فامضاها على ما أحبَّ العبـادُ وكرهوا . فـكان الخليفة أبو بكر . ثم عمر ثم دخلتُ في الشورى في غير علمٍ ولا مسألةٍ عن ملاء من الامة . ثم اجتمع أهل الشورى عن ملاء منهـم ومنَ الناس عن غير طلب ولا محبة مني . فعملت فيهم بما يعرفون ولاينكرون . تابعاً غير مستتبعٍ متّبعاً غير مبتدع . مقتدٍ غير متكلّف فلما انتهت الامور . وانتكث الشرّ بأهلهِ . بدت ضغائن واهواء على غير اجترامٍ ولا تِرةٍ فيما مضى الاّ امناء الـكتاب . فطلبوا امراً وأعلنوا غيرهُ بغير حجة ولا عذرٍ . فعابوا عليَّ اشياء عن ملاءٍ من أهلِ المدينة لا يصلح غيرها . فصبَّرتُ لهم نفسي وكففتها عنهم منذ سنين وأنا أرى وأسمع . فازدادوا على الله جُرْأَةً حتى أغاروا علينا في جوار رسول الله صلى الله عليه وسـلم وحرَمِهِ وارضِ الهجرةِ . وثابت اليهم الاعرابُ فهم كالاحزاب ايام الاحزاب . أومن غزانا بأحُدٍ الى ما يظهرون . فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق اه (عن التمهيد والبيان)

---

(١) الشارف الناقة المسنة (٢) الدحيل هكذا بالاصل ولم أجد لها معنى فالتحرو

خطبه

أوّل خطبة له

قد تقدم معنا في الكلام على استخلاف عثمان (رض) ذكر الخلاف في أول خطبة لعثمان وانّ من المؤرخين من يقول انه ارتج عليه ومنهم من يقول انه خطب وقد أورد هذه الخطبة الطبري في تاريخه من رواية سيف عمن رواها قال

لما بايع اهل الشورى عثمان خرج وهو أشدّهم كآبةً فأتى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس فحمد الله واثنى عليه وقال

انكم في دار قلْعةٍ [1] وفي بقية اعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه . فلقد أُتيتم ، صُبّحتم أو مُسّيتم ، الا وانّ الدنيا طُويت على الغرور فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ولا يغُرنكم بالله الغَرُور . اعتبروا بمن مضى . ثم جدّوا ولا تغفلوا فانه لا يُغفل عنكم . أين ابناء الدنيا واخوانها الذين أثاروها [2] وعمروها ومُتّعوا بها طويلاً . ألم تلفظهم ؟ [3] ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها. واطلبوا الآخرةَ فانّ الله قد ضرب لها مثلاً فقال عزّ وجلّ (واضربْ لهم مَثَلَ الحياةِ الدنيا كماء أنزلناهُ منَ السماء . . الى قوله . . أملا)

٢

وفي رواية أخرى للطبري ان أول خطبة خطبها عثمان هي هذه

امّا بعد فاني قد حُمّلتُ وقد قبلتُ ألا واني متّبع ولستُ بمبتدع . ألا وانّ لكم عليّ بعد كتاب الله عزّ وجلّ وسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم ثلاثاً :

(١) أي عارية (٢) عمروها بالزراعة (٣) لفظ الشيء من فمه : رماه :

اتباعَ من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم : وسنَّ سنةَ أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملاءٍ : والكفَّ عنكم الاَّ فيما استوجبتم. الا وانَّ الدنيا خَضِرة قد شُهّيت الى الناس ومال اليها كثير منهم فلا تركنوا الى الدنيا ولا تثقوا بها فانها ليست بثقة . واعلموا انها غير تاركةٍ الاَّ من تركها : اه

٣

وخطب أيضاً فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه

ايها الناسُ اتقُوا الله فان تقوى الله غنم وان أكْيَس الناس من دان نفسه[1] وعمل لما بعد الموت. واكتسبَ من نور الله نوراً لظلمة القبور وليخْشَ عبدٌ انْ يحشُرَهُ الله اعْمَى وقد كان بصيراً . وقد يكفي الحكيم جوامع الكلام. والأصمُّ ينادي من مكان بعيد. واعلموا ان من كان الله معه لم يخف شيئاً . ومن كان الله عليه فمن يرجوا بعده . اه عن ابن عساكر

٤

﴿ وخطب مرة فقال ﴾

ان الناس يبغلني عنهم هنات وهنات[2] واني والله لا أكون أول من فتح بابها . ولا أدار رحاها الا واني زامٌ نفسي بزمام وملجمُها بلجام فاقودها بزمامها واكبعها « الجمها » بلجامها ومناولكم طرف الحبل فمن اتبعني حملته على الامر الذي يعرف ومن لم يتبعني ففي الله خلف منه ، وعزاء عنه ، الا وان كل نفس يوم القيامة سائقاً وشاهداً. سائق يسوقها على أمر الله وشاهد يشهد عليها بعملها . فمن كان يريد الله بشيء فَلْيُبشر ، ومن كان انمَّا يريد

(١) أي العاقل من قهر نفسه بمنعها عن الشهوات استعداداً لما بعد الموت

(٢) اي يبلغني عنهم امور شرور وفساد كما في لسان العرب

الدنيا فقد خسراه (ابن عساكر)

٥

﴿ وخطب وهو محصور فقال ﴾

ايها الناس ان عمر بن الخطاب صير الامر شورى في ستة توفي رسول الله (ص) وهو عنهم راض فاختاروني واجمعوا عليّ ولم آلوا عن العمل بالحقّ وما توفيقي الاّ بالله . وما أعلم انّ لي ذنباً أكثر من طول ولايتي عليكم ولعلّ بعضكم انْ يقول ليس كأبي بكر وعمر . أجلْ أجلْ است كهما والاشياء اشباهٌ قريبة بعضُها من بعضٍ وقد زعمتم أنكم تخلعوني فلا دون أن تعرّوني[1] بأمر لا يحلّ لي الاّ خلعها من عنقي . واما العتبى فلكم ونعمت العتبى اه (مفتاح الافكار)

٦

﴿ وخطب وهي آخر خطبه ﴾

امّا بعد ان الله عزّ وجلّ انما اعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرةَ ولم يُعْطكُمُوها لتركنوا اليها . انَّ الدنيا تفنى والآخرة تبقى . فلا تبطرنَّكم الفانية ولا تشغلنَّكم عن الباقية فآثروا ما يبقى على ما يفنى . فانَّ الدنيا منقطعةٌ وانَّ المصيرَ الى الله . اتقوا الله جلّ وعزّ فان تقواه جُنّةٌ[2] من بأسه . ووسيلة عنده واحْذَروا من الله الغَيرَ . والزموا جماعتكم لا تصيروا احزاباً (واذكروا نعمةَ اللهِ عليكُم اذ كنتم اعداءً فألّف بين قلوبِكُم فأصبحتُم بنعمته اخواناً اه (رواها الطبري وابن عساكر)

---

(١) عرّه لطخه بشر يريد انهم لا سبيل لهم الا خلعه الا بسبب صحيح يستوجب الخلع ويحل له ترك الخلافة (٢) الجنة الترس والوقاية

باب

اخبار الفتنة ومقتل عثمان

(مبادئ الفتنة)

أجمع الرواة وأهل الاخبار ان عثمان (رض) قضي الشطر الاكبر من خلافته وهو أحبّ الى الناس من عمر (رض) لشدته ورأفة عثمان ولينه واقبال الدنيا على الناس على عهده وتبسطهم في المعيشة وامتلاء ايديهم من المغانم لكن غلب عليه بنو أمية في أواخر مدته فآثرهم على غيرهم من قريش ووصلهم بالاموال الكثيرة فانحرفت عنه من اجل ذلك القلوب ونظرت اليه قريش بغير عين الرضا ونهض لمناقشته الحساب أهل الامصار وتخلل ذلك أمور خفية وجلية أدخلت الناس في غمار فتنة عمياء كانت نتيجتها ضعف السلطة الشرعية وغلبة القوّة والاثرة على الملك الى اليوم

أخرج ابن عساكر عن الحسن انه قال ادركت عثمان على ما نقموا عليه قلّ ما يأتي على الناس يوم الا ويقتسمون فيه خيراً فيقال لهم يا معشر المسلمين اغدوا على اعطياتكم . فيأخذونها وافرة . ثم يقال لهم اغدوا على ارزاقكم . فيأخذونها وافرة . ثم يقال لهم اغدوا على السمن والعسل . الاعطيات جارية والارزاق دارة والعدوّ منفي وذات البين حسن والخير كثير . وما مؤمن يخاف مؤمناً من لقيه فهو أخوه من كان . ألفته ونصيحتهُ ومودتهُ . قد عهد اليهم انها ستكون أثرة فاذا كانت ان تصبروا . قال رسول الله (ص) لأسيد بن حُضَير : ستلقون بعدي أثرة . قال فما تأمرنا . قال انْ تصبروا حتى تلقوا الله ورسوله : قال الحسن لو أنهم صبروا حين رأوها وأخذوا بامر رسول الله لوسعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق

والخير الكثير . قالوا لا والله ما نصابرها فوالله ما ردوا ولا سلموا والاخرى كان السيف مغمداً عن أهل الاسلام ما على الارض مؤمن يخاف ان يسل مؤمن عليه سيفاً حتى سلوه على أنفسهم فوالله ما زال مسلولاً الى يوم القيامة اه

اما مبادئ الفتنة فقد قال ابن جرير الطبري كان عثمان مستضعفاً طمع فيه الناس وأعان على نفسه بافعاله وباستيلاء بني أمية عليه وكان ابتداء الجراءة عليه ان إبلاً من إبل الصدقة قدم بها عليه فوهبها لبعض ولد الحكم بن أبي العاص فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف فأخذها وقسمها بين الناس وعثمان في داره فكان ذلك أول وهن دخل على خلافة عثمان . وقيل انه خطب يوماً وبيده عصا كان رسول الله وأبو بكر وعمر يخطبون عليها فاخذها جهجاه الغفاري من يده وكسرها على ركبته . فلما تكاثرت احداثه وتكاثر طمع الناس فيه كتب جمع من أهل المدينة من الصحابة وغيرهم الى من بالآفاق بذلك وبأن يقدموا لخلع عثمان فهاج الناس وكان ما كان

وقد كان اول ما تكلم به في الخارج محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر انْ عابا عثمان في غزوة ذات الصواري التي غزياها مع عبد الله بن سعد ابن أبي سرح في البحر سنة احدى وثلاثين وأظهروا عيبه وماخالف به ابابكر وعمر وانه استعمل عبد الله بن سعد رجلاً أباح دمه رسول الله ونزل القرآن بكفره ونزع أصحاب رسول الله عن الاعمال وولاها مثل عبد الله بن سعد وسعيد بن العاص الى غير ذلك من الكلام الذي ساء عبد الله فعزلهما عن المسلمين في مركب ليس فيه غير القبط حتى رجع الجيش الى مصر وأخذ ابن أبي حذيفة يفسد قلوب المسلمين على عثمان

والذي يؤخذ من سياق اخبار الفتنة التي أوردها الطبري وغيره من المؤرخين ولم يصرح به أحد منهم وانما هو يستخرج من ثنايا الاخبار انَّ بذار الفتنة بذرت في انحاء المملكة وعواصمها الكبرى كمصر والبصرة والكوفة بدعوة سرية قام بها عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء (وكان يهودياً من حِمْيَر واسلم على عهد عثمان) بايعاز جمعية سرية [1] تريد بهذا أحد أمرين اما تفريق المسلمين في الدين او تفريقهم في السياسة وذلك لان الدعوة التي قام بها ابن سبأ مشتركة بين الامرين. الوصاية والرجعة : ومن مقتضى الاولى وجوب الخلافة لعلي دون غيره والوثوب على عثمان لنزع الخلافة منه ومن مقتضى الثانية الاعتقاد في النبي صلى الله عليه وسلم انه يرجع كما رجع عيسى : وتحرير الخبر عن ابن سبأ ودعوته ان هـذا الرجل لما اسلم نزل في البصرة على حكيم بن جبلة العبدي واجتمع اليه نفر فأخذ يغريهم بالدعوة التي قام بها فقبلوا منـه وبلغ ابن عامر أمره فطرده من البصرة فخرج فأتى الكوفة فأخرج منها أيضاً فأتى الشام فأخرج منها فأتى مصر واستقر فيها والتف عليه ناس من أهل مصر منهم كنانة بن بشر وسودان بن حمران وخالد بن ملجم واشباههم فقال لهم : العجب ممن يصدق انَّ عيسى يرجع

---

(١) لنا كلام طويل على الجمعيات السياسية في الاسلام وانها طالما قلبت كيان الوجود السياسي وقامت بها دول نرجئه الى سيرة علي بن أبي طالب عند الكلام على الخوارج والشيعة ليرى القارئ ماذا كانت تفعل الجمعيات وكيف كان حال المسلمين ومكانتهم من الحياة العالية ايام شبابهم وكيف صاروا الآن الى ارذل العمر وماتت فيهم كل مشاعر الحياة

ويكذب ان محمداً يرجع : فوضع لهم الرجعة [١] فقبلت منه . ثم قال لهم بعد ذلك انه كان لكل نبي وصي وعليّ وصي محمد فمن أظلم ممن لم يجز وصيّة رسول الله ووثب على وصيّه . وانّ عثمان أخذها بغير حق فانهضوا في هذا الامر وابدأوا بالطعن على امرائكم واظهروا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا به الناس . وبعث دعاته وكاتب من استفسد في الامصار وكاتبوه ودعوا في السر الى ما عليه رأيهم حتى تم لهم الامر كما سترى بعد

وأنت ترى ان الدعوة في قسمها الأول اي القول بالوصاية سياسية وفي قسمها الثاني أي القول بالرجعة دينية فمصدرها اما ان يكون من جماعة سرية من غير أهل الاسلام يريدون ادخال الوهن على عقيدة المسلمين وتفريق كلمتهم : واما انهم من جماعة سياسيين يريدون نزع الخلافة من عثمان خوفاً من استفحال الصبغة الاموية في الدولة كما سترى بعدُ : هذا ان كان الجماعة من قريش وان كانوا من غيرهم فانما يريدون التذرع باسباب الرياسة بتقربهم من عليّ اوغيره وقد توسل اولئك الاحزاب السياسيون بالدين لانه أقرب الى التسلط على الاذهان بين قوم لم يخالط عقولهم شيء بعد من امور السياسة والاجتماع . ولا يظنن القارئ انّ قيام الدعوة باسم عليّ رضي الله عنه تستلزم انه الداعي لها كلاّ فان هناك اموراً تدل على براءة القائمين بهذا الغرض بتوجيه الافكار الى عليّ لقربه من رسول الله وفضائله الذاتية التي يعرفها يومئذ كل المسلمين

---

(١) الظاهر ان الرجعة جعلها ابن سبأ بعد ذلك في علي لانتشار هذا الاعتقاد عند فريق من الشيعة يومئذ في عليّ وبنيه وقد نقل ابن حزم في الملل والنحل ان ابن سبأ قال لما قتل علي (رض) لو اتيتمونا بدماغه ألف مرة ما صدقنا موته ولا يموت حتى يملأ الارض عدلا كما ملئت جوراً

وحسبك من براءته من هذا الامر الكتب التي جاءت باسمه الى أهل العراق وباسم غيره أيضاً وظهر انها مفتعلة لم يكن لعلي بها علم كما سترى بعدُ وانما هي مكائد تدبر واكثر القوم عنها غافلون يضاف اليها نزوع العرب الى منازعة قريش السيادة وضعف عثمان وانحرافه عن طريقة صاحبيه في بعض الامور الاجتهادية انحرافاً مهد سبيل الطعن عليه واوجد قلوباً واعيةً حتى من كبار الصحابة لما يقال فيه . وأمّا هالهم اجماع أهل الامصار على الشكوى منه والطعن عليه خذلوه على ظن انه يخلع نفسه من الخلافة وتطفأ بذلك ثائرة القوم فلم يفعل حتى قُتل وهم لاعتزاله منصب الخلافة منتظرون ولقتله كارهون

هذا وقد عقب انتشار الطعن على عثمان من ابن أبي حذيفة وابن السوداء ومن على شاكلتهم في مصر قيام حمران بن أبان في البصرة لافساد القلوب على عثمان لانه كان حاقداً عليه اذ ضربه على زواجه بامرأة في العدة. واجتراء أهل الكوفة على التظاهر بالعداء وتجاوز الحشمه والتطلع الى الفتنة وقد تقدم انّ سعيد بن العاص لما ولاه عثمان رضي الله عنه الكوفة جعل غاشيته من وجوه الكوفة وأَهل القادسية فكان يسمر عنده مثل مالك بن كعب الارحبي وعَلْقَمة بن قيس النخعي وثابت بن قيس الهمداني وجُنْدُب ابن زهير الغامدي وعروة بن الجعد وصعصعة بن صوحان وابن الكوّاء وطُليحة بن خويلد في أشباه لهم وكانوا يفيضون في أيام الوقائع وفي أنساب الناس وأخبارهم وربما ينتهون الى الملاحاة والمشاتمة والضرب فاذا عزلهم حجاب سعيد نهروهم وضربوهم : وقيل انّ سعيد بن العاص قال يوماً انما هذا السواد (يريد سواد الكوفة اي اراضيها) بستان قريش : فقال له الاشتر : السواد الذي أفاء الله علينا باسيافنا تزعم انه بستان لك ولقومك

وخاض القوم في ذلك فأغاظ لهم عبد الرحمن الاسدي صاحب شرطته فوثبوا عليه وضربوه حتى غشي عليه . فمنع سعيد بعدها السمر عنده فاجتمعوا في مجالسهم يثلبون سعيداً وعثمان والسفهاء يغشونهم . فكتب سعيد وأهل الكوفة الى عثمان في اخراجهم . فكتب ان يلحقوهم بمعاوية وكتب الى معاوية : انّ نفراً خلقوا للفتنة فقم عليهم وانههم وان آنست منهم رشداً فاقبل وان أعيوك فارددهم عليّ :

فأنزلهم معاوية وأجرى عليهم من الرزق ما كان لهم بالعراق وأقاموا عنده يحضرون مأيدته فقال لهم يوماً . انكم قوم من العرب لكم اسنان (اعمار) وألسنة وقد ادركتم بالاسلام شرفاً وغلبتم الأمم وحويتم مواريثهم. وقد بلغني انكم نقمتم قريشاً ولو لم تكن قريش كنتم أذلةً . انّ ائمتكم لكم جُنَّة (وقاية) فلا تفترقوا عن جنتكم . وان ائمتكم يصبرون لكم على الجور ويحتملون عنكم المؤنة والله لتنتهنّ أو ليبتلينّكم الله بمن يسومكم السوء ولا يحمدكم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد وفاتكم : فقال رجل منهم وهو صعصعة : امّا ما ذكرت من قريش فانها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية . وامّا ما ذكرت من الجُنَّة فانّ الجنة اذا اخترقت خلص الينا

فقال معاوية عرفتكم الآن وعلمت انّ الذي أغراكم على هذا قلة العقول . وأنت خطيبهم ولا أرى لك عقلاً . أعظم عليك أمر الاسلام وتذكرني بالجاهلية أخزى الله قوماً عظموا أمركم . أفقهوا عني ولا أظنكم تفقهون . انّ قريشاً لم تعز في جاهلية ولا اسلام الاّ بالله تعالى لم تكن باكثر العرب ولا أشدها ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً ، وأمحضهم انساباً ،

وأكلهم مروءة ولم يمنعوا في الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضاً الاّ بالله فبوأهم حرماً آمناً يتخطف الناس من حولهم . هل تعرفون عربيّاً أو عجميّاً أو أسود أو أحمر الاّ وقد أصابه الدهر في بلده وحرمته الاّ ما كان من قريش فانهم لم يُرِدْهم أحد من الناس بكيد الاّ جعل الله خده الاسفل حتى أراد الله أن يستنقذ من أكرم واتبع دينه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة فارتضى لذلك خير خلقه ثم ارتضى له أصحاباً فكان خيارهم قريشاً ثم بني هذا الملك عليهم وجعل هذه الخلافة فيهم فلا يصلح ذلك الاّ عليهم فكان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم افتراه لا يحوطهم وهم على دينه ؟ أفٍّ لك ولاصحابك . امّا انت ياصعصعة فانّ قريتك شرّ القرى أنتنها نبتاً وأعمقها وادياً وأعرفها بالشر وألأمها جيراناً لم يسكنها شريف قط ولا وضيع الا سبَّ بها ثم كانوا ألأم العرب ألقاباً واصهاراً نزّاع الأمم وانتم جيران الخط وفعلة فارس حتى أصابتكم دعوة النبي صلى الله عليه وسلم فأنت شرّ قومك حتى اذا ابرزك الاسلام وخلطك بالناس أقبلت تبغي دين الله عوجاً وتنزع الى الذلة ولا يضر ذلك قريشاً ولا يضعهم ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم انّ الشيطان عنكم غير غافل قد عرف بالشر فاغرى بكم الناس وهو صارعكم ولا تدركون بالشر امراً ابداً الاّ فتح الله عليكم شرّاً منه وأخزى : ثم قام وتركهم فتقاصرت اليهم أنفسهم . فلما كان بعد ذلك أتاهم فقال اني قد اذنت لكم فاذهبوا حيث شئتم لا ينفع الله بكم أحداً ابداً ولا يضره ولا أنتم برجال منفعة ولا مضرة فان أردتم النجاة فالزموا جماعتكم ولا يبطرنّكم الانعام فان البطر لا يعتري الخيار . اذهبوا حيث شئتم فسأكتب الى أمير المؤمنين فيكم . وكتب معاوية الى عثمان

انه قدم عليّ اقوام ليست لهم عقول ولا اديان أضجرهم العدل لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة انما همهم الفتنة واموال أهل الذمة والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ومخزيهم وليسوا بالذين ينكون احداً الاَّ مع غيرهم فانه سعيداً ومن عنده عنهم فانهم ليسوا لأكثر من شغب ونكير :

فقيل انهم خرجوا يريدون الجزيرة فسمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وهو بحمص فدعاهم ووبخهم وقيل كتب عثمان الى معاوية بردهم الى الكوفة فاطلقوا السنتهم فكتب سعيد يشكوهم فأمره عثمان باشخاصهم الى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بحمص وكان على حمص فقال لهم يا آلة (حَرْبة) الشيطان لا مرحبا بكم ولا اهلاً قد رجع الشيطان محصوراً وانتم بعدُ في نشاط خسر الله عبد الرحمن ان لم يؤدبكم يا معشر من لا أدري أعرب هم أم عجم ثم مضى في توبيخهم على ما فعلوا وما قالوا لسعيد ومعاوية فهابوا سطوته وطفقوا يقولون نتوب الى الله أقلنا أقالك الله . حتى قال تاب الله عليكم وسرّح الاشتر الى عثمان تائباً : فقال له عثمان أحلك حيث تشاء . فقال مع عبد الرحمن . قال ذلك اليك فرجع الى أصحابه

وقد نقل ابن أبي الحديد وابن الاثير من رواية المدايني زيادة في هذا الخبر وكلاماً طويلا جرى بين القوم وبين معاوية وانهم تطاولوا عليه ومسك أحدهم بلحيته وناقشوه في سيرته فألان لهم القول فزادهم ذلك جرأة عليه فغضب منهم وكتب الى عثمان بأمرهم فأمرهم باشخاصهم الى عبد الرحمن : ولم نشأ نقل هذه الرواية كلها حباً بالاختصار واكتفاء بما تقدم من خبرهم معه

﴿ كلمة في هؤلاء الناقمين على عثمان ﴾
(وفي أهمية تاريخ الصحابة)

انّ من يطالع هذا الخبر من اسراء الاستبداد ، وألبفي الاستعباد ، يعجب من جرأة القوم وتجاوزهم حدود الحشمة مع وجوه الصحابة وأعجب منه عندهم ان يتجاوز عن القوم ولا ينالهم أدنى عقاب على ما فعلوه سوى التوبيخ اذ لو حدث من غيرهم ما حدث منهم في حكومة أخرى غير الحكومة الاسلامية يومئذ لما كان جزاؤهم الاّ القتل او قضاء الحياة في أعماق السجون ولكن شأن العرب وشأن الاسلام وحكومته يومئذ لا يضاهيه شأن الأمم الاخرى وحكوماتها اذ العرب قد اعتادوا بأصل الفطرة على حرية الفكر والقول وشرائع الاسلام لم تكن مصادمة لتلك الفطرة بل هي معينة لها داعية لتهذيبها وارتقائها فالقرآن يأمر المسلمين عامة بقول الحقّ وان يقوموا بالقسط ويشهدوا بالحقّ ولو على أنفسهم ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وفي هذا كله ما يجيز لهم الانتقاد على الامراء والعمال ويطلق لهم العنان فيما اعتادته فطرتهم من حرية القول بشرط ان لا يترتب على قولهم حد من الحدود الشرعية كالقذف وكل ما يمس بالشرف والعرض ويدعو الى اقامة الحد أو اية عقوبة من عقوبات التعزير لهذا قام هؤلاء الناس وغيرهم في الامصار الاسلامية يظهرون الطعن على عثمان وعماله باسم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وليس من يجرأ على معاقبتهم أو الضرب على أيديهم من العمّال لانه حقّ من الحقوق التي خولتها لهم الفطرة والشرع ولم يظهر عليهم النكير الاّ بعد ان ترتب على عملهم حق من حقوق الله في قتل عثمان رحمه الله ورضي عنه وهذا عين ما يشاهد الآن في الممالك الاوربية ذات الحكومات الشورية

من اطلاق ألسنة الانتقاد على الحكومة ومناقشة أهل الشورى للوزراء في كل جليل وحقير وكثيراً ما يلجئون الوزراء الى اعتزال مناصبهم اذا رأوا منهم ما يستدعي ذلك فيعتزلونها صاغرين وشأنهم هذا شأن المسلمين في ذلك العهد مع امرائهم كما رأيت وترى العبرة في عثمان رضي الله عنه وعماله ونهوض الأمة لمؤاخذته على أمور هي ولا نكران للحق أقل مما يأتيه أصغر عامل من عمال الدول المطلقة في هذا العصر وفي كل عصر ومع هذا فقد افضى الامر الى طرد عماله من الامصار ثم اجلاب الناس عليه بالخيل والرجل من كل مصر وقتله بين ظهراني اخوانه من المهاجرين والانصار.
فليت شعري كيف نسي المسلمون تاريخ هذه النشأة التي نشأ عليها اسلافهم وأهملوا أمور شريعتهم التي عمل بها مؤسسوا دولهم فاستخذوا بعد ذلك للامراء، واستذلوا للقضاء، حتى صاروا اسراء الاستبداد وتعبدهم الملوك في كل الانحاء، وسامتهم الدول الحاكمة عليهم من اسلامية ومسيحية ضروب الخسف. وأذاقتهم انواع الامتهان. وأين تلك الروح البارة والنفس العالية التي كانت تأبي الهضيمة وتغضب للحق فترى الموت والحياة سيان في سبيل الذود عن حقوقها والاحتفاظ بحريتها

لا جرم انَّ الامة الاسلامية قد أُصيبت ذلك لامرين (الاول) عدم العناية بوضع قواعد الشورى على الاصول الثابتة منذ نشوء الدولة كما سبق بيان هذا في صدر هذا الجزء (والثاني) تحريم العلماء بايعاز الامراء الخوض(١)

(١) نريد بالخوض هنا معناه اللغوي وهو من قولهم خاض الماء أي تغلغل فيه فاذا كان مراد القائلين بحرمة الخوض في أخبار الصحابة هذا التغلغل فلا نسلم لهم بحرمته واذا كان مرادهم به المعنى المجازي كالخوض في الباطل ونحوه فهذا ما لا ننكره عليهم بل هو مما نقوله ونسلم به وأنا أريد بالخوض هنا المعنى الاول فليتنبه له

في تاريخ الخلفاء الراشدين واخبار الصدر الاول التي كلها حياة. كلها عبر. كلها حرية. وليس في كل ما كان بين الصحابة من الامور العظام، والفتن الجسام، ما يدعو ديناً أو أدباً الى اجتناب الخوض في اخبارهم والنظر في تاريخهم تعظيماً لهم واحتراماً لجانبهم وتسليماً بسلامة مقاصدهم كما يذهب اليه خُدّام الامراء من بعض العلماء اذ لو كان في اخبارهم ما يمنع من الخوض فيها ديناً أو أدباً لاستلزم انها اعمال تحط من منزلتهم وتقلل من احترامهم وهذا باطل بالبداهة والحقيقة هي انّ هذا التحريم لم يكن الاّ بايعاز الامراء الجبارين، والزعماء المستبدين، لان تاريخ الصدر الاول واخبار الصحابة كلها تدل على حياة منبثة في صدور القوم، ومقاصد عالية تعلي شأن اولئك الرجال، ووالله ليس في تاريخ من تواريخ الأمم في بدء نشأتها وابان ظهورها ما في تاريخ الخلفاء الراشدين ووقائع الصحابة من الحوادث التي ترمي كلها الى غرض الحرية وتمحيص الحق مما قلَّ ان يكون في أمة حديثة النشأة. ودولة جديدة التكوين. امّا انّ فريقاً منهم اخطأ وفريقاً أصاب. وفريقاً بغى. وفريقاً بغي عليه. فهذا الحكم انما هو تابع المقاصد والمقاصد كانت كلها متجهة الى تمحيص الحق والرغائب العالية فمن العبث ان يحكم بخطأ فريق مادام يعتقد انه على صواب. ومثاله هؤلاء المحرضون على عثمان فانّا مع اعتقادنا انَّ عثمان رضي الله عنه خير من كثير غيره ممن أتى بعده من الخلفاء ومع علمنا انه لم يأت من حب النفس او الأثرة بجزء مما يأتيه حتى أشهر من اشتهر بالعدل من الخلفاء الامويين أو العباسيين أو غيرهم فان اولئك الثائرين على عماله الناقمين منه مهما كان الدافع لهم الى ذلك العمل فان غايتهم التي يقصدون اليها بحسب الظاهر هي العدل بين الناس بعدم الاستئثار بمصالح المسلمين

ومنافع الأمة كما تعوّدوا ذلك من الخليفتين السابقين وان كانت سيرتهما في الخلافة وسياسة الملك فوق المستطاع لمن عداهما لهذا لم يستطع ان يمد اليهم العمال يد السوء فهم اذا أوخذوا فانما يؤاخذون من جهة انهم كانوا يطلبون من عثمان فوق ما يستطاع بالنسبة اليه وانهم غلوا في ذم سيرته تذرعاً لمحو الصبغة الاموية من الدولة غلوًّا يلامون عليه ، مادام ذلك الغلو لغرض آخر يرمون اليه ،

واما قتلته فانهم أخزاهم الله ليسو بمو آخذين فقط بل هم ملعونون على لسان كبار الصحابة كحذيفة بن اليمان واضرابه وهم مسؤولون عن عملهم دون غيرهم وقد جنوا على الأمة في مستقبلها جناية كبرى كما سنشير اليه بعدُ ان شاء الله

اذا تقرر هـذا فاعلم انّ اخبار الصحابة انما حرم بعضهم الخوض فيها لانها أخبار قوم ملئت صدورهم بالحياة ونفوسهم بالعزة وهم بالضرورة قدوة الأمة والمنادون منذ نشأن الدولة بصوت العدل والحرية والحقّ فوقوف الناس على أخبارهم والاخذ والرد فيما حدث بينهم يحيي في القلوب روح الحرية ويبعث على استظهار عامة الناس للحجة التي يصادمون بها آلات الاستبداد من الخلفاء والملوك الذين حولوا الخلافة الى الملك العضوض وأمعنوا في التمكن من رقاب الناس لهـذا ولمّا كثر خوض الناس في أخبار الصحابة أرادوا الهاءهم عنها بحجة حرمة الخوض فيها فأوعزوا الى الوضاع والقصاصين بوضع أخبار المغازي وقصة عنترة وأشباهها فى أعصر مختلفة لا تعلم بالتحقيق الاّ اذا صح نسبة أكثر تلك الكتب الى الواقدي والاصمعي فانها تكون فى عصر العباسيين وذلك ليتلهّى بها العامة عن التاريخ الصحيح الذي يبعث فى النفوس روح الجرأة على قول الحق والتشبه بسلف الأمة ورجالها ورافعي

دعامة دولتها فى مناهضة ارباب العتوّ والجبروت ومحبي الاستبداد وآلهة الملك : هذا ما أراه فى هذا الباب والله أعلم بالصواب

﴿ ما أنكره الناس عليه ﴾

﴿ واعتذاره عن بعض ما أنكر عليه ﴾

ذكر الطبري فى تاريخه وابن قتيبة فى الامامة والسياسة وابن أبي الحديد فى شرح نهج البلاغة وابن خلدون في التاريخ الاحداث التي كانت على عهد عثمان رضي الله عنه وخالف بها صاحبيه وأنكرها الناس عليه وزاد بعضهم على بعض ونقل بعضهم ما لم ينقله البعض فرأيت ان استقصى هذا مانقلوه ليضعه القراء موضع المحاكة والبحث

فنها اتمامه الصلاة فى منى وعرفة مع انَّ الامر فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم والشيخين بعده كان على القصر. ومنها زيادة النداء الثالث على الزوراء يوم الجمعة . ومنها اخراج أبي ذر من الشام والمدينة الى الربذة . ومنها سقوط خاتم النبي من يده في بئر أريس . ومنها افشاؤه العمل والولايات فى أهله وبني عمه من بني امية وما كان من الوليد بن عقبة وشربه الخمر . ومنها صلته لأهله وبنى عمه بالاموال واقطاعهم القطائع وحملهم على رقاب الناس واستئثاره برأيه ورأيهم وتركه المهاجرين والانصار لا يستشيرهم ولا يستعملهم وانه أعطى مروان خمس غزوة افريقيا ووصل عبد الله بن خالد ابن أسيد بار بمائة الف درهم وأقطع الحرث بن الحكم موضع سوق بالمدينة كان تصدق به رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين وأعطى أبا سفيان ابن حرب مائتي الف درهم وأنكح الحرث بن الحكم ابنته عائشة فاعطاه مائة الف من بيت المال . وحمى الحمى (المراعي) حول المدينة الا عن بني أمية

وردّ الحكم بن أبي العاص طريد رسول الله الى المدينة وأعطاه مائة الف درهم . ومنها مجاوزته الخيزران الى السوط وانه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس . ومنها تطاوله في البنيان حتى عدّوا سبع دور بناها بالمدينة داراً لنائلة ودارا لعائشة وغيرهما من أهله وبناته . ومنها ضربه عبدالله بن مسعود حتى كسر ضلعاً من اضلاعه .

هذه هي الاحداث التي نقمها الناس على عثمان وآخذوه عليها وقد أجمع أهل السنة وأفاضل المعتزلة تبعاً لرأي كبار الصحابة على انّ ما صح منها وان كانت احداثاً الا انها لا تبلغ المبلغ الذي يستباح به دمه . ولعثمان رضي الله عنه اعذار اعتذرها عن بعض ما عزي اليه ونقمه القوم منه فمنها ما رواه الطبري في أخبار سنة (٢٩ هـ) انّ عثمان صلى بمنى اربعاً (اي صلاة المقيم) فأتى آت عبد الرحمن بن عوف فقال . هل لك في أخيك قد صلّى بالناس أربعاً . فصلى عبد الرحمن باصحابه ركعتين ثم خرج حتى دخل على عثمان فقال له : ألم تصلّ في هذا المكان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين ؟ قال بلى . قال أفلم تصلّ مع أبي بكر ثم عمر ركعتين ؟ قال بلى . قال ألم تصلّ صدراً من خلافتك ركعتين ؟ قال بلى فاسمع مني يا أبا محمد اني اخبرت انّ بعض من حج من أهل اليمن وجفاة الناس قد قالوا في عامنا الماضي انّ الصلاة للمقيم ركعتان هذا امامكم عثمان يصلي ركعتين وقد اتخذت بمكة اهلاً فرأيت ان أصلي اربعاً لخوف ما أخاف على الناس . وأخرى قد اتخذت بها زوجة ولي بالطائف مال . فقال عبدالرحمن بن عوف ما من هذا شيء لك فيه عذر امّا قولك اتخذت أهلاً فزوجتك بالمدينة تخرج بها اذا شئت وتقدم بها اذا شئت انما تسكن بسكناك . وامّا قولك ولي مال بالطائف فانّ بينك

و بين الطائف مسيرة ثلاث ليال وأنت لست من أهل الطائف واما قولك يرجع من حج من أهل اليمن وغيرهم فيقولون هذا امامكم عثمان يصلي ركعتين وهو مقيم فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل عليه الوحي والناس يومئذ الاسلام فيهم قليل ثم أبو بكر مثل ذلك ثم عمر فضرب الاسلام بجرانه فصلى بهم عمر حتى مات ركعتين . فقال عثمان هذا رأي رأيته

وروى ابن عساكر من طرق عن عبد الرحمن بن الحارث بن ذباب قال . صلى عثمان بأهل منى اربع ركعات فلما انصرف (اي بوجهه) اليهم قال اني صليت بكم اربعاً اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا أتى أهل المسافر في بلدة فهو من أهلها يصلي صلاة المقيم اربعاً واني تأهلت بها منذ قدمتها فلذلك صليت بكم اربعاً

فاذا صحت هذه الرواية فاعتذار عثمان لعبد الرحمن اعتذار صحيح لاسيما وانه صلى لدفع شبهة جفاة الاعراب في اعتباره مقيماً لزواجه في مكة فاذا صلى صلاة القصر مع ذلك الاعتبار ربما اتخذوه حجة في جعل الصلاة لكل مقيم ركعتين ففعل ما فعل من قبيل البلاغ والاحتياط

هذا اعتذاره عن صلاة المقيم . وقد روى ابن عساكر في اعتذاره عن الحمى الذي حماه عن ابي سعيد مولى أبي أسيد الانصاري قال : سمع عثمان بن عفان انّ وفد أهل مصر قد أقبلوا فاستقبلهم فلما سمعوا به اقبلوا نحوه وكره ان يقدموا عليه المدينة فأتوه فقالوا له ادعُ بالمصحف فافتح السابعة . وكانوا يسمون سورة يونس السابعة . فقرأها حتى اتى على هذه الآية (قل أرايتم ما أنزلَ اللهُ لكم من رزقٍ فجعلتم منهُ حراماً وحلالاً .قل اللهُ اذنَ لكم أمْ على الله تفترُون) قالوا له قف أرأيت ما حميت من الحمى

ألله أذِنَ لك أم على الله تفتري : فقال امضه نزلت في كذا وكذا فامّا الحمى فانّ عمر حمى الحمى قبلي لإبل الصدقة فلما وليت زادت إبل الصدقة فزدت في الحمى كما زادت إبل الصدقة : وزاد عليه في بعض الروايات : اني قد وليت واني لأكثر العرب بعيراً وشاة فما لي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي

وهذا الخبر يدل على انه حمى من المراعي حول المدينة زيادة عما كان حماه عمر فعدوها مخالفة لعمر ونقموها منه

وقد أجمع الرواة وأهل الاخبار أنَّ ما نقموه من عثمان في تقريبه أهله منه وصلتهم بالاموال قد تأوّل فيه الصلَةَ التي أمر الله بها وقال انّ أبا بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما وأخذت ما هو لي فقسمته في اهلي : ومع هذا فلما استعرت نار الفتنة أشاروا عليه ان يستعيد ما أعطاه لمروان ولخالد بن أسيد فاستعاده منهما ورده لبيت المال

وفي حديث طويل رواه ابن عساكر في اعتذار عثمان عما أنكروه عليه قال فيه بعد اعتذاره عن الاشياء المتقدمة بمعنى ما تقدم : وقالوا اني رددت الحكم والحكم مكي سيره رسول الله الى الطائف ثم رده : وقالوا استعملت الاحداث ولم استعمل الاّ مجتمع محتمل مرضي (يريد به عبد الله ابن عامر) وهؤلاء أهل عمله (أي اهل البصرة وكانوا حضوراً) فسلوهم عنه وقد ولّى من قبْلي أحدث منه وقيل في ذلك لرسول الله (ص) أشد مما قيل لي في استعماله أسامة بن زيد . وقالوا اني اعطيت ابن أبي سرح مما أفاءَ الله عليه واني انما نفلته خمس ما افاءَ الله عليه من الخمس فكان مائة الف قد نفل مثل ذلك أبو بكر وعمر . فزعم الجند انهم

يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم . الى آخر الحديث وقد مر ما هو بمعناه

هذه اعذار عثمان رضي الله عنه التي اعتذر بها للناس عما نقموه عليه ولم تقبل منه ، ولم يدفع أكثر المسلمين ، عنه اذا كانوا يريدون منه سيرة أبي بكر وعمر وان يحذو حذوهما في التعفف والتقشف والسير على طريق النبوة الذي لا يستطاع لكل الناس وقد جاهرت له بذلك أم سلمة احدى أمهات المؤمنين ونصحته بتوخي السبيل التي توخاها أبو بكر وعمر في كلام طويل أجابها عنه بما يأتي

يا أمنا قد قلت فوعيت وأوصيت فاستوصيت . ان هؤلاء النفر رعاع غثرة [1] تطأطأت لهم تطأطؤ الماتح الدلاء [2] وتلددت [3] لهم تلدد المضطر . فأرانيهم الحق اخواناً ، وأرهوني الباطل شيطاناً ، أجررت المرسون [4] منهم رسنه وأبلغت الراتع مسقاه . فانفرقوا علي فرقاً ثلاثاً فصامت صمته أنفذ من صول غيره : وساع اعطاني شاهده ومنعني غائبه : ومرخص له في مدة رينت [5] على قلبه . فأنا منهم بين ألسن لداد [6] وقلوب شداد ، وسيوف حداد ، عذيري الله ألا ينهى منهم حليم سفيهاً . ولا عالم جاهلاً . والله حسبي وحسبهم يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون

﴿ ظهور الفتنة ﴾

لما فشت الاذاعة في الامصار . وسرت روح الثورة في الصدور .

(١) سفلة (٢) أي الذي يتناول الماء من اعلى البئر (٣) تلفت يميناً وشمالا (٤) امكنت المشدود منهم من زمامه يريد خليته واهملته يرعى كيف شاء (٥) اي أوقعته فيما لا يستطيع الخروج منه (٦) اي شديدة الخصومة

وامتلأت القلوب بالسخائم من عمال عثمان ، ومما يدسه دعاة الثورة في الاذهان ، وكثر الطعن والارجاف على الامراء . اعتزم سعيد بن العاص على الوفادة على عثمان سنة اربع وثلاثين وكان قبلها قد ولّى على الاعمال امراء قبَله فولى الاشعث بن قيس على آذربيجان وسعيد بن قيس على الري والنسير العجلي على همذان والسائب بن الاقرع على اصبهان ومالك بن حبيب على ماه وحكيم بن سلامة على الموصل وجُرَيْر بن عبد الله على قرقيسيا وسلمان بن ربيعة على الباب وجعل على حلوان عُتَيْبة بن النهّاس وعلى الحرب القعقاع بن عمرو وخرجوا لاعمالهم وخرج هو وافداً على عثمان واستخلف عمرو بن حُرَيْث وخلت الكوفة من الرؤساء فاغتنم الطعانون هذه الفرصة فأظهروا أمرهم وخرج بهم يزيد بن قيس يريد خلع عثمان ومعه الذين كان ابن السوداء يكاتبهم فبادره القعقاع بن عمرو . فقال انمّا نستعفي من سعيد ابن العاص فتركه وكتب يزيد الى الرهط الذين عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بحمص في القدوم فساروا اليه وسبقهم الاشتر ووقف على باب المسجد يوم الجمعة يقول : جئتكم من عند عثمان وتركت سعيداً يريده على نقصان نسائكم على مائة درهم « اي من العطاء » ورد أولي البلاء منكم الى الفين ويزعم انّ فيئكم بستان قريش : فهاج الناس لهذا الخبر الكاذب والافك المفترى ونادى يزيد في الناس من شاء ان يلحق بيزيد لردّ سعيد فليفعل فخرجوا وذوو الرأي يعزلونهم فلا يسمعون وأقام أشراف الناس وعقلاؤهم مع عمرو بن حريث ونزل يزيد وأصحابه الجرعة لاعتراض سعيد وردّه . فلما وصل قالوا ارجع فلا حاجة لنا بك : قال انما كان يكفيكم ان تبعثوا واحداً الي والى عثمان رجلا . وقال مولى له ما كان ينبغي لسعيد ان يرجع فقتله

الاشتر : ورجع سعيد الى عثمان فأخبره بخبر القوم وانهم يختارون أبا موسى الاشعري فولاه الكوفة وكتب اليهم

امّا بعد فقد أمرت عليكم من اخترتم وأعفيتكم من سعيد ووالله لافرضنكم عرضي ولابذلنّ لكم صبري ولاستصلحنكم بجهدي . فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يعصى الله فيه الاّ سألتموه . ولا شيئاً كرهتموه لا يُعْصَى الله فيه الاّ ما استعفيتم منه . أنزل فيه عند ما أحببتم حتى لا يكون لكم عند الله حجةٌ ولنصبرنّ كما أمرنا حتى تبلغوا ما تريدون

ولما انتهى اليهم الكتاب خطبهم أبو موسى الاشعري وأمرهم بلزوم الجماعة وطاعة عثمان فرضوا وكان جاء بعض الامراء من قرقيسيا وحلوان وغيرها لاجل استصلاح القوم فلما بلغهم لزومهم للطاعة رجعوا من قرب الكوفة

وكانوا يسمون اليوم الذي ثاروا فيه لرد سعيد يوم الجرعة باسم المكان وذكروا عن سبب هذا اليوم رواية ثانية رواها الطبري ونقلها غيره من المؤرخين ومؤداها انّ اهل الكوفة أجمع رأيهم ان يبعثوا الى عثمان ويعذلوه فيما نقم منه فاتفقوا على ارسال عامر بن عبد القيس الزاهد وهو عامر بن عبدالله من بني تميم ثم من بني العنبر : فأتاه وقال له انّ اناساً اجتمعوا ونظروا في اعمالك فوجدوك ركبت اموراً عظاماً فاتق الله وتب اليه : فقال عثمان ألا تسمعون الى هذا الذي يزعم الناس انه قارئ ثم يجيء يكلمني في المحقرات (أي الصغائر) ووالله لا يدري اين الله : فقال عامر بلى والله اني لادري انّ الله لبالمرصاد :

فأرسل عثمان الى معاوية وعبدالله بن سعد بن أبي سرح وسعيد بن العاص

وعبدالله بن عامر وعمرو بن العاصي وكانوا بطانته دون الناس فجمعهم وشاورهم وقال لهم : انّ لكلّ امرىء وزراء ونصحاء وانكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا اليّ ان اعزل عمالي وان ارجع عن جميع ما يكرهون الى ما يحبون فاجتهدوا رأيكم

فقال له ابن عامر أرى لك يا أمير المؤمنين ان تشغلهم بالجهاد عنك حتى يذلوا لك . وقال سعيد احسم عنك الداء فاقطع عنك الذي تخاف انّ لكل قوم قادةً متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر . وقال معاوية أشير عليك ان تأمر امراء الاجناد فيكفيك كل رجل منهم ماقبله واكفيك أنا أهل الشام . وقال عبد الله بن سعد انّ الناس أهل طمع فاعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم . ثم قام عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين انك قد ركبت الناس بمثل بني امية فقلت وقالوا وزغت وزاغوا فاعتدل او اعتزل : الى آخر ما قال وقد اوردنا قوله في سيرته في الجزء الثالث . وهذا الرأي هو انجع الآراء واحسمها لمادة الفتنة ولو تبعه عثمان رضي الله عنه واعتدل في ميله لبني امية وجعل المهاجرين والسابقين من الصحابة بطانته وأهل شوراه كما كان الحال على عهد الخليفتين لما اجترأ احد على قتله ولدفع المهاجرون عنه غائلة الفتنة واذا كان لم يستطع ذلك واعتزل كان نجا من القتل وقضى بقية حياته محترم الجانب مكرماً من الناس لسابقته وسنه وتقواه . ولعله أراد ذلك فامكنه بنو أمية مما يريد بعد ان صارت اليهم مقاليد الامور ولله في هذا شأن هو بالغه

رأى عثمان ان يشغل الناس عنه بالحروب والغزوات كما أشار عليه ابن عامر فردّ العمّال الى اعمالهم وأمرهم بتجهيز الناس في البعوث ليكون لهم

فيها شغل : وهذا دواء وقتي لا يستأصل ذلك الداء بل هو من قبيل وضع المخدّر على محل الألم لا يلبث ان يسكن ساعة ثم يعود . ولما رجع الامراء وعاد سعيد الى الكوفة لقيه القوم بالجرعة فردّوه كما مرّ في الخبر الاول

استمر الناس ينالون من عثمان في المدينة وغيرها ويتكاتب بعضهم الى بعض وليس أحد من الصحابة ينهى الاّ نفر منهم كانوا يذبون عنه مثل زيد ابن ثابت وأبي أسيد الساعدي وكعب بن مالك وحسان بن ثابت فلم يغنوا عنه فاجتمع الناس الى علي بن أبي طالب فكلموه في ذلك فدخل على عثمان : وقال : الناس ورائي وقد كلموني فيك والله ما أدري ما أقول لك ولا أعرف شيئاً تجهله ولا أدلك على أمر لا تعرفه . انك لتعلم ما أعلم ما سبقناك الى شيء فنخبرك عنه ولا خلونا بشيء فنبلغكه وما خُصصنا بأمر دونك وقد رأيت وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت منه ونلت صهره وما ابن أبي قحافة ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك وأنت أقرب الى رسول الله رحماً ولقد نلت من صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم مالم ينالاه وما سبقاك الى شيء فالله الله في نفسك فانك والله ما تبصر من عمي ، ولا تعلم من جهالة ، وانّ الطريق لواضح بيّن ، وانّ اعلام الدين لقائمة ، اعلم يا عثمان انّ أفضل عباد الله امام عادل هدي وهدى فاقام سنةً معلومة ، وأمات بدعةً متروكةً ، فوالله انّ كلاً لبين ، وان السنن لقائمة لها اعلام ، وانّ البدع لقائمة لها اعلام ، وانّ شر الناس عند الله امام جائر ضل وأضل فأمات سنةً معلومةً ، وأحيا بدعة متروكة ، واني احذرك الله وسطواته ونقماته فان عذابه شديد أليم ، وأحذرك أن تكون امام هذه الامة الذي يُقتَل فيفتح عليها القتل والقتال الى يوم القيامة ويلبس أمورها عليها و يتركها شيعاً لا يبصرون

الحقّ لعلوّ الباطل ، يموجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجا ،

فقال عثمان : قد علمتُ والله ليقولنّ الذي قلت . أما والله لو كنت مكاني ما عنفتك ، ولا أسلمتك ، ولا عبت عليك . وما جئت منكراً انْ وصلت رحماً وسددت خلّة (حاجة) وآويت ضائعاً ، ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولي . أنشدك الله يا عليّ هل تعلم انّ المغيرة بن شعبة ليس هنالك ؟ قال نعم : قال فتعلم انّ عمر ولاه ؟ قال نعم : قال فلم تلومني انْ وليت ابن عامر في رحمه وقرابته ؟ قال عليّ انّ عمر كان يطأ على صماخ (اذن) من ولى . ان بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى العقوبة . وأنت لا تفعل . ضعفت ورققت على اقربائك . قال عثمان وهم اقرباؤك ايضا : قال أجل انّ رحمهم مني لقريبة ولكن الفضل في غيرهم : قال عثمان هل تعلم انّ عمر ولى معاوية فقد وليته ؟ فقال عليّ أنشدك الله هل تعلم ان معاوية كان أخوفَ لعمر من يَرْفأَ غلام عمر ؟ قال نعم : قال عليّ فان معاوية يقتطع الامور دونك ويقول للناس هذا أمر عثمان وأنت تعلم ذلك فلا تغير عليه :

ثم خرج علي من عنده وخرج عثمان على أثره فجلس على المنبر ثم قال:

امّا بعد فانّ لكل شيء آفةً ، ولكل امرٍ عاهةً وانّ آفة هذه الامة وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون ، يرونكم ما تحبون ويسترون عنكم ما تكرهون يقولون لكم ويقولون ، أمثال النعام يتبعون اول ناعق . أحب مواردهم اليهم البعيد ، لا يشربون الاّ نَغَصاً (كدراً) ولا يردون الاّ عكراً ، ولا يقوم لهم رائد وقد أعيتهم الامور ، ألا والله فقد عبتم عليّ ما أقررتم لابن الخطاب بمثله . ولكنه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم . ولنت لكم وأوطأتكم كتفي ، وكففت يدي

ولساني عنكم فاجترأتم علي ، أمَا والله لأَنَا أعزّ نفراً وأقرب ناصراً ، وأكثر عدداً وأحرى ، ان قلت هلمّ أتى اليّ ، ولقد عددت لكم أقراناً وأفضلت عليكم فضولاً ، وكشرت لكم عن نابي ، واخرجتم مني خلقاً لم اكن أحسنه، ومنطقاً لم انطق به ، فكفوا عني ألسنتكم وعيبكم وطعنكم على ولاتكم فاني كففت عنكم من لوكان هو الذي يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقي هذا . ألا فما تفقدون من حقكم والله ما قصرت عن بلوغ ما بلغ من كان قبلي ولم تكونوا تختلفون عليه :

فقام مروان بن الحكم فقال ان شئتم حكمنا والله بيننا وبينكم السيف. نحن وانتم والله كما قال الشاعر

فرشنا لكم اعراضَنا فَنَبَتْ بكم مغارِسُكُمُ تبنون في دِمَنِ الثَّري

فقال عثمان اسكت لاسكت دعني واصحابي ما منطقك في هذا ألم اتقدم اليك أن لا تنطق . فسكت مروان ونزل عثمان عن المنبر فاشتد قوله على الناس وعظم وزاد تألبهم عليه

﴿ اقبال من اقبل لحصار عثمان وقتله ﴾

رأيت مما تقدم الى أيّ حد بلغ تيار الفتنة وغليان السخائم في الصدور وتأجج نار الثورة في الاطراف وشيوع الطعن على عثمان وعماله في كل مصر من الامصار الكبيرة وان سببه استئثار بني أمية بعثمان وانقطاعهم اليه وركونه اليهم دون المهاجرين والانصار ثم تذرع دعاة الفتنة بهذا الى الانكار عليه ومؤاخذته على امور فيها ما يعتذر عنه واستنهاضهم الناس بهذا للجرأة عليه وطرد عماله وخلعه من منصب الخلافة وليس من يذب عنه وينتصر له الا نفر قليل من الصحابة وما عداهم من المهاجرين والانصار

كلهم ناقم منه مغض عن نصرته ينتظر منه اما الرجوع الى سيرة أبي بكر وعمر واما التخلي عن منصب الخلافة ليكون الامر كما قال عمرو بن العاص بين الناس شرعاً سواء . وذلك لان الامة كما علمت جديدة النشأة ميالة بفطرتها الى الحرية والمساواة وقد اعتادت من أبي بكر وعمر العدل بين الناس في المعاملة وعدم استئثارهما بشيء من امور الدولة أو انقطاعهما بالرأي والمشورة الى فريق مخصوص من الناس وهو ما تنزع اليه اخلاق القوم ويأمر به الاسلام لهذا لما خالف عثمان صاحبيه بالاستبداد بالرأي والانقطاع الى فريق مخصوص من أهله وعشيرته يستبدون عليه وعلى كبار الامة ووجوه الصحابة بالامور هالهم ذلك وخافوا من ان تنقلب الدولة أموية بعد ان كانت شورية اسلامية ليس لقوم ان يستأثروا بشأن من شؤونها دون آخرين ومما لا ريب فيه انّ الدولة اذا اصطبغت بصبغة قومية وغلب على امورها قوم دون آخرين لا تلبث ان تتنازعها اطماع الغالبين بحكم القوة والعصبية التي تتخلل جسم الدولة ومن ثم ادرك الصحابة وبالخصوص المرشحون للخلافة من المهاجرين مغبة الامر وخافوا من استصباغ الخلافة بالصبغة الاموية اذا استمر عثمان فيها والآخذون بمقاليد امورها هم بنو أمية فلما رأوا ان الأمة تجاري رغائبهم وتشاركهم بالاحساس بمثل هذا الخطر لم يمنعوا عن عثمان وربما كان لبعضهم يد في استجاشة الخواطر عليه كطلحة ابن عبيد الله ونفر غيره ممن كان يكاتبهم أهل الامصار كما سترى بعدُ ولكن لم يبلغ منهم الامر مبلغ اهدار دمه او الممالئة على قتله معاذ الله وانما هم أرادوا الوصول الى خلعه فقط فغلب على رأيهم جفاة الاعراب لما عظمت الفتنة وأشتد صخب المتألبين عليه لما أبى الاعتزال وترك منصب

الخلافة ومع هـذا فقد كان عامة أهل المدينـة أخف وطأة وألزم للصبر والاناة من أهل الامصار الذين ملأوها عليه بالفتنة شأن الأمم التي تجري منها قوة الشباب مجرى الروح من الجسم فلا تبصر اذا اندفعت لأمر في اي طريق تسير

لهذا لما تواترت الاخبار وتوالت على أهل المدينة الاذاعات الفاشية في الامصار أرادوا التثبت من الامر والأخذ بالاحوط رأفة بعثمان رضي الله عنه فأتوه وسألوه عن علمه بما يجري في الامصار واخبروه خبر الناس فلم يجدوا عنـده علما وقال لهم أشيروا علي وانتم شهود المؤمنين : قالوا تبعث من تثق به الى الامصار يأتوك بالخبر فارسل محمد بن مسلمة الى الـكوفة . وأسامة بن زيد الى البصرة وعبـد الله بن عمر الى الشام وعمّار بن ياسر الى مصر وغيرهم الى سواها . فرجعوا وقالوا ما أنـكرنا شيئاً ولا أنـكره علماء المسلمين . هكذا نقل الطبري وابن الاثير وابن خلدون وأكثر المؤرخين ولم يزيدوا وظاهر انهـم يريدون من عدم انكارهم لشيء اي من سيرة العمال التي يتذرع بها الناقمون الى الثورة وهذا يؤيد ما قلناه من انّ ما نقموه من عثمان هو غير ما نسبوه الى عماله واليه من الاحداث التي أكثرها مما يمكن الاعتـذار عنه وانّ استيلاء بني أمية على عثمان واستبداده واياهم بالامر هو العلة الحقيقية في تذمر المتذمرين ولو كان هناك شيء مما يذيعه الناقمون من المظـالم وسوء سيرة العمال لما خفي على اولئك الرسل وهم من خيرة الصحابة ولـكان العلماء افضوا اليهم به ولم يكتموه وكذا العامة على أنّ تلك العلة الحقيقية ليست بالامر الهين ايضاً كما علمت لما فيها من الخطر على الخلافة الشرعية والخطر على حياة الشورى والخطر على المترشحين لهـذا

المنصب من المهاجرين يضاف الى هذه العلة ما يدسه دعاة الفتنة كعبد الله سبأ ومحمد بن أبي حذيفة وغيرهما للناس وما يجهر به عمار ومحمد بن أبي بكر وابن جعفر من التشنيع على عثمان انتقاماً لانفسهم منه لامور سبقت له معهم [1] ورغبة فى مصير الخلافة بعده الى عليّ رضي الله عنه يدلك عليه ما رواه ابن عساكر عن عمرو بن محمد قال بعثت ليلى بنت عميس الى محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر فقالت . انّ المصباح يأكل نفسه ويضيء للناس فلا تأثما في أمر تسوقانه الى من لا يأثم فيه . فانّ هذا الامر الذي تحاولون اليوم لغيركم غداً فاتقوا ان يكون عليكم اليوم حسرةً عليكم غداً . فلجّا وخرجا مغضبين يقولان لا ننسى ما صنع بنا عثمان وتقول ما صنع بكما الاّ ما ألزمكما الله ه

هذا ولما رجع الرسل من الامصار تأخر عمّار بن ياسر بمصر واستماله ابن السوداء وأصحابه وكتب عثمان الى أهل الامصار كتاباً هذه صورته عن ابن عساكر

امّا بعد فاني آخذ العمّال بموافاتي في كل موسم وقد سلطت الأمة

(١) روى الطبري عن سعيد بن المسيب انّ سائلا سأله ما الذي دعا محمد بن أبي حذيفة الى الخروج على عثمان فقال كان يتيما فى حجر عثمان وكان عثمان والي ايتام أهل بيته ومحتمل كلهم فسأل عثمان العمل (الولاية) حين ولي فقال يا بني لو كنت رضي ثم سألتني العمل لاستعملتك ولكن لست هناك . قال فأذن لي فلاخرج فلاطلب مايقوتني. قال اذهب حيث شئت وجهزه من عنده وحمله وأعطاه فلما وقع الى مصر كان فيمن تغير عليه ان منعه الولاية . قيل (اي للشعبي) فعمار : قال كان بينه وبين عباس بن عتبة بن أبي لهب كلام فضربهما عثمان : واما محمد بن أبي بكر فقد اخرج ابن عساكر والطبري انه لزمه حق فأخذه عثمان من ظهره ولم يدهن فنقمها منه محمد وسيأتي خبره فى غير هذا المحل ان شاء الله

منذ وليت على الائتمار بالمعروف والنهي عن المنكر . فلا يرفع اليّ شيء عليّ أو على احدٍ من عمالي الاّ اعطيته . وليس لي ولا لعمالي حقّ قِبلَ الرعية الاّ متروك لهم . وقد رفع اليّ أهل المدينة انّ اقواماً يُشتمون وآخرين يُضربون . فيامن ضرب سراً وشتم سراً من ادعى شيئاً من ذلك فليوافِ الموسم « موسم الحج » وليأخذ بحقه كيف كان مني أو من عمالي . او تصدقوا فان الله يحب المتصدقين

فلما قرئ هذا الكتاب في الامصار بكى الناس ودعوا لعثمان . وما أطوع الانسان ، لرب الاحسان ، ولو ثبت على مثل هذا عثمان (رض) ولم يحفل باغراء مروان ومن على شاكلته ومضى في تألف الناس على وجهه لما تمكنت جذور الفتنة في البلاد ، وقعد له القوم بالمرصاد ،

ولما كتب ذلك الكتاب بعث لعمال الامصار ان يوافوه في الموسم فقدموا عليه وهم عبد الله بن عامر وعبد الله بن سعد ومعاوية وأدخل معهم سعيد بن العاص وعمرو بن العاص فقال : ويحكم ما هذه الشكاية والاذاعة اني والله لخائف ان تكونوا مصدوقاً عليكم وما يعصب « يحاط » هذا الاّ بي . فقالوا له ألم يرجع اليك رسلك ويخبروك انّ احداً لم يشافههم بشيء والله ما صدقوا ولا برّوا ولا نعلم لهذا الامر اصلاً ولا يحل الاخذ بهذه الاذاعة : فقال اشيروا عليّ : فقال سعيد هذا أمر مصنوع يلقى في السرّ فيتحدث به الناس . ودواء ذلك طلب هؤلاء وقتل الذين يخرج هذا من عندهم : وقال عبد الله بن سعد خذ من الناس الذي عليهم اذا أعطيتهم الذي لهم فانه خير من ان تَدَعهم : وقال معاوية قد وليتني فوليت قوماً لا يأتيك عنهم الا الخير والرجلان أعلم بناحيتهما والرأي حسن الادب :

وقال عمرو بن العاص أرى انك قد لنت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى ان تلزم طريقة صاحبيك فتشد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين :

فقال عثمان قد سمعت كل ما اشرتم به علي ولكل أمر باب يؤتى منه. انّ هذا الامر الذي يخاف على هذه الأمة كائن وان بابه الذي يغلق عليه ليفتحن . فنكفكفه [1] باللين والمواتاة [2] الا في حدود الله فان فتح فلا يكون لاحد علي حجة . وقد علم الله اني لم آل [3] الناس خيراً وانّ رحى الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان ان مات ولم يحركها . سكنوا الناس وهبُو لهم حقوقهم فاذا تُعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها .

ثم لما عاد عثمان الى المدينة وعاد معه القوم دعا علياً وطلحة والزبير وعنده معاوية فحمد الله معاوية ثم قال : أنتم أصحاب رسول الله (ص) وخيرته من خلقه وولاة أمر هذه الأمة لا يطمع فيه أحد غيركم اخترتم صاحبكم (يعني عثمان) عن غير غلبة ولا طمع وقد كبر وولى عمره ولو انتظرتم به الهرم لكان قريباً مع اني ارجو ان يكون أكرم على الله ان يبلغه ذلك وقد فشت مقالة خفتها عليكم فما عتبتم فيه من شيء فهذه يدي لكم به ولا تطمعوا الناس في أمركم فوالله ان طمعوا فيه لا رأيتم منها ابداً الا ادباراً .

ولا يخفى على اللبيب ان معاوية يعرض بالقوم ويشير الى ما في نفوسهم من الطمع بالخلافة وانهم يستعجلونها مع كبر عثمان وقرب مصيرها اليهم بالضرورة لهذا انتهره علي رضي الله عنه وقال له : اسكت لا أم لك :

(١) ندفعه (٢) حسن الموافقة (٣) لم أقتر ولم أقصر

فقال دع أمي فانها ليست بشرّ أمهاتكم قد أسلمت وبايعت الرسول صلى الله عليه وسلم وأجبني عما أقول لك : فقال عثمان صدق ابن اخي أنا أخبركم عني وعما وليت . انّ صاحِبَيَّ اللذين كانا قبلي ظلما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل احتساباً وانَّ رسول الله (ص) كان يعطي قرابته وأنا في رهط أهل عيلة وقلة معاش فبسطت يدي في شيء من ذلك لما أقوم به فيه فان رأيتم ذلك خطأ فردوه فامري لامركم تبع : فقالوا له قد أصبت وأحسنت . قد أعطيت عبد الله بن خالد بن أسيد خمسين ألفاً وأعطيت مروان خمسة عشر ألفاً : فأخذ منهما ذلك . فرضوا وخرجوا راضين وقال له معاوية اخرج معي الى الشام فانهم (اي اهل الشام) على الطاعة قبل ان يهجم عليك ما لا قِبَلَ لك به : فقال عثمان لا ابيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء ولو كان فيه خبط عنقي . قال فان بعثت اليك جنداً منهم يقيم معك لنائبة ان نابت: قال اضيق على جيران رسول الله : فقال والله لَيُغْتَالَنَّ ولَتُغْزَيَنَّ فقال حسبي الله ونعم الوكيل

﴿ وصية معاوية للمهاجرين بعثمان ﴾

فلما ودع معاوية عثمان خرج من عنده وعليه ثياب السفر فمرَّ على نفر من المهاجرين فيهم علي . وطلحة . والزبير . فقام عليهم فتوكأ على قوسه بعد ما سلم عليهم ثم قال : انكم قد علمتم ان هذا الامر كان اذ الناس يتغالبون الى رجال فلم يكن منهم أحد الاَّ وفي قبيلته من يرأسه ويستبد عليه ويقطع الامور دونه ولا يشهده ولا يوآمره حتى بعث الله تعالى نبيه وأكرم به من اتبعه فكانوا يرأسون من جاء بعدهم وأمرهم شورى بينهم يتفاضلون فيه بالسابقة والقدمة والاجتهاد . فان أخذوا بذلك وقاموا به كان الامر أمرهم

والناس لهم تبع . وان صغوا الى الدنيا وطلبوها بالتغالب سلبوا ذلك ورده الله الى من جعل له الغَلَب وكان برأسهم أولاً فليحذروا الغيرَ فان الله على البدل لقادر وله المشيئة في ملكه وأمره. اني قد خلفت فيكم شيخاً فاستوصوا به خيراً وكانفوه (١) تكونوا أسعد منه بذلك: ثم ودعهم ومضى

هذه الوصية أوردها ابن عساكر في تاريخه وأوردها غيره مختصرة فاحببت نقلها عن ابن عساكر لانها أجمع وكل ما فيها غرر تاريخية تبين ما كان عليه حال العرب قبل الاسلام وما صاروا اليه بعده وان التفاضل في الاسلام ليس الاَّ بالسابقة وان الرئاسة التي ارتبطت بالشورى بعد الفوضى الماضية انما صارت الى السابقين بسبقهم فاذا انتهت الى التغالب صارت الى من دخل الاسلام بعدهم لان في هؤلاء من هو أقوى عليها منهم ولعل معاوية يعرض بنفسه وقد انبأهم عن أمر واقع لا محالة وحذرهم من شيء لا تغني الحيطة من الوقوع فيه مادامت روح التغالب سرت في القوم فاشرأبت أعناق غير السابقين الى ما كان لهم بحكم الجامعة الاسلامية والاستحقاق وليت تلك الروح لم تكن كانت في عصر كان الناس فيه أحوج الى خلافة عثمان وعليّ واضرابهما من أهل السابقة الذين تأدبوا باداب النبوة فكانوا أرأف بالامة وألزم لطريقة الشورى والعدل وكان يرجى لو استمرت جيلاً آخر نمو مبادئ الشورى في الدولة ونشوء الجيل القابل على حبها والتوجه الى وضع قواعدها على أصول ثابتة لا تقوى عليها ايدي المستبدين والطماع الطامعين على ان اولئك النفر من المهاجرين الذين خاطبهم معاوية قد أعظموا قوله رصدقوا نصيحته اذ قال علي : ان كنت لأرى ان في هذا

(١) ارفقوا به

خيراً : فقال الزبير لا والله ما كان قط أعظم في صدرك وصدورنا منه اليوم

﴿ عود الى ما نحن بصدده ﴾

هذا ولما دعا عثمان (رض) الامراء الى الموسم وخلت منهم البلاد اتّمد المنحرفون عن عثمان ان يثبوا في مغيب الامراء فلم يتهيأ لهم ذلك فلما رجع الامراء كتب بعض أهل المدينة الى المنحرفين عن عثمان في الامصار بالقدوم عليهم وكان الذين يكاتبون أهل مصر محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر وعمار بن ياسر وسراً أناس من الناس كما في رواية ابن عساكر من حديث طويل

فتكاتبوا من امصارهم في القدوم على المدينة فخرج المصريون وفيهم عبد الرحمن بن عُدَيس البلوي في خمسمائة وقيل في ألف وفيهم كنانة بن بشر الليثي وسودان بن حمران السكوني وميسرة او قتيرة بن فلان السكوني وعليهم جميعاً الغافقي بن حرب العكي . وخرج أهل الكوفة وفيهم زيد بن صوحان العبدي والاشتر النخعي وزياد بن النضر الحارثي وعبدالله بن الاصم العامري . وخرج أهل البصرة وفيهم حكيم بن جبلة العبدي . وذريح بن عبّاد وبشر بن شُرَيح القيسي وابن لمحرش وعليهم حرقوص بن زهير السعدي وكلهم في مثل عدد أهل مصر . وخرجوا جميعاً في شوال مظهرين للحج ولما كانوا من المدينة على ثلاثة مراحل تقدم ناس من أهل البصرة وكان هواهم في طلحة فنزلوا ذا خشب وتقدم ناس من أهل الكوفة وكان هواهم في الزبير فنزلوا الاعوص ونزل معهم ناس من أهل مصر وكان هواهم في عليّ وتركوا عامتهم بذي المروة . وقال زياد بن النضر وعبد الله بن الاصم من أهل الكوفة لا تعجلوا حتى ندخل المدينة فقد بلغنا انهم عسكروا لنا فوالله ان كان حقاً

لا يقوم لنا امر . ثم دخلوا المدينة ولقوا علياً وطلحة والزبير وأمهات المؤمنين وأخبروهم انهم انما أتوا للحج وانْ يستعفوا من بعض العمال واستأذنوا في الدخول فمنعوهم ورجعوا الى أصحابهم فتشاوروا في ان يذهب من أهل الكوفة وكلّ مصر فريق الى من هواهم فيه وقال كل فريق منهم ان بايعنا صاحبنا والاّ كذبناهم وفرقنا جماعتهم ثم رجعنا عليهم حتى نبغتهم

هذا ما أجمع رأيهم عليه من الكيد وهو في الظاهر دهاء وتحيل على نيل المقصود الاّ انّ الحقيقة انْ ليس في القوم رجل على بصيرة من الأمر اذ لو فرض ان عثمان رضي الله عنه اصبح غير أهل للخلافة ووجب على الأمة خلعه واستبداله بمن هو أقدر منه اتباعاً للمصلحة ومراعاةً للشرع أفلا يكون من المصلحة التي يتحراها اولئك الثائرون لانفسهم وللأمة ان لا يكون بعد خلعه خلف وشقاق وان تتوجه القلوب الى مقصد واحد ووجهة واحدة حتى بذلك تتم لهم المصلحة ولا يضطرب حبل الدولة بأشد مما كان فيه من الاضطراب في عهد عثمان وانما يتم لهم ذلك باتفاقهم جميعاً على من يخلف عثمان والقوم يومئذ غايتهم واحدة وهي خلع عثمان وقلوبهم شتى فيمن يخلفه وكل فريق منهم يميل الى شخص بعينه فكأنهم مساقون الى حيث لا يعلمون . لذا فأنهم مع صعوبة الامر الذي قاموا به وانه من المراكب الخشنة التي لا يركبها الاّ الاقوام ذوو الحياة العالية والشعور الصحيح لم يهتدوا الى طريق الخير والمصلحة التي يتوخاها أهل العقول في مثل هذه الحال فكانوا بعملهم هذا أضر على المرشحين للخلافة وعلى الأمة بما جلبوه على الجميع وعلى أنفسهم أيضاً من مصائب الحروب والمنازعات الطويلة التي لمّا لم تكن في بدايتها قائمة على اساس الحكمة والتدبير انتهت بتغلب بني

أمية على الملك وتحول حال الدولة من الشورى الى الاستبداد ولله الامر
هذا وبعد ان اتفق القوم على ما اتفقوا عليه أتى المصريون عليًا وهو في عسكر عند احجار الزيت وقد بعث ابنه الحسن الى عثمان فيمن اجتمع عليه وعرضوا على عليّ أمرهم : فصاح بهم وطردهم وقال انّ جيش ذى المروة وذى خشب والاعوص ملعونون على لسان رسول الله (ص) وقد علم ذلك الصالحون : وأتى البصريون طلحة والكوفيون الزبير فقالا مثل ذلك: فانصرفوا وافترقوا عن هذه الاماكن الى عسكرهم على بعد وتفرق أهل المدينة فلم يشعروا الاّ والتكبير في نواحيها وقد هجموا وأحاطوا بعثمان ونادوا بامان من كفّ يده وصلى عثمان بالناس اياماً ولازم الناس بيوتهم ولم يمنعوا الناس من كلامه . وغدا عليهم عليّ وقال ماردّكم بعد ذهابكم . قالوا أخذنا كتاباً مع بريد بقتلنا وقال البصريون لطلحة والكوفيون للزبير مثل مقالة أهل مصر وأنهم جاءوا لينصروهم . فقال لهم عليّ كيف علمتم بما اتي أهل مصر وكلكم على مراحل من صاحبه حتى رجعتم علينا جميعاً هذا أمر أبرم بليل . فقالوا اجعلوه كيف شئتم لا حاجة لنا بهذا الرجل ليعتزلنا . ثم منعوا الناس من الاجتماع معه وكتب عثمان الى الامصار يستنجدهم ويخبرهم ما الناس فيه فخرج أهل الامصار على الصعب والذلول فبعث عبد الله بن سعد من مصر معاوية بن حُدَيج . وبعث ابو موسى من الكوفة القعقاع ابن عمرو وبعث عبد الله بن عامر من البصرة مجاشع بن مسعود السلمي . وبعث معاوية من الشام حبيب بن مسلمة الفهري وقيل انّ معاوية تربص به فقام في اهل الشام يزيد بن الاسد القسري فتبعه خلق كثير فسار بهم الى عثمان فلما وصل الى وادي القرى بلغهم قتل عثمان فعادوا وكذلك الجيوش

التي اقبلت من الامصار لما انتهت الى الربذة وبلغها قتل عثمان رجعوا جميعاً وكان قام في الامصار جماعة كبيرة من الصحابة والتابعين يحرضون على اعانة أهل المدينة وانجاد عثمان فأجابهم الى ذلك الناس ولكن أعجلهم المحاصرون فقتلوا عثمان قبل ان يصل أحد الى نجدته

ولما جاءت الجمعة القابلة خطب عثمان وقال : يا هؤلاء الله الله فوالله انّ اهل المدينة ليعلمون انكم ملعونون على لسان محمد فامحوا الخطأ بالصواب : فقال محمد بن مسلمة أنا أشهد بذلك فأقعده حكيم بن جبلة وقام زيد بن ثابت فاقعده آخر وحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد وأُصيب عثمان بالحصباء فصُرِع وقاتل دونه سعد بن أبي وقاص والحسين وزيد بن ثابت وأبو هريرة . ودخل عثمان بيته وعزم عليهم بالانصراف فانصرفوا ودخل عليّ وطلحة والزبير على عثمان يعودونه وعنده نفر من بني أمية فيهم مروان. فقالوا لعليّ أهلكتنا وصنعت هذا الصنع والله لئن بلغت الذي تريد لتمرن عليك الدنيا . فقام مغضباً وعادوا الى منازلهم وصلّى عثمان بالناس وهو محصور ثلاثين يوماً ثم منعوه الصلاة وصلى بالناس أمير المصريين الغافقي وقيل أبو أيوب الانصاري وقيل سهل بن حُنَيْف حتى قُتل عثمان

وقد قيل في قتل عثمان انّ محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حُذَيفة كانا بمصر يحرّضان على عثمان فلما خرج المصريون مظهرين للحج خرج معهم محمد ابن أبي بكر وسار على آثارهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح فلمّا كان عبد الله بأيْلَة (العقبة) بلغه انّ ابن أبي حذيفة غلب على مصر فرجع سريعاً اليها فمُنِعَ منها فأتى فلسطين وقيل عسقلان وأقام بها حتى قُتل عثمان وقيل انه اعتزل الفتنة فلم يدخل فيما دخلت فيه قريش والعرب بعدُ حتى مات

أمّا المصريون فلما نزلوا ذا خشب جاء عثمان الى بيت علي ومتّ (توسل) اليه بالقرابة في ان يركب اليهم ويردّهم لئلا تظهر الجرأة منهم: فقال له قد كلمتك في ذلك فاطعت اصحابك وعصيتني: يعني مروان ومعاوية وابن عامر وابن أبي سرح وسعيد بن العاص: فعلى أي شيء اردهم. فقال علي ان أصير الى ما تراه وتشيره وان اعصى أصحابي وأطيعك. فركب علي في ثلاثين من المهاجرين والانصار فأتوا المصريين وتولى الكلام معهم علي ومحمد ابن مسلمة فرجعوا الى مصر ورجع القوم الى المدينة ودخل عليّ على عثمان وأخبره برجوع المصريين وأشار عليه أن يسمع الناس ما عوّل عليه من النزع قبل ان يجيء غيرهم. ففعل وخطب خطبته التي ينزع فيها وأعطى الناس من نفسه التوبة وقال: انا اول من اتعظ استغفر الله مما فعلت وأتوب اليه. فمثلي نزع وتاب فاذا نزلتُ فليأتني اشرافكم فليروا فيّ رأيهم فوالله لئن ردني الحق عبداً لاستننّ بسنة العبد ولاذلنّ ذل العبد وما عن الله مذهب الا اليه. فوالله لاعطينكم الرضى ولَأُنحّيَنَّ مروان وذويه ولا احتجب عنكم: ثم بكى وبكى الناس حتى اخضلت لحاهم

أعطى الناس من نفسه الحقّ ووعد بان يُنحي بني أمية عنه وهذا كل ما يطلبه منه الناس وكادت تطفأ نار الثورة وتزول أسباب الارجاف لكن بني أمية قد استحوذوا على عثمان، وملكوا منه الجذان، لكبر سنه وضعفه فلم يرقهم ما قال ووعد. فلمّا دخل منزله جاءه نفر منهم فيهم مروان وسعيد فعذلوه في ذلك فوبختهم نائلة بنت الفُرافِصة زوجة عثمان وقالت لهم لا تزالون به حتى يقتلوه. فلم يرجعوا الى قولها واستذلوه في اقراره بالخطبة والتوبة عند الخوف. واجتمع الناس بالباب وقد ركب بعضهم بعضاً. فقال لمروان

كلمهم . فكلمهم وأغلظ لهم فى القول وقال جئتم لنزع ملكنا من أيدينا والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ، ولا تحمدوا غب رأيكم ، ارجعوا الى منازلكم فانا والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا

هكذا كان عثمان رضى الله عنه بين عدو في الداخل يثير عليه ثائرة النفوس . وبين عدو في الخارج يتربص به العثرات ويحس من بطانته بالخطر على الخلافة الشرعية والنزوع الى الاستئثار بالسلطة وحسبك من حقد القوم على بطانته من بني أمية ما ذكروه ان عثمان مر مرة بجبلة بن عمرو الساعدي وهو في نادى قومه وفي يده جامعة فسلم فرد القوم عليه. فقال جبلة لم تردون على رجل فعل كذا وكذا ثم قال لعثمان والله لاطرحن هذه الجامعة في عنقك أو لتتركن بطانتك هـذه الخبيثة . مروان . وابن عامر . وابن أبي سرح . فنهم من نزل القرآن بذمه ومنهم من أباح رسول الله دمه اه

والعجيب ان بني أمية يرون الشر المقبل عليهم على عثمان من التصاقهم به واقتطاعهم الامر دونه ويسمعون من الناس مثل هذا الكلام ولا يرفقون بعثمان وبأنفسهم وبالمسلمين ويسلكون فى هـذا الامر مسلك الحكمة والاعتدال ويرقبون عن بعد حالة الفتنة حتى اذا تحققوا الخطر على عثمان دفعوا عنه بما فى الامكان . وما نخال الفتنة تصل الى هذا الحد لو كان بنو أمية بعيدين عن عثمان .

هـذا وبلغ خبر ما قال مروان عليا فنكر ذلك وقال لعبد الرحمن بن الاسود بن عبد يغوث . أسمعت خطبته بالامس ومقالة مروان للناس اليوم يالله وللناس ان قعدت في بيتى قال تركتني وقرابتي وحقي فان تكلمت فجاء ما يريد يلعب به مروان ويسوقه حيث يشاء بعد كبر السن وصحبة الرسول

وقام مغضباً الى عثمان فقال له : اما رضيت من مروان ورضي منك الا بتحرفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يقاد حيث يشاء ربه . والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه . وأيم الله اني لأراه يوردك ولا يصدرك . وما انا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك اذهبت شرفك . وغلبت على رأيك . ثم دخلت عليه امرأته نائلة وقد سمعت قول عليّ فعذلته في طاعة مروان وقالت انما تركك الناس لمكانه فارسل الى عليّ فاستصلحه . فبعث اليه فلم يأته فاتاه عثمان الى منزله يستلينه ويعده الثبات على رأيه معه فقال علي بعد ان قام مروان على بابك يشتم الناس ويؤذيهم . فخرج عثمان وهو يقول خذلتني وجرأت الناس عليّ . فقال علي : والله اني اكثر الناس ذباً عنك ولكني كلما جئت بشيء اظنه لك رضى جاء مروان باخرى فسمعت قوله وتركت قولي : ولم يعد علي يعمل ما كان يعمل الى ان منع عثمان الماء فغضب وامر بادخال الروايا على عثمان

والحق يقال ان علي بن ابي طالب مع تيقنه من مصير الخلافة اليه بعد عثمان فانه لم يأله نصحاً ولم يضن عليه بمد يد المعونة له والذب عنه ومهما كان في نفس علي من جهة بني أمية وعثمان ما فيها فانّ شيمه الجميلة وغلبة الفضيلة على رغائبه النفسية جعلته أقرب في مشربه السياسي الى الاعتدال وأرأف من بقية المهاجرين بعثمان وكان عثمان يعلم ذلك ويأنس بمشورة علي أكثر من غيره يدلك على هذا ما ذكروه في بعض الروايات انّ علياً كان عند حصر عثمان بخيبر فاشتد الطعن بعد خروجه على عثمان ورجا الزبير وطلحة ان يميلا اليهما قلوب الناس ويغلبا عليهم واغتنما غيبة علي . فكتب عثمان الى عليّ

امّا بعد فقد بلغ السيل الزُّبي ، وجاوز الحزام الطبيين ، وارتفع امر الناس في شأني فوق قدره ، وزعموا انهم لا يرضون دون دمي ، وطمع فيَّ من لا يدفع عن نفسه

وانك لم يفخر عليك كفاخرٍ ضعيف ولم يغلبك مثل مغلّب

وقد كان يقال أكل السبع خير من افتراس الثعلب . فاقبل علي او لي

فان كنت مأكولاً فكن انت آكلي والاّ فادركني ولما امزق

ولما جاء علي الى المدينة وجد الناس مجتمعين عند طلحة وقدم عليه عثمان وقال له . اما بعد فان لي حق الاسلام . وحق الاخاء والقرابة والصهر . ولو لم يكن من ذلك شيء وكنا في الجاهلية لكان عاراً على بني عبد مناف ان ينتزع اخوا بني تيم (يعني طلحة) أمرهم : فقال له علي سيأتيك الخبر ثم خرج الى المسجد فرأى أسامة فتوكأ على يده حتى دخل دار طلحة وهو في خلوة من الناس . فقال له يا طلحة ما هذا الامر الذي وقعت فيه . فقال يا أبا الحسن بعدما مسَّ الحزام الطبيين . فانصرف علي الى بيت المال وأعطى الناس فانصرفوا عن طلحة وسُرَّ بذلك عثمان . وجاء اليه طلحة تائباً . فقال والله ما جئت تائباً ولكن جئت مغلوباً فالله حسيبك يا طلحة

وذكروا سبباً آخر لعود المصريين وحصار عثمان وهو ان عبد الله ابن سعد بن أبي سرح ضرب رجلاً ممن كانوا شكوه الى عثمان حتى قتله فركب المصريون الى المدينة وبسطوا الامر لكبار الصحابة فاجتمعوا على عثمان وألحوا عليه في انصاف القوم من عامله فقال لهم اختاروا رجلاً أُوله عليهم فقالوا استعمل محمد بن أبي بكر فكتب عهده وولاه وخرج معه عدد من المهاجرين والانصار ينظرون فيما بين ابن أبي سرح وأهل مصر وبينما

م على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة رأوا راكباً يدنو منهم ويبتعد عنهم فقبضوا عليه وسألوه فقال انا غلام أمير المؤمنين وجهني الى عامل مصر وقيل بل كان الذي قبضوا عليه ليس بغلام عثمان وقيل انه أبو الاعور السلمي ففتشوه فوجدوا معه أنبوبة رصاص وفيها كتاب الى عامل مصر ففتحوه فاذا فيه : اذا أتاك محمد بن أبي بكر وفلان وفلان فاقتلهم وابطل كتابهم وأقر على عملك حتى يأتيك رأيي

وسواء صح خبر ولاية محمد بن أبي بكر على مصر او لم يصح فان المصريين لما أخذوا الكتاب وفيه الامر بقتل بعضهم او جلدهم رجعوا ورجع الكوفيون والبصريون واقرأوا الكتاب في محضر من الصحابة وقام علي ومحمد ابن مسلمة فأتيا عثمان وقالا له ما قال المصريون : فاقسم بالله ما كتبه ولا علم به : فقال محمد بن مسلمة صدق هذا من عمل مروان : ودخل عليه المصريون فلم يسلموا عليه بالخلافة فعرف الشر فيهم. وذكر ابن عديس ما فعل ابن أبي سرح بالمسلمين وأهل الذمة والاستئثار بالغنائم فاذا قيل له في ذلك قال هذا كتاب أمير المؤمنين ثم ذكروا له امر الكتاب فحلف انه ما كتبه ولا علم له به . وسألوه عمن كتبه فقال لا ادري . فقالوا كيف يكتب بمثل هذه الامور العظيمة وينقش عليها خاتمك وانت لا تعلم فان كنت كاذباً فقد استحققت الخلع وان كنت صادقاً فقد استحققت ان تخلع نفسك لضعفك عن هذا الامر وغفلتك وخبث بطانتك ولا ينبغي لنا ان نترك هذا الامر بيد من تقطع الامور دونه فاخلع نفسك كما خلعك الله :

فأجابهم عثمان اني لا انزع قيصاً ألبسنيه الله ولكني اتوب وانزع :

قالوا لو هذا أول ذنب تبت منه قبلنا لكنا رأيناك تتوب ثم تعود واسنا منصرفين حتى نخلعك او نقتلك أو تلحق ارواحنا بالله تعالى وان منعك أصحابك نقاتلهم حتى نخاص اليك اه

﴿ سبب امتناع عثمان عن اعتزال الخلافة ﴾

هذا آخر سهم في المنزع وآخر الجد في امر الفتنة وقد رأى ذلك عثمان وأحس به وتوالت عليه النذر بحصوله فلم يتنح عن الخلافة وفضل القتل على ترك ذلك المنصب الرفيع لا حباً بالرياسة على ما يظهر اذ الرياسة المشوبة بمثل ذلك الكدر المحاطة بتلك المنغصات المفضية الى ازهاق النفس لا تحب وليست مما يحرص عليه وانما هو امتنع عن اعتزال المنصب لسبب من ثلاثة اسباب (اما) لضعف الارادة الناشئ عن كبر السن (واما) خوفاً من ان يتهم نفسه بالعزل فيسجلون عليه ما اتهم به من الاحداث مع اعتقاده انه لم يستحل محرماً فيما فعل (واما) عملا برأي مروان واضرابه من الامويين الذين لا يرون لانفسهم حقاً بالتقدم في امور الملك والدولة الا اذا انتضي السيف واهريق الدم ما دام غيرهم من المهاجرين وأهل السابقة في الاسلام موجودين واليهم ينتهي المسلمون في الاختيار والمشورة وتسليم ازمة الرياسة . ولا ارى لتمنع عثمان عن ترك الامر سبباً غير احد هذه الثلاثة اسباب والله بالحقيقة عليم

﴿ عود الى ما نحن بصدده ﴾

لما أبى عثمان ان يخلع نفسه جد القوم في حصاره ولو كان لهم رغبة في قتله من مبدأ الأمر لقتلوه وخرج في أثناء الحصار اناس كثيرون عن

المدينة ونصح بعضهم عثمان بالخروج فأبى[1] وكتب للولاة يستمدهم وصار بينه وبين القوم أخذ ورد رأوا بعده أن يمنعوا عنه الماء وكلّ صلة له بالناس تضييقاً عليه لعله يذعن لطلبهم دون سفك دم وكان ذلك التضييق باشارة من طلحة اذ ذكر الطبري ان القوم كانوا يوماً ببابه يتناجون فنهم من يقول اقتلوه ومنهم من يقول انظروا علّ ان يراجع . فمرّ طلحه فقام اليه ابن عديس فناجاه

(١) جاء في حديث رواه بن عساكر ان القوم لما دخلوا واستولوا على المدينة كتب عثمان الى الناس يستمدهم في امصارهم ويخبرهم الخبر فخرج عمرو بن العاص من المدينة متوجهاً نحو الشام فقال : يا أهل المدينة والله لا يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل الا ضربه الله بذل من لم يستطع نصره فليهرب فسار الى فلسطين وخرج معه أبناه محمد وعبد الله وخرج بعده حسان بن ثابت وتتابع الناس على الخروج وروى عن عبد الله بن مروان عن المغيرة بن شعبة انه دخل على عثمان وهو محصور فقال . انك امام العامة وقد نزل بك ما ترى واني أعرض عليك خصالا ثلاثاً اختر احداهنّ : اما أن تخرج فتقاتلهم فان معك عدداً وقوة وأنت على الحق وهم على الباطل : واما أن تخرق لك باباً سوى الباب الذى هم عليه فتقعد على رواحلك فتلحق بمكة فانهم لن يستحلوك وأنت بها : واما أن تلحق بالشام فانهم أهل الشام وفيهم معاوية : فقال عثمان . اما ان أخرج فاقاتل فلن اكون أول من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته بسفك الدماء . واما ان أخرج الى مكة فانهم لن يستحلوني بها فاني سمعت رسول الله يقول يُلحد رجل من قريش بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم فلن أكون أنا . وأما أن الحق بالشام فانهم أهل الشام وفيهم معاوية فلن أفارق دار هجرتي ومجاورة رسول الله صلى الله عليه وسلم اه

وهذا منتهى الاستسلام من عثمان رضي الله عنه ومن كان هذا شأنه فبأن يوصف بسلامة الصدر والرضا بالقضاء اولى منه أن يوصف بالاستبداد والاثرة اذ المستبد لا يبالي أن يلجأ الى القوة والحيلة ويستعمل نهاية الحزم في دفع الاذى عنه ولا يمنعه عن مقاصده مانع ولو بسفك الدماء فأمر عثمان هذا مع اتفاق جمهور عظيم من أهل عصره على الشكوى منه يترك الباحث في حيرة لا يدرى كيف يحكم وماذا يقول

ثم رجع ابن عديس فقال لاصحابه لا تتركوا أحداً يدخل على عثمان ولا يخرج من عنده : فقال عثمان وقد كان يرى ما وراء بابه . هذا ما أمر به طلحة . اللهم اكفني طلحة . فانه حمل عليّ هؤلاء وألبهم عليّ والله اني لارجو ان يكون منه صفراً وان يسفك دمه :

وكان القوم بلغهم مسير من سار اليهم من الامصار فكانوا كلما حاولوا الدخول على عثمان منعهم من ذلك الحسن والحسين ابنا عليّ ومحمد بن طلحة وابن الزبير وكثير من ابناء الصحابة جزاهم الله عنه خير الجزاء وكانوا ربما قاتلوهم وقاتلهم معهم أبو هريرة وسعيد بن العاص ومروان وكثير من الصحابة حتى ضربوا مروان وقطعوا له عرقاً من عروقه واحتمل وهم يظنون انه مات كل هـذا وعثمان لم يأمرهم بقتالهم بل كان ينهاهم عنه فلما طال عليهم الامر وخافوا وصول المدد ويئسوا من تسليم عثمان لهم بالامر ورأى محمد بن أبي بكر ان الحسن أصيب بجراح وخشى من أن يراه بنو هاشم فيأتون ويكشفون الناس . فأمرهم باقتحام الدار من الدور المجاورة فاقتحموها عليه من دار عمرو بن حزم ولم يشعر بهم أحد ممن يدافعون عنه على الباب وانتدبوا له رجلاً يقتله فدخل عليه البيت فقال له اخلعها وندعك فأبى ووعظه فخرج ودخل آخر وآخر كلهم يعظه فيخرج ودخل عليه محمد بن أبي بكر فحاوره طويلاً فاستحيا وخرج ثم دخل عليه السفهاء فتولى قتله كنانة بن بشر وطعنه عمرو بن الحمق عدة طعنات ودافعت عنه نائلة فنفحها احدهم بالسيف في أصابعها وجاء غلمان عثمان فقتلوا من قاتليه سودان بن حمران وغيره . وبلغ الخبر علياً وطلحة والزبير وسعداً ومن كان بالمدينة فخرجوا وقد اضطربت عقولهم للخبر الذي جاءهم حتى دخلوا على عثمان فوجدوه مقتولا فاسترجعوا وقال عليّ لابنيه

كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب ورفع يده فلطم الحسن وضرب الحسين وشتم محمد بن طلحة وعبدالله بن الزبير وخرج وهو غضبان حتى أتى منزله وفي رواية ان عليًا كان غائبًا عن المدينة لما قتل عثمان : وكان قتل عثمان رضي الله عنه وأخزى قاتليه لثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة (٣٥ هـ) ودُفن من ليلته وقيل بل بقي في بيته ثلاثة أيام ثم جاء حكيم بن حزام وجبير بن مطعم الى علي فاذن لهم في دفنه فخرجوا به بين المغرب والعشاء ومعهم الزبير والحسن وأبو جهم بن حذيفة فدفنوه في حش كوكب وصلى عليه جبير وقيل مروان وحش كوكب قرب البقيع وقد كان معاوية أمر في خلافته بضمه للبقيع فاتصل بمقابر المسلمين

هذا ما اخترت ايراده من أخبار الفتنة وحصار عثمان وقتله وقد تركت شيئًا كثيراً من أخباره أيام حصاره فليرجع اليها من شاء في المطولات كتاريخ الطبري وابن الاثير وابن عساكر وابن خلدون والامامة والسياسة لابن قتيبة وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد وتاريخ الخلفاء للسيوطي والتمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان وهي الكتب التي نقلت عنها في أخبار الفتنة

وكان عمره لما قتل بين الثانية والثمانين والتسعين وخلافته اثنتى عشرة سنة الا بضعة أيام على قول من قال انه قتل سنة (٣٥ هـ) واما على قول من قال انه قتل سنة (٣٦ هـ) فأكثر والاول أصح

وقد كان لمحمد بن أبي بكر وطلحة بن عبيد الله أثر غير محمود في امر عثمان رضي الله عنه وربما اغتفر ذلك لطلحة لانه كبقية الصحابة الذين كانوا يتربصون بعثمان العزل ولا يظنون انّ الامر يبلغ الى قتله ومهما كان من بعضهم في هذه الفتنة فان الدواعي السياسية ساقت بعضهم طوعاً

وبعضهم كرهاً الى الممالأة على عثمان رجاء اذعانه لما جمعت عليه الافكار من لزوم اعتزاله للامر كما رأيت فيما سبق ولكن أبى رضي الله عنه ورحمه وغفر له الا الموت فاقدم عليه اولئك السفهاء وقتلوه بعد انذار كثير وجد ظاهر لا يخفى على مثل عثمان فذهب شهيداً مبروراً وترك وراءه من الاضطراب في امر الدولة والخلافة ما ترك ولو اعتزل الخلافة منذ رأى الجد من القوم لما كان ما كان ولله الامر

واما محمد بن أبي بكر فقد أخرج ابن عساكر وأبو جعفر الطبري من رواية سيف عن مبشر قال : سألت سالم بن عبدالله عن محمد بن أبي بكر ما دعاه الى ركوب عثمان ؟ فقال الغضب والطمع . فقلت ما الغضب والطمع ؟ قال ما كان من الاسلام بالمكان الذي هو به وغرّه اقوام فطمع . وكانت له دالة ولزمه حق فأخذه عثمان من ظهره ولم يدهن . فأجتمع هذا الى هذا فصار مذمماً بعد ان كان محمداً

﴿ شذرات مما يتعلق بمقتل عثمان ﴾

« وبحث في دخائل الفتنة وكلمتي فيها وفي سبب استمساكه ببني أمية »

قد ذكروا الرواة والمؤرخون اشياء كثيرة مما يتعلق بالفتنة وقتل عثمان غير ما ذكرناه لايخلو النظر فيها من وجوه العبر والوقوف على شيء من دخائل الفتنة فلا ينبغي ان نخلي هذا الكتاب منها بعد ان وعدنا القراء في خاتمة الجزء الثالث بالتوسع في سيرة عثمان اجابة لرغائب كثير منهم خلافاً لما اشترطناه في فاتحة الكتاب من لزوم الاختصار في سيرته وسيرة عليّ رضي الله عنهما . فمن ذلك ما ذكروه عن المكاتبات السرية التي كانت بين الثوار وبعض الصحابة فمنها المختلق ومنها الصحيح . روى ابن قتيبة في الامامة

والسياسة عن حُوَيْطب بن عبد العُزّى انه قال أرسل اليَّ عثمان حين اشتد حصاره فقال : قد بدا لي ان أتهم نفسي لهؤلاء فأت علياً وطلحت والزبير فقل لهم هـذا أمركم فتولوه واصنعوا ما شئتم : فخرجت حتى جئت علياً فوجدت على بابه مثل الجبال من الناس والباب مغلق لايدخل عليه أحـد ثم انصرفت فاتيت الزبير فوجدته في منزله ليس ببابه أحد فاخبرته بما أرسلني به عثمان فقال قد والله قضى ما عليه امير المؤمنين هـل جئت علياً قلت نعم فلم اخلص اليه . فقمنا جميعاً فاتينا طلحة بن عبيد الله فوجدناه في داره وعنده ابنه محمد فقصصنا عليه ما قال عثمان . فقال قد والله قضى ماعليه أمير المؤمنين هـل جئتم علياً ؟ قلنا نعم فلم نخلص اليه . فارسل طلحة الى الاشتر فأتاه : فقال لي اخبره فأخبرته بما قال عثمان فقال طلحة وقد دمعت عيناه . قد والله قضى ما عليه امير المؤمنين . فقام الاشتر وقال تبعثون الينا وجاءنا رسولكم بكتابكم وها هو ذا وأخرج كتاباً فيه بسم الله الرحمن الرحيم (الخ الكتاب وهو في الامامة والسياسة فليراجعه من أحب) أليس هذا كتابكم الينا فبكى طلحة فقال الاشتر لما حضرنا اقبلتم تعصرون اعينكم والله لا نفارقه حتى نقتله وانصرف.وسكوت طلحة عن انكار هذا الكتاب يدل على صحته اذا صحت الرواية.واما المختلق فقد روى ابن عساكر والمدائني انّ المصريين لما عادوا جاؤا الى عليّ وقالوا له قم معنا الى عثمان . فقال والله لا اقوم معكم . قالوا فلم كتبت الينا . قال والله ما كتبت اليكم كتاباً . فنظر بعضهم الى بعض وخرج عليّ من المدينة وفي رواية الاعمش ونقلها صاحب العقد الفريد عن عيينة عن مسروق قال قالت عائشة مصتموه [1] موص

(١) الموص الغسل اللين

الاناء حتى تركتموه كالثوب الرحض [1] نقياً من الدنس ثم عدوتم فقتلتموه . فقال لها مروان هذا عملك كتبت الى الناس تأمرينهم بالخروج عليه : فقالت والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت اليهم بسواد في بياض حتى جلست في مجلسي هذا : قال فكانوا يرون انه كتب على لسان عليّ وعلى لسانها كما كتب ايضاً على لسان عثمان مع الاسود الى عامل مصر . فكان اختلاق هذه الكتب كلها سبباً للفتنة

ولا جرم ان لهذه الكتب أثراً كبيراً في اشعال نار الفتنة ولكن من هو مصدرها ومن هم المختلفون لها ؟ هذا ما لا يظهر الا للمنقب في سيرة عثمان الواقف على مقاصد الاحزاب الكثيرة التي كانت تسعى في اضرام نار الثورة فلبني أمية حزب ولطلحة حزب وللزبير مثل ذلك ولعليّ مثله ايضاً وكان حزب عليّ أشدهم تشيعاً له وطمعاً في مصير الخلافة اليه ومنهم محمد بن أبي بكر وابن جعفر وعمار بن ياسر الذي كان شديد الحب لعلي شديد التأليب على عثمان والتحريض عليه . نقل في العقد ان سعد بن أبي وقّاص قال لعمار بن ياسر لقد كنت عندنا من افاضل اصحاب محمد حتى لم يبق في عمرك الا ظمء الحمار [2] فعلت وفعلت (يعرض له بقتل عثمان) فقال عمار اي شيء أحب اليك مودة على دخل او هجر جميل ؟ قال هجر جميل فلله عليّ ان لا أكلمك ابداً : وروى ابن حزم فى الملل والنحل ان عماراً كان ممن يقول بالفضيل اي تفضيل عليّ على الثلاثة : وناهيك بابن السوداء ومقالته في عليّ ايضاً ومن اخذ برأيه من جفاة الاعراب الذين قل ان يفهموا من الدين شيئاً ينهي ضمائرهم عن الاستسلام لمثل مقالة ابن

(١) المغسول (٢) اى يسير لانه ليس شيء اقصر ظمأ منه

السوداء الذي ينكرها عليّ نفسه ويبرأ الى الله منها وقد علمت مما قررناه فيما سبق ان تغير القلوب على عثمان بسبب استئثاره بامور الامة وانقطاع بني أمية اليه ساعد المرشحين للخلافة بعده على الجهر مع الناس في الانكار عليه توصلا انزع الخلافة منه وابعاد الامويين عنه ولهم في ذلك شبه عذر مادام ليس لهم رأي في قتل عثمان فلما رأى منهم احزابهم الميل الى آرائهم في الانكار عليه أخذ كل حزب يمهد لصاحبه سبيل الوصول الى الخلافة بمثل الانكار الشديد وبث روح القيام على عثمان على الوجه الذي تقدم شرحه وربما تجاوز ببعضهم الامر الى اختلاق مثل تلك الكتب على غير علم ممن تكتب على لسانهم رغبة في استمرار الفتنة وتوكيداً لاهل الامصار لرضا وجوه الصحابة بالقدوم لخلع عثمان : لكن بسبب الصلة المعنوية التي كانت بين المرشحين للخلافة وبين احزابهم كان بعض كبار الصحابة لا يخلونهم من التبعة فيما وقع لعثمان ففي العقد من رواية العتبي عن رجل من ليث قال . لقيت الزبير قادماً فقلت أبا عبد الله ما بالك ؟ قال مطلوب مغلوب يغلبني ابني ويطلبني ذنبي : قال فقدمت المدينة فلقيت سعد بن أبي وقاص فقلت يا أبا اسحاق من قتل عثمان قال قتله سيف سلته عائشة وشحذه طلحة وسمه عليّ . قلت فما بال الزبير ؟ قال اشار بيده وصمت بلسانه :

(وفي العقد ايضاً) قال حسان بن ثابت لعليّ انك تقول ما قتلت عثمان ولكن خذلته . ولم آمر به ولكن لم أنه عنه . فالخاذل شريك القاتل . والساكت شريك القاتل

وانت ترى من هذا انهم انما يعرضون بمثل هذا التعريض بهؤلاء لان لاحزابهم والمقربين منهم دخلاً في قتل عثمان وقلّ ما تبرأ شيعتهم لا سيما

شيعة عليّ من الممالأة على قتل عثمان كما يتبرا منه عليّ واخوانه . اخرج ابن عساكر عن الشعبي قال لقي مسروق الاشتر فقال مسروق للاشتر قتلتم عثمان ؟ قال نعم ، قال اما والله لقد قتلتموه صوّاماً قواماً . قال فانطلق الاشتر فاخبر عماراً . فأتى عمار مسروقاً فقال والله ليجلدن عماراً وليسيرنّ أبا ذر (يعني الى الربذة) وليحمين الحمى وتقول قتلتموه صواماً قواماً . فقال له مسروق فوالله ما فعلتم واحدةً من ثنتين : ماعاقبتم بمثل ما عوقبتم به . وما صبرتم فهو خير للصابرين . قال فكانما ألقمه حجراً

وهذا يدل ايضاً على انهم كانوا يعتقدون انهم غير مخطئين في قتل عثمان والناس في هذا في خلاف كبير كما سترى بعدُ واما عليّ واخوانه فانهم كانوا لا يرون قتله ولا يريدونه البتة وانما هم كانوا يرون وجوب عزله فقط فغلبوا على امرهم لكثرة ما كان يدسه الشيع والاحزاب على عثمان ومما يدلك على انهم غلبوا على امرهم ما رواه الطبري من انّ عثمان ارسل الى علي وطلحة والزبير وعائشة يخبرهم بما هو فيه من الحصار وعدم وجود الماء عنده فبادر عليّ اليه وانّب المحاصرين على منعه الماء وقال لهم بم تستحلون حصره وقتله فقالوا لا والله ولا نعمة عين لا نتركه يأكل ولا يشرب ومنعوا علياً عن الدنو منه فجاءت أم حبيبة زوج النبي على بغلة تحمل الماء فمنعوها وأهانوها وطلب مروان الى عائشة ان تبقى في المدينة وقد كانت عزمت على الشخوص الى مكة فأبت وخافت ان يصنع بها كما صنع بأم حبيبة وفرّت الى مكة وبلغ طلحة والزبير ما لقي علي وأم حبيبة فلزموا بيوتهم : كل هذا لما غلبوا على امرهم وخرج الامر من يدهم

والظاهر من مجمل ما ذكروه من اخبار الفتنة انّ علياً كان أقدر

الناس على الدفع عن عثمان لو شاء لانّ أكثر القائمين بها من شيعته وحزبه

وربما تطرف بعضهم بالاعتقاد لهذا السبب انّ لعلي يداً شديدة في التأليب على عثمان . والحقيقة ان الامر ليس على ظاهره اذ عليّ سيق الى ما سيق اليه القوم بحكم الضرورة والمتابعة فلما استدعى امر الفتنة خرج عن طوقه تسكين الثائر ولم يواته حزبه على ما يريد والذي ألصق كثيراً من دخائل الفتنة بعلي هم الشيعة لما أكثروه من الحط على عثمان توصلا بزعمهم لتبرير عمل علي في القيام على عثمان ولقد دسوا على علي (رض) اخباراً كثيرة من هذا القبيل كقوله لما سئل مرة عن عثمان (الله قتله وانا معه) وغيرهذا من الاخبار التي يأبى تصديقها العقل السليم بالاضافة الى ما عرف عن علي من حب الفضيلة وعلو النفس ولانها تنافي ما رواه الثقاة من الاخبار الكثيرة في براءته من دم عثمان ولو اردنا ان نستقصي ما جاء من الروايات التى تدل على براءة علي خاصة من قتل عثمان لاحتاج ذلك الى كتيب مخصوص فنجتزيء عنها بما يأتي

روى ابن عساكر عن طاوس عن ابن عباس قال قال علي ما أمرت ولا قتلت ولكني غلبت : وروي عن قيس بن عُباد قال سمعت علياً يوم الجمل يقول : اللهم اني ابرأ اليك من دم عثمان لقد طاش عقلي يوم قتل عثمان وأنكرت نفسي وجاؤني للبيعة فقلت والله اني لاستحيي من الله ان ابايع قوماً قتلوا رجلاً قال له رسو الله ألا استحيي ممن تستحيي منه الملائكة : واني لاستحيي من الله ان ابايع وعثمان قتيل في الارض لم يدفن بعد فانصرفوا فلما دفن رجع الناس يسألونني البيعة فقلت اللهم اني لمشفق مما أقدم عليه ثم جاءت عزمة فبايعت فلما قالوا امير المؤمنين فكانما صدع قلبي : واخرج

من طرق عن أبي جعفر الانصاري قال شهدت الدار يوم قتل عثمان ففررت في المسجد فاذا رجل في ظلة النساء محتبي سيفه عليه عمامة سوداء فاذا عليّ قال ما صنع بالرجل ؟ قلت قتل . قال تباً لكم آخر الدهر :

هذا قليل من كثير مما جاء في براءة عليّ من دم عثمان ولا نشك أيضاً ان اخوانه طلحة والزبير مثله في البراءة من هذا الاثم الاّ ان اشياعهم دفعوا الى هذه الفتنة بالعوامل الكثيرة التي كانت قائمة يومئذ وما كانوا ينكرون عليهم لاعتقادهم بان عثمان مخطيء في بعض الامور التي أتاها وان كان هؤلاء يعتقد خطأه بشيء من ذلك لذا ترى كل ما جاء من الاخبار عن الفتنة مجمعة على رضاهم وتحريض بعضهم عليه وكان أشدّهم عليه طلحة بن عبيد الله وأهونهم الزبير (١) كما رأيت فيما تقدم وكان عثمان كما مر مع تحققه من انّ علياً

(١) اخرج ابن عساكر عن موسى بن عقبة عن أبي حبيبة قال لما حصر عثمان جاء بنو عمرو بن عوف الى الزبير فقالوا يا ابا عبد الله نحن نأتيك ثم تصير الى ما تأمرنا به قال فارسلني الزبير الى عثمان فقال اقره السلام وقل يقول لك اخوك ان بني عمرو بن عوف جاؤوني ووعدوني ان يأتوني ثم يصيروا الى ما امرتم به فان شئت ان آتيك فاكون رجلا من اهل الدار يصيبني ما يصيب أحدهم فعلت وان شئت انتظرت ميعاد بني عمرو فأدفع بهم عنك فعلت قال فدخلت عليه (يعني على عثمان) فوجدته على كرسي ذى ظهر ووجدت رياطاً مطروحة ومراكن مغلوة ووجدت في الدار الحسن بن علي وابن عمر وابا هريرة وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير . فأبلغت عثمان رسالة الزبير . فقال الله اكبر الحمد لله الذي عصم اخي قل له انك ان تأت الدار تكون رجلا من المهاجرين حرمتك حرمة رجل وعناؤك عناء رجل ولكن انتظر ميعاد بني عمرو بن عوف فعسى الله ان يدفع بك . قال فقام ابو هريرة فقال : ايها الناس لقد سمعت أذناي رسول الله يقول تكون بعدي فتن واحداث : فقلت وان النجاء منها يا رسول الله قال الامير وحزبه : واشار الى عثمان . فقال القوم ائذن لنا فلنقاتل فقد امكننا

أرأفهم به وأخفهم وطأة عليه يعرف منه انحرافه عنه وعدم رضاه عن عمله ورغبته فيما كان من الامر (ما دون القتل) يدلك عليه ما نقله في العقد عن أبي رافع قال . قال زيد بن ثابت رأيت علياً مضطجعاً في المسجد فقلت . أبا الحسن ان الناس يرون انك لو شئت رددت الناس عن عثمان . فجلس ثم قال والله ما أمرتهم بشيء ولا دخلت في شيء من شأنهم قال فأتيت عثمان فاخبرته فقال

وحرّق قيس عليّ البلا د حتّى اذا اضطرمت أحجما

وقد كان كثير من الصحابة ممن شهد الفتنة أو لم يشهدها منهم من سكت ومنهم من حرّض ومنهم من لم يدفع عن عثمان وكلهم راض من الثائرين عليه بما دون القتل حتى اذا قتل استعظموا ذلك وأكبروه وعدوه ظلما كما استعظمه علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس . فقد اخرج ابن عساكر من طرق عن ابن عباس انه قال : لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بالحجارة من السماء : وفي رواية لابي الحسن المدائني نقلها في العقد قال كان ابن عباس يقول ليغلبن معاوية واصحابهُ علياً واصحابَهُ لان الله تعالى يقول (ومنْ قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوَليّهِ سلطاناً) ويريد ابن عباس بالولي معاوية لانه المطالب بدم عثمان . وذكر الطبري عن حذيفة بن اليمان انه لما قفل من غزاته في بلاد الترك ولقيه مقتل عثمان قال اللهم العن قتلته

البصائر . فقال (اي عثمان) عزمت على احد كانت لي عليه طاعة ألا يقاتل . قال فبادر الذين قتلوا عثمان ميعاد بني عمرو بن عوف فقتلوه اه وانما اوردنا هذا الحديث لما فيه من الادلة على ان الزبير كان أهون على عثمان من غيره وان قيل انه من المنكرين على عثمان

وشتامه . اللهم انا كنا نعاتبه ويعاتبنا فاتخذوا ذلك سلماً الى الفتنــة اللهم لاتمتهم الا بالسيوف . ومن حديث الزهري قال لما قتل مسلم بن عقبة اهل المدينة يوم الحرة قال عبد الله بن عمر : بفعلهم في عثمان ورب الكعبة

بقي ان يقال انّ عثمان رضي الله عنــه هو الذي جرأ القوم على القيام عليه ثم قتله باصراره على ما أنكروه عليه اولاً ثم بعدم اعـتزاله منصب الخلافة ثانياً بعد ان رأى ما رأى من الشرّ في وجوه القوم : فاما الامر الثاني فقد ذكرت فيما سبق رأيي في اصراره عليه . واما الامر الاول فاصراره على ما أُنكر عليه ينحصر على ما أرى في تقريبه بني أمية منه واعطاء ذوي قرابته ولايات الامصار وما عدا هذا من الاحداث التي عدوها عليه فمنها ما تاب عنه ومنها مالا يؤاخذ عليه في الحقيقة ونفس الامر لان كلّه اوجلّه مما يعتذر عنــه : اما افضاؤه الى بني امية باموره دون غـيرهم من أهل الشورى والسابقين واستئثارهم بالسلطة . واقتطاعهم الامور دونه . فهو الامر الذي اهتزت له اعصاب المهاجرين ، وحذر عاقبته عقلاء المسلمين ، خوف اصطباغ الدولة بالصبغة الاموية كما بسطنا هذا في محله فيما مر . ويدلك عليه كثرة ما كان يؤنبـه بعضهم في شأن بطانته من الامويين ومع تأكد عثمان من عدم رضا المسلمين عن استسلامه لاولئك النفر من أهله وعشيرته وانّ اكثر ما اهاج المسلمين عليه تسلط هؤلاء عليه واستئثارهم بالامر الذي لم يكن لهم خاصة بل هو لكل المسلمين ، لاسيما لاولى السابقة منهم والمهاجرين ، فقد كان حريصاً على ان لايتخلى عنهم ولا يجيب ملتمس الأمة فيهم وليس لهذا الاصرار على ما يظهر لنا من سبب الا احد امرين : اما لأنّ قومه استلانوا جانبه واستضعفوه فغلبوا على رأيه فيهم : واما انه أحس منذ عهد عمر للستة

ووقع الاختيار عليه بظهور تحزب بين القوم وتشيع يجرّ الى الاختلاف عليه والكيد له نخشى ان هو انفرد عن قومه وقاطع أهله وعشيرته ان يتوثب عليه عمال الامصار فلا يجد دون أهله عاصماً مما يأتيه من قبل المتوثبين عليه فاستمسك بذوي قرابته وولاهم على الامصار فلما كثر الارجاف بهم والطعن عليهم ورغب اليه الناس في عزلهم زاد به القلق من جهة ما كان يخامره من الشك في الشيع فولى شكايتهم ظهره وأصر على بقاء الولايات في ذوي قرابته وركن اليهم واعتمد في الامور عليهم فكانت له ولهم أثرة انكرها عليه الصحابة وعلى ولاته أشد الانكار وتذرع الثائرون عليه بتلك الاحداث الى خلعه تخلصاً من سلطان أهله وكانت الاثرة هي السبب الاول في استفحال امر الفتنة التي لما استعرت نارها ، واشتد اوارها ، اصبح اطفاؤها خارجاً عن طوق كبار الصحابة ، وقادة الناس ، وربما ندموا حينذاك على ما تقدم، ولات ساعة مندم ، أخرج ابن عساكر عن الاوزاعي انه قال : قيل لعليّ بن أبي طالب أفقُتل عثمان منافقاً ؟ قال لا ولكنه ولي فاستأثر . وجزعنا فأسأنا. وكل سيرجع الى حكم عدل . فان تكن الفتنة أصابتنا أو خبطتنا فيما شاء الله:

هذا واما الداعي الى قيام هذه الاحزاب في خلافة عثمان وسبب افتراق القوم وانقسامهم فهو كما قال معاوية لابن حصين جعل عمر الشورى الى ستة نفر رأى كل شخص نفسه انه أحق بها من غيره فتطلع اليها وصار له حزب يريده عليها ولما أخذها عثمان بقي في أنفسهم ما بقي ثم ما زالت تنمو هذه الرغبة في نفوسهم . وتعظم احزابهم . حتى انفجر بركان الاحزاب ، وطم ذلك العباب ، فافضى الى التغالب لعدم تقييد الامر بالشورى الصحيحة منذ اول خليفة كان كما بسطنا الكلام على هذا في فصل الخلافة والدين

هذا ما اخترت بيانه من اخبار الفتنة واسبابها ودخائلها وقد علقت على كل فصل منها ما رأيته من تلك الاسباب بقدر ما انتهى اليه عقلي وبلغه بحثي واستقصائي واني استغفر الله مما اخطأ به ظني ، وسبق اليه قلمي، لاني لم آت بشيء من عندي الا ما كان بطريق الحدس او الاستنتاج فاذا صح فهو المطلوب ، والاَّ فردود علي خطأي لاني مؤرخ لاجد لي فيطلب مني البرهان ، بأ كثر مما توخيته من البيان ، وانما ذلك مطلوب من علماء الدين الذين ينظرون الى الفتنة من جهة دينية فيقولون عمل هذا حلال وعمل هذا حرام واما انا فاني لم ارد في كل ما علقته على اخبار الفتنة الاَّ الوجهة السياسية والاجتماعية ولم احكم على شخص بخطأ او تصويب الا فيما يعود على مصالح الامة الدنيوية وحقوقها السياسية واما حقوق الله تعالى فهي بينه و بين خلقه يأخذ بها من يشاء ويعفو عمن يشاء وليس أضل عقولا من بعض الفرق الاسلامية التي حصرت النظر من اخبار الفتنة واشخاصها في الوجهة الدينية فقالت هذا استحلّ وهذا حرّم وهذا يعاقب وهذا يثاب وفاتها انّ ما تعلق بحقوق الله فلله واما ما تعلق بالمسلمين فللمسلمين وليس لهم ان يحكموا على شخص يقول ربي الله الاّ بالخطأ اذا اخطأ و بالصواب اذا اصاب هذا فيما يتعلق بامور الامة الدنيوية وحياة الدولة السياسية . واماّ الحكم على هـذا بالكفر وهذا بالايمان مع ثبوت انهم جميعاً من الموحدين فذلك محض افتراء وفضول اذ الحكم في هذا راجع الى الله سبحانه وتعالى وهو المطلع على السرائر ويعلم ما تكنه الصدور . وانّ مما اضاع تاريخ هذه الامة المملوء بالعبر لا سيما تاريخ الصدر الاول جعل كل حوادثه الكبرى دينية محصورة في الحكم أنّ زيداً كفر وعمراً فسق وهذا لم يكفر وذلك لم يفسق كانه ليس لاعمال المسلمين

عمل لا تعلق له بالدين لانه لاحظ لهم من الحياة الدنيا قط

نعم انّ لمثل هذه الاحكام والمباحث اتصالا بالامور السياسية والاعمال الدنيوية فلا تخلو من فائدة وسند لمن يريد الحكم على الاشخاص باعمالهم السياسية والاجتماعية ومن منهم المؤآخذ ومن منهم غير المؤآخذ ولكن أين من مؤرخينا من نظر الى تاريخ القوم من هذه الوجهة بعد انْ حال بينهم وبينهم الدين فتقيدوا بايراد الاخبار كما أخذوها وتجنبوا الخوض فيها والحكم بشيءٍ من عندهم عليها اللهم الا النذر اليسير من المؤرخين مع انّ الصحابة والرواة من التابعين ومن أتى بعدهم لم يضنوا بشيءٍ من مخبئات التاريخ واخبار الرجال بل غالوا في حرية النقل حتى أوردوا لبعضهم من المثالب ما لا يذكر عن غيرهم ولم يجرأ على نقل مثله مؤرخ من مؤرخي الدول قبلهم وتجاوزوا هذا ايضاً الى وضع الاخبار واختلاقها ولم يراعوا جانب البررة من الصحابة والصالحين المحسنين منهم ومع هذا فقد نقلها مؤرخونا على علاتها وزعموا انّ من الادب ان لا يتكلم احد من الناس فيها حاشا فريق المحدثين الذين عنوا بالبحث فيها وفرقوا بين الكاذب والصادق منها ونوهوا بلزوم تمحيصها والتدقيق فيها

هذا واذ قد استوفينا الكلام على الفتنة واخبارها ومقدماتها فقد رأينا ان نقول كلمة في نتائج قتل عثمان رضي الله عنه وما تأتي عن حادثه العظيم من الامور في مستقبل الامة ونعقبه بفصل فيما قيل عن قتل عثمان واسبابه واعتذار المعتدلين من ارباب النحل عنه فنقول

انّ أول وهن دخل على الدولة الاسلامية هي الفتنة وأول ما فرق المسلمين هو قتل عثمان وسواء كان القيام على عثمان رضي الله عنه والنكير عليه بحق او بغير حق فان الفتنة التي ثار ثائرها يومئذ امر متوقع الحصول في

الدول التي تقوم على اساس الحرية والأمم التي تنشأ على الانطلاق عن قيود الاستعباد لارادة الزعماء عند أول صدمة تصيبها من صدمات السياسة فما بالك بتلك الأمة القريبة عهد بصاحب شريعتها صلى الله عليه وسلم الذي يقول« استقيموا لقريش ما استقاموا لكم فان لم يستقيموا لكم فضعوا سيوفكم على عواتقكم ثم أبيدوا خضراءهم »[1] الاَّ انَّ الناس قل ما تفكروا يومئذ بما يعقب قتل عثمان من الخطر على الخلافة من حيث ظنوا ان الخطر ببقائه فيها فقد رأوا بني أمية غلبوا على الخليفة فخافوا ان يغلبوا على الخلافة فتكون الثانية أشد من الاولى فثاروا ثورتهم على عثمان رضي الله عنه فطالبوه بالاعتزال ولم يكتفوا بطلب العدل بين اصناف الأمة فأبى فقتلوه ولو أصروا على طلب العدل لكان أهون عليه من الاعتزال وأسلم لهم من الوقوع في خطر الفرقة والشقاق وأقرب لدفع غائلة الامويين التي كانوا يخشونها على الخلافة وعثمان حي فكانت وعثمان مقتول

قتل عثمان فافترقت الامة بادئ بدء في امر قتله الى اربعة فرق ثم فصل منهم صنف آخر فصاروا خمسة كما في رواية ابن عساكر عن ميمون ابن مهران في حديث طويل ذكر فيه هذه الفرق بعد ان بين ما كان عليه المسلمون من الاتفاق والوئام في عهد أبي بكر وعمر والسنين الاولى من خلافة عثمان فقال عن تلك الفرق انهم (١) شيعة عثمان (٢) شيعة علي (٣) المرجئة (٤) من لزم الجماعة (٥) الحرورية (فامّا) شيعة عثمان فاهل الشام وأهل البصرة. وقال أهل الشام ليس أحد اولى بطلب دم عثمان من اسرة عثمان وقرابته ولا أقوى على ذلك من معاوية. وقال أهل البصرة

---

(١) اخرجه الامام احمد عن ثوبان وخضراءهم اي سوادهم

ليس احد أولى بطلب دم عثمان الاّ طلحة والزبير لانهما من أهل الشورى (وامّا) شيعة علي فهم أهل الكوفة (وامّا) المرجئة فهم الشكاك الذين شكوا وكانوا في المغازي فلما قدموا المدينة بعد قتل عثمان وكان عهدهم بالناس وامرهم واحد ليس بينهم اختلاف فقالوا تركناكم وامركم واحد ليس بينكم اختلاف وقدمنا عليكم وانتم مختلفون . فبعضكم يقول قتل عثمان مظلوماً . وكان اولى بالعدل واصحابه . وبعضكم يقول كان عليّ اولى بالحق واصحابه : كلهم ثقة وعندنا مصدق فنحن لا نتبرأ منهما ولا نعلنهما ، ولا نشهد عليهما ، ونرجئ امرهما الى الله حتى يكون الله هو الذي يحكم بينهما (وامّا) من لزم الجماعة فنهم سعد بن ابي وقاص وأبو أيوب الانصاري . واسامة بن زيد . وحبيب ابن مسلمة الفهري . وصُهيب بن سنان . ومحمد بن مسلمة في عشرة آلاف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين قالوا جميعاً نتولّى (١) عثمان وعلياً ولا نتبرأ منهما ونشهد عليهما وعلى شيعتهما بالايمان ونرجوا لهم ونخاف عليهم (وامّا) الحرورية فقالوا نشهد على المرجئة بالصواب ثم خلطوا بعد ذلك وكفّروا كل من خالفهم .

وأنت ترى ان هذه الفرق لا تعد الاّ احزاباً سياسية أو هي عين الاحزاب التي كانت في مبدأ الفتنة لكن هذه الاحزاب نمت بعد ذلك وانقسمت حتى بلغت سبعين فرقة كلها منتحل في الدين بعد ان كان مبدأ أمرها سياسياً لمحض النزاع على الخلافة ولتحقيق هل كان عثمان بعمله ظالماً يستوجب الخلع ام لا كما هي العادة في كل أمة ودولة اسلامية كانت او غيرها سنة الكون التابعة لمجرى الاحوال السياسية منذ عرف الاجتماع الى الآن وهذا الذي يدع العقول في حيرة من أمر هذه الامة والصاقها

كل شيء بالدين كما بسطناه لك في فصل سابق

هذا من جهة ما أنتجه حادث عثمان من الانقسام بين الأمة واما من جهة ما كان من الخطر على الخلافة فقد تمهد للأمويين بقتل عثمان وقيام طلحة والزبير لمغالبة علي ومنازعته سبيل القيام على علي بدعوق الطلب بدم عثمان وصدق ما انبأهم به معاوية من ذهاب الامر من يدهم اذا صاروا الى التغالب فطمح الى الخلافة ونهض الى منازعة عليّ في الامر ومغالبته على الامارة وكان ما كان من مصير الخلافة الى الأمويين بقوة الغلب وهدمهم اساس الشورى والانتخاب واستئثارهم بالملك بقوة الارهاب وسطوة الغالبين فكان مصير الامر اليهم مبدأ انقلاب سياسي عظيم أتى على نظام الخلافة الشرعيه والحكومة الديموقراطية في الاسلام وبذر في بيوت الملك والخلافة بذور الحكم المطلق فانبتت في قصور الجبارين نبات العلقم الذي سمموا به عقول الأمة واجسامها وأماتوا به شعورها بالظلم واحساسها بهذه الحياة الى هذا اليوم حيث صارت الى حال من الخنوع للامراء، والاستخذاء لارباب السطوة، والرضا بتحمل الظلم والهوان، لا يرضاها لنفسه الحيوان بَلْهَ الانسان، وقد انكفأت جيوش المغرب لهذا العهد على ممالك الاسلام واخذت المسلمين الصيحة من كل مكان فلم يرعهم من ذلك رائع البوار المتوقع اعتماداً على زعمائهم، واستسلاماً لامرائهم، الذين انغمسوا في حمأة الشهوات، وتربوا في سجون القصور، ووراء الجدران الشاهقة، فلم يعرفوا من سياسة الملك الا ارهاب الأمة وقتل عواعف الرعية وارهاق المسلمين بالظلم والاستبداد وحرمانهم من كل علم نافع، ومن كل حق ناصع، من حقوق السيطرة التي خولهم اياها الاسلام حتى فقدت الأمة كل استعداد فطري وكل قوة ملية

تدفع بهما عن نفسها وتذود عن حوضها لخط عليها الجهل بكلكله ، وتمكن منها العدوّ بقوّته وعلمه ، وليس في امراء المسلمين من يرحمهم ويرحم نفسه فيطلق لرعيته منهم عنان الحرية ويأخذهم بالعلم ويتساند معهم على احياء مجد الدولة وسلوك سبيل النجاة بمجاراة الامم الغربيــة والحكومات الشورية الاوربية كما انه لم يبق في المسلمين معنى من معاني الحياة المليــة والشعور الانساني يصوّر لهم شكل الحرية والعلم في صورة من الكمال والقوّة والمجد جعلت الشعوب المسيحية تترامى على الموت ويستهين ألوف منهــم بالحياة ويخاطرون بالنفس والمال توصلاً اليها وتهافتاً عليها : وليت شعري هل من الحرص على الحياة ان يحيى الانسان ذليلاً مهاناً مهضوم الجانب مسلوب الحق كما يتوهم المسلمون فيستخذون لآلهة العروش من الامراء ، مثــل ذلك الاستخذاء ، ولا يشعرون بما يشعر به غيرهم من الشعوب الذين حولوا قصور الامراء الى دور تنبعث عنها أشعة العلم والعدل بعد ان كانت هياكل للظلم ومواقد لنيران الاستبداد ترسل شواظها على البسيط ليأكل الخضراء واليابسة ويأتي على المال والولد ويذهب بكل اصول المجد والقوّة والحياة : فاللهم انا نعوذ بك من الخذلان ، ونسألك ان تلهم المســلم رشده ليطرح عنه رداء الهوان ، ولباس الجبن والخوف الذي ألبسه اياه طواغيت الامة وعباد السلطة القاهرة والملك المطاق الذي لا يكون الا حيث يسود الجهل وتفقــد كل بواعث الحياة .

﴿ باب ﴾

(ما رثي به عثمان)

اكثر الشعراء بعد قتل عثمان من رثائه فمن ذلك ما رثاه به حسان بن ثابت

أتركتمُ غزوَ الدُّرُوبِ وراءكم وغزوتمونا عند قبر محمد
فَلَبِئْسَ هَدْيُ المسلمين هُدِيتُمُ ولَبِئْسَ أَمْرُ الفَاجِرِ المتعمّدِ

في أبيات . وله ايضاً

إنْ تُمسِ دارُ بن أرْوَى منهُ خاويةً باب صريعٌ وَباب مُحرقٌ خَربُ
فقد يصادفُ باغي الخير حاجتَهُ فيها ويهوى اليها الذكر والحسَبُ
يا ايُّها الناس أَبدوا ذات انفُسِكمْ لايستوي الصدقُ عندالله والكذبُ
قوموا بحقّ مليكِ الناسِ تعترفوا بغارةٍ عُصَبٍ مِنْ خلفِها عُصَبُ
فيهم حبيبٌ شهابُ الموتِ يَقْدمهمْ مُستَلئما قد بدا في وجهه الغضبُ

وله غير هـذا أشعار كثيرة في رثاء عثمان . وممن رثاه ايضاً كعب بن مالك الانصاري وله في رثائه ابيات طويلة منها

يا للرجال للبِّك المخطوف ولدمعك المترقرقِ المنزوفِ
ويحٌ لأمرٍ قد أتاني رائع هدَّ الجبال فانقضت برجوف
قتلُ الخليفة كانَ أمراً مفظعاً قامت لذاك بليةَّ التخويف

وقال الوليد بن عقبة بن أبي معيط

ألاَ انَّ خير الناس بعد ثلاثةٍ قتيل التجيبي الذي جاء منْ مصر

في أبيات وقال الحباب بن يزيد المجاشعي

لعمر ابيك فلا تجزعن لقد ذهب الخيرُ الاَّ قليلا
لقد سفه الناسُ في دينهم وخلّى ابن عفان شراً طويلاً
أعاذل كلُّ امرئ هالك فسيري الى الله سيراً جميلاً

﴿ خطبة ابنته عائشة بعد قتله ﴾

قالت بعد ان حمدت الله وأثنت عليه : يا ثارات عثمان انَّا لله وانا

اليه راجمون أُفنيت نفسه ، وطل دمه في حرم رسول الله (ص) ومنع من دفنه اللهم ولو يشاء لامتنع ووجد من الله عزّ وجلّ حاكما . ومن المسلمين ناصراً . ومن المهاجرين شاهداً . حتى يفيء الى الحقّ من سدر عنه . أو تطيح هامات . وتفرى غلاصم . وتخاض دماء ولكن استوحش مما أنستم به . واستوخم ما استمرأتموه . يا من استحلّ حرم الله ورسوله واستباح حماه . لقد كره عثمان ما أقدمتم عليه . ولقد نقمتم عليه أقلّ مما أتيتم اليه . فراجع فلم تراجعوه ، واستقال فلم تقيلوه ،

رحمة الله عليك يا أبتاه احتسبت نفسك . وصبرت لامر ربك حتى لحقت به وهؤلاء الآن قد ظهر منهم تراوض الباطل واذكاء الشنآن . وكوامنُ الاحقاد . وادراك الاحن والاوتار . وبذلك وشيكا كان كيدهم وتبغيهم : وسعى بعضهم ببعض . فما أقالوا عاثراً . ولا استعتبوا مذنباً . حتى اتخذوا ذلك سبباً الى سفك الدماء . واباحة الحمى وجعلوا سبيلاً الى البأساء والعنت : فهل علنت كلمتكم وظهرت حسكتكم إذ ابن الخطاب قائم على رؤسكم ماثل في عرصاتكم يرعد ويبرق بارعا بكم . يقمعكم غير حذر من تراجعكم الامانيّ بينكم . وهلاّ نقمتم عليه عوداً وبدأً اذ ملَك وملك عليكم من ليس منكم بالخلق اللين والجسم الفصيل (كذا في الاصل) يسعى عليكم وينصب لكم لا تنكرون ذلك منه خوفاً من سطوته ، وحذراً من شدته ، ان يهتف بكم متقسوراً ، او يصرخ بكم متعذوراً . إن قال صدّقتم قالته ، وان سأل بذلتم سألته . يحكم في رقابكم واموالكم كأنكم عجائز صلع واماء قصع ، فبدأ مفلتاً لابن أبي قحافة بارث نبيكم على بعد رحمه وضيق يده ، وقلة عدده ، فوقى الله شرها زعم لله رده ما أعرفه ما صنع . أو لم

يخصم الانصار بقيس ثم حكم بالطاعة لمولى أبي حذافة . يتمايل بكم يميناً وشمالا ، قد خطب عقولكم ، واستمهر وجلكم ممتحنا ، لكم . ومعترفاً اخطاركم ، وهل تسمو هممكم الى منازعته . ولولا تيك لكان قسمه خسيساً ، وسعيه تعيساً ، لكن بدأ بالرأي وثنى بالقضاء . وثلث بالشورى . ثم غدا سامراً مسلطاً درته على عاتقه فتطأطأتم له تطأطؤ الحقة . ووليتموه ادباركم حتى علا اكتافكم فلم يزل ينعق بكم في كلّ مرتع . ويشدّد منكم على كل مخنق . لا ينبعث لكم هتافٌ . ولا يأتلق لكم شهاب . يهجم عليكم بالسراء ، ويتورط بالحوباء ، عرفتم او نكرتم لا تألمون ، ولا تستنطقون ، حتى اذا عاد الامر فيكم ولكم واليكم في مونقةٍ من العيش عرقها وشيج ، وفرعها عميم ، وظلها ظليل . تتناولون من كثب ثمارها أني شئتم رغداً . وحلبت عليكم عشار الارض دررا . واستمرأتم اكالكم من فوقكم ومن تحت أرجلكم من خصب غدق وامق شرق . تنامون في الخفض وتستلينون الدعة . ومقتم زبرجة الدنيا وحرجتها ، واستحليتم غضارتها ونضرتها ، وظننتم انّ ذلك سيأتيكم من كثب عفواً ، ويتحلب عليكم رسلاً ، فانتضيتم سيوفكم ، وكسرتم جفونكم ، وقد أبى الله انْ تشام سيوف جرّدت بغياً وظلماً . ونسيتم قول الله عزّ وجلّ (انّ الانسان خلق هلوعاً اذا مسه الشرُّ جزوعاً واذا مسه الخير منوعاً) فلا يهنئكم الظفرُ . ولا يستوطن بكم الظلم . الا على رجلين ، ولا ترن القوس الا على سيتين ، فاثبتوا على الفرز ارجلكم فقد ضللتم هداكم في المتيهة الخرقاء كما اضل ادحية الحسل . وسيعلم كيف تكون اذا كان الناس عباديد وقد نازعتكم الرجال . واعترضت عليكم الامور . وساورتكم الحروب بالليوث . وقارعتكم الايام بالجيوش . وحمي عليكم الوطيس . فيوماً تدعون من لا يجيب ويوماً

تجيبون من لا يدعو . وقد بسط باسطكم كلتا يديه يرى انهما في سبيل الله فيد مقبوضة . واخرى مقصورة . والرؤس تنزو عن الطلى والكواهل كما ينقف التنوم . فما أبعد نصر الله من الظالمين ، واستغفر الله مع المستغفرين اه (١)

(١) تفسير الالفاظ الواردة في هذه الخطبة

قولها طل دمه اي سفك وهدر . وقولها حتى يفيء الخ اي حتى يرجع اليه من ضل أو تحير . وقولها أو تطيح هامات اي تطير رؤوس . وتفري غلاصم اي تقطع حناجر واستوخم ما استمرأعوه اي ما استطبتموه ويقال للكلأ الطيب مريء غير وخيم . تراوض الباطل اي تجاذبه . واذكاء الشنآن من اذكى الناس أسعرها والشنآن البغض . كوامن الاحقاد خفيها . ادراك الاحن والاوتار اي العداوة والثأر . وشيكا كان كيدهم اي سريعاً . وجعلوا سبيلا الى الباساء والعنت اي الى الشدائد والفساد . علنت اي ظهرت . حسكتكم . الحسك نبات شائك وهو ايضاً العداوة والحقد . مائل في عرصاتكم المائل القائم والعرصات جمع عرصة وهي كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء . يقمعكم اي يضربكم بالمقمعة وهي عصا من خشب . متقسوراً أي متعززاً . متعذوراً اي ناجحاً . عجاز صام اي عجزة عن الحرب . واماء قصع اى بطيئات . غدا سامراً مسلطا درته الخ تريد انه كان لشدته عليهم يسهر الليل وعصاه على كتفه لمراقبة الناس . والحقة الناقة الرباعية . ينعق بكم في كل مرتع اي يصيح بكم في كل مكان والمرتع موضع الرتع او الخصب . لا ينبعث لكم هتاف اي لا يخرج لكم صوت . ولا يأتلق لكم شهاب اي لا يلمع ولا يظهر . يتورط بالحوباء التورط الوقوع والحوباء النفس اي يقع بكم ضرباً وشتماً كيف شاء فلا تجسرون على التكلم . في موثقة من العيش عرقها وشيج الخ اي في مورقة متشابكة العروق وهو كناية عن السعة والراحة والتمتع بطيب العيش . تتناولون من كثب اي من قرب . وحلبت عليكم عشار الارض درراً العشار النوق المنتجة ولعله كناية عن اقبال الخير عليهم وخصب الارض لهم . غدق وامن شرق هكذا بالاصل ولا نفهم . ومقتم زبرجة الدنيا وحرجتها اي احببتم زينة الدنيا والحرج محركة مجتمع الشجر أو الغيضة . ان تشام سيوف اى تسل . القرز ما اطمأن من الارض والمتيهة الارض المضلة . والخرقاء الواسعة . كما اضل ادحية الحسل (كذا) والعباديد الفرق . والرؤس تنزو عن الطلى اي تثب عن الاعناق . كما ينقف التنوم . النقف ضرب الشيء بالظفر والتنوم نوع من الشجر

﴿ خطبة زوجته نائلة بنت الفرافصة ﴾

(قالت بعد ان حمدت الله واثنيت عليه) عثمان ذو النورين قتل مظلوماً بينكم بعد الاعتذار وان اعطاكم العتبى [1] . معاشر المؤمنة واهل الملة لا تستنكروا مقامي ، ولا تستكثروا كلامي ، فاني حرّى [2] عبرى [3] رزئت جليلا . وتذوّقت [4] ثكلاً من عثمان بن عفان ثالث الاركان ، من اصحاب رسول الله (ص) في الفضل عند تراجع الناس في الشورى يوم الارشاد . فكان الطيب المرتضى المختار حتى لم يتقدمه متقدم ، ولم يشك في فضله متأثّم ، القوا اليه الازمة وخلوه والامة ، حين عرفوا له حقه ، وحمدوا مذهبه وصدقه ، فكان واحدهم غير مدافع ، وخيرتهم غير منازع ، لا ينكر له حسن الغناء ، ولا عنه سماح النعماء ، اذ وصل اجنحة المسلمين حين نهضوا ، الى رؤوس ائمة الكفر حيث ركضوا ، فقلدوه الامور ، اذ لم يكن فيهم له نظير ، فسلك بهم سبيل الهدى ، وبالنبي وصاحبيه اقتدى ، مخسئاً للشيطان الى مداحره ، مقصيا للعدوان الى مزاجره ، تنقشع منه الطواغيت ، وتزايل عنه المصاليت ، [5] حتى امتد له الدين . واتصل له السبيل المستقيم . ولحق الكفر بالاطراف ، قليل الالاف والاحلاف ، فتركه حين لا خير في الاسلام في افتتاح البلاد ، ولا راي لاهله في تجهيز البعوث ، فاقام يمدكم بالرأي . ويعنكم بالادنى

---

(١) العتبى الرجوع عن الاساءة الى ما يرضي العاتب (٢) عطشى (٣) من العبرة وهو تردد البكاء في الصدر (٤) تذوقت اي زقت مرة بعد مرة والثكل فقدان الحبيب (٥) المصاليت رجل مصلت اذا كان ماضياً في الامور وهو من مصاليت الرجال

يصفح عن مسيئكم في اساءته . ويقبل من محسنكم باحسانه ويكافئكم بماله . ضعيف الانتصار منكم . قويّ . المعونة لكم . فاستلتم عريكته حين منحكم محبته . وأجرركم أرسانكم [1] ، آمناً جرأتكم وعدوانكم ، فأراهكموه الحق اخوانا . وأرا كموه الباطل شيطانا ، في عقب سيرة من رأيتموه فظاً . وعددتموه غليظاً . فهدكم منه بالقمع . وطاعتكم اياه على الجدع يماملكم الجبه (كذا في الاصل) ويتخونكم بالضرب . وكان والله أعلم بادابكم ومصالحكم . فلله هو كان قد نظر في ضمائركم . وعرف اعلانكم وسرائركم . فحين فقدتم سطوته . وامنتم بطشته . ورأيتم ان الطرق قد انشعبت لكم . والسبل قد اتصلت بكم . ظننتم ان الله يصلح عمل المفسدين فعدوتم عدوة الاعداء ، وشددتم شدّة السفهاء ، على التقي النقي الخفيف بكتاب الله عزّ وجلّ اساناً ، الثقيل عند الله ميزاناً ، فسفكتم دمه ، وانتهكتم حرمه ، واستحللتم منه الحُرَم الاربع . حرمةَ الاسلام . وحرمةَ الخلافة . وحرمة الشهر الحرام . وحرمة البلد الحرام . فليعلمنّ الذين سعوا في امره . ودبوّا [2] في قتله ومنعونا من دفنه اللهم انّ بئس للظالمين بدلاً وانهم شرٌّ مكاناً وأضعف جنداً . لتتعبدنكم الشبهات ، ولتفرقنّ بكم الطرقات ، ولتذكرن بعدها عثمان ولا عثمان . وكيف يسخط الله من بعده . وأين كنتم كعثمان ذي النورين منفس الكرب زوج

---

(١) اى خلاكم كما تشاؤن والمعنى انها اخبرت عن مسامحته وتركه التضييق عليهم (فهدكم منه بالقمع) هذه ضعضعه واذله والقمع والقهر والمعنى انه خوفكم منه بالقهر والغلبة وطاعتكم اياه على الجدع اي الهوان والصغار (٢) دبوا مشوا على هينتهم

ابنتي رسول الله (ص) وصاحب المربد [١] ورومة. هيهات والله ما مثله بموجود، ولا مثل فعله بمعدود، ياهؤلاء انكم في فتنة عمياء صماء طباق السماء ممتدة الجران [٢] شوهاء العيان في كثير من الامر. قد توزع كل ذي حق حقه. ويئس من كل خير خير أهله. فلهوات الشر فاغرة [٣] وانياب السوء كاشرة. وعيون الباطل خُزْر [٤] واهلوه شزر [٥] ولئن نكرتم أمر عثمان. وبشعتم الدعة [٦] لتنكرنّ غير ذلك من غيره حين لا ينفعكم عتاب، ولا يسمع منكم استعتاب،

ثم اقبلت بوجهها على قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: اللهم اشهد اه:

باب

ما قيل في سبب الفتنة وقتلة عثمان والاعتذار عنه

(وما قاله بعض الصحابة وأهل السنة)

رأيت كيف ان الصحابة أكبروا قتل عثمان حتى اعتدوا قتلته ظالمين فنهض للطلب بدمه طلحة والزبير وعائشة واحزابهم ومعاوية وحزبه وانكر عليٌّ قتله ولعن قاتليه ونزيد هنا ما قاله بعض الصحابة ومنهم سعيد بن زيد أحد العشرة قال. لو ان أحداً انقض للذي صنعتموه بعثمان لكان محقوقاً ان ينقض (اخرجه البخاري) وعن عبد الله بن سلام قال. لقد فتح الناس

---

(١) المربد موضع قرب المدينة ورومة بئر بالمدينة (٢) الجران مقدم العنق
(٣) اللهات اللحمة المشرفة على الحلق وفاغرة من فغر فوه وانفتح (٤) الخزر النظر بلحظ العين (٥) الشزر الشدة والصعوبة (٦) الدعة سعة العيش

على انفسهم بقتل عثمان باب فتنة لا يغلق عنهم الى قيام الساعة « اخرجه ابو عمر » وعن ابن عباس قال : لو اجتمع الناس على قتل عثمان لرموا بالحجارة من السماء (اخرجه الحاكم) وقال مثل قولهم كثير من الصحابة وكلهم مجمعون على انّ عثمان قتل ظلماً وانّ الاحداث التي كانت على عهده لا تستوجب القتل هذا اذا صح ان كل ما انكر على عثمان رضي الله عنه احداث يؤاخذ عليها وللمتكلمين في براءة عثمان وتعدي قاتليه كلام طويل وتفصيل يرجع اليه ومنهم ابن حزم فقد اطال بهذا الصدد فى الملل والنحل وخلاصة قوله اجماع أهل السنة على بغي المحاربين لعثمان وانه ليس فى عمله ما يستوجب القتل وللجماعة غيره من العلماء كلام طويل فى الاعتذار عن عثمان « منهم » حافظ الحجاز المحب الطبري فقد فتح باباً مخصوصاً فى كتابه « الرياض النضرة فى فضائل العشرة » رد فيه على من قال بصحة الاحداث التي نسبت الى عثمان « ومنهم » محمد بن يحي الاشعري المعروف بابن بكر فتح باباً مثله فى كتابه « التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان » [1] استوفى فيه الكلام على ما نسب الى عثمان من الاحداث و بين كل ما يمكن الاعتذار عنه من تلك الاحداث فاحببت ان انقل هذا الفصل هنا برمته اتماماً للفائدة قال

اعلم رحمك الله ان الرافضة والملحدة قد طعنوا على عثمان وتعلقوا عليه باشياء فعلها لا يثبت لهم عليه بها حجة قد ذكرنا اكثرها فيما مضى ونذكر الان منها طرفاً ونذكر الجواب عنها بحسب الامكان فنقول (فان قيل) فان ابن مسعود أنكر على عثمان فى أمر المصاحف وتحريقها : فالجواب : انّ ابن مسعود دونه في الفضل والمرتبة فكان عثمان أعلم بما فعل ولأن الرجل كان يقول للرجل قراءتنا خير من قرآتك فأزال عثمان هذا وجمعهم على شيء واحد وكان قد ولى زيد بن

(١) هذان الكتابان موجودان بالكتبخانة الخديوية المصرية وهما بخط اليد

ثابت أمر المصاحف ولو كان ذلك متوجهاً الى عثمان لكان ذلك طعناً على من قبله من الصحابة وقد روى ان عليا قال : عن ملاء منا أصحاب رسول الله فعل عثمان : ولو كان منكراً لكان علي قد غيره لما صار الامر اليه فلما لم يغيره علم ان عثمان كان مصيبا فيما فعل (فان قيل) انه اعتدى بتوليه الوليد بن عقبة وانه سكر فصلى بهم الفجر ركعتين ثم التفت فقال ازيدكم : فالجواب : انه قد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الناس على الصدقة فسق فأنزل الله (ان جاءكم فاسق بنباء) الآية فليس يلحق عثمان الا ما لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم . وولى عمر بن الخطاب قدامة بن مظعون البحرين فشرب الخمر متأولا فجلده عمر وقدامة بدري من اولي السابقة والفضل وكذلك عثمان وولى علي المختار بن ابي عبيد المدائن فاتاه بصرة فقال هذه من اجور المومسات : فقال علي (رض) قاتله الله لو شق عن قلبه لوجد فيه حب اللات والعزى وهو افسق من الوليد : فاخذ المختار المال ولحق بمعاوية . وكان علي يلقى من ولاته وعماله الامر الشديد فكان يقول وليت فلانا فاخذ المال ووليت فلانا فخانني الى غير ذلك ذكر هذا ابو نعيم في كتاب الامة (فان قيل) فقد أنكر ابن مسعود وأبو ذر اتمام عثمان الصلاة بمنى وانه صلى اربعا : فالجواب : انه قد اعتذر عن ذلك وقال ذاك رأى رأيته ثم لو كان فعله خلاف الحق لما تبعاه ووافقاه فقيل لهما في ذلك فقالا الخلاف شر . وقد روى جماعة من الصحابة اتمام الصلاة في السفر منهم عائشة وسلمان واربعة عشر من الصحابة . والذي حمل عثمان على اتمام الصلاة انه بلغه ان قوما من الاعراب شهدوا الصلاة معه بمنى . فرجعوا الى قومهم فقالوا الصلاة ركعتان كذلك صليناها مع عثمان بمنى . فلأجل ذلك صلاها اربعاً ليعلمهم ما بنوا به الخلاف والاشتباه . وكذلك فعل عمر في أمر الحج وان يجمعوا بين الحج والعمرة في أشهر الحج وخالفه ابنه عبد الله وقال سنة رسول الله أحق ان تتبع وتابعه أبو موسى وجماعة من الصحابة على ترك الجمع بين الحج والعمرة مع علمهم بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم واقامته على الاحرام حتى دخل مكة معتمراً حتى فرغ من المناسك ولم ينكروا ذلك على عمر ولو كان انكاراً لما تابعوه على رأيه (فان قيل) انه اعطى من مال الصدقة ووفرا قرباءه فالجواب : ان عثمان أعلم ممن أنكر عليه والامام اذا رأى المصلحة في فعل شيء فعله فلا يكون انكار من جهل المصلحة في ذلك حجة على من عرفها فانه لا يخلو زمان من قوم يجهلون وينكرون الحق من حيث لا يعرفون

فقد فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم خيبر في المؤلفة قلوبهم يوم الجعرانة وترك الانصار لما رأى في ذلك من المصلحة حتى قالوا : تقسم غنائمنا في الناس وسيوفنا تقطر من دمائهم . وجهلوا ما رآه النبي عليه السلام من المصلحة وذلك أعظم مما فعله عثمان لان مال المؤلفة من الغنيمة فلا يلزم عثمان من انكار من انكر عليه الا ما لزم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى المصلحة فيما فعل اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم (فان قيل) الذي اعطى رسول الله كان من الخمس قيل له لو كان من الخمس لما أنكرت الانصار ذلك ولما قالت غنائمنا . ولقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم انما أعطيتهم من مال الله الا تراه استمال قلوبهم بقوله: الا ترضون ان يذهب الناس بالاموال وتذهبون برسول الله الى بيوتكم : قالوا رضينا . والحديث مشهور (فان قيل) ان عثمان ضرب عماراً قيل هذا لا يثبت ولو ثبت فان للامام ان يؤدب بعض رعيته بما يراه وان كان خطأ الا ترى ان النبي عليه السلام اقصّ من نفسه واقاد وكذلك أبو بكر وعمر أدبا رعيتهما باللطم والدرة وأقادا من أنفسهما وذلك لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بطن رجل بخشبة فجرحه فوقع قميصه وقال تعالى . فاقتص : فعفا عنه . وجاء رجل الى أبي بكر يستحمله فلطمه فأنكر ذلك الناس فقال أبو بكر انه استحملني (١) فحملته فبلغني انه باعه . ثم قال له دونك فاستقد فعفا عنه . وضرب عمر جارية لسعد بالدرة فساء ذلك سعدا فناوله عمر الدرة وقال له اقتص فعفا (فان قيل) عثمان لم يقد من نفسه قيل له كيف ذلك وقد بذل من نفسه ما لم يبذله أحد خصوصاً يوم الدار فانه قال يا قوم ان وجدتم في كتاب الله ان تضعوا رجلي في قيد فضعوها وقد ذكرنا ان عماراً تقاذف هو ورجل آخر فجلدهما عثمان حد القذف (فان قيل) اعطى عثمان من بيت المال من ليس له فيه حق . قيل لا يثبت ذلك عنه وكيف تقبل هذا وعثمان من أكثر الناس مالاً وأكثرهم عطية ومعروفاً مع ان العصر لا يخلو من جهال يقولون ما لا يعلمون فقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً فقال له رجل : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله : فبلغ ذلك النبي عليه السلام فغضب ثم قال (رحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من ذلك فصبر) وقسم يوم حنين تبراً فقال له رجل اعدل يا محمد . فقال له (ويحك ومن يعدل اذا لم اعدل) فهذا رسول الله كان يلقى من

---

(١) قوله استحملني اي طلب ان احمله على دابة

الجهال هذا فكيف بعثمان (رض) (فان قيل) انه ولى اقواماً لا يستحقون الولاية منهم الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص وعبدالله بن عامر وغيرهم: قيل: فمن اين لكم ان هؤلاء لم يعدلوا ولئن جاز لكم ادعاء الفسق في ولاة عثمان لجاز ذلك في ولاة عمر. فقد ولى المغيرة البصرة فرمى بما لا يثبت. وولى ابا هريرة البحرين فقالوا خان مال الله وولى قدامة البحرين فشرب الخمر متأولا. وولي علي الاشتر وامره ظاهر وولى بن مخنف فاخذ المال وهرب. فلم خصصتم عثمان بالطعن مع ان النبي صلى الله عليه وسلم ولى زيد ابن حارثة فطعن الناس فيه حتى قام خطيباً منكراً عليهم فيما طعنوا فيه وقالوا فيه وفي اسامة ابنه والحديث مشهور. وانما طعن الناس على عثمان للينه وحيائه وكثر في ايامه من لم يصحب النبي عليه السلام ومن جهل فضل الصحابة (فان قيل) فقد نفى أبا ذر الى الربذة فرداً: قيل لم يكن ذلك نفياً وانما كان ذلك تخييراً له لانه كان كثير الخشونة لم يكن يداري من الناس ما يداري غيره تخيره عثمان بعد استئذانه في الخروج من المدينة فاختار الربذة ليبعد عن الناس ومعاشرتهم وذلك انه كان بالشام تجرى بينه وبين معاوية مناظرة في هذه الآية (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله) فقال معاوية هي في أهل الكتاب وقال أبو ذر هي فيهم وفينا فكتب معاوية الى عثمان في ذلك فكتب الى أبي ذر أن اقدم علي قال فقدمت عليه فانثال علي الناس كأنهم لم يعرفوني فشكا ذلك الى عثمان (رض) واستأذنه في الخروج من المدينة فخيره فاختار نزول الربذة لما يلقى من الناس واجتماعهم عليه خوف الافتتان بهم هذا هو الصحيح. فأما الرافضة فيضعون عليه أشياء لا أصل لها. فان جعل اشخاص أبي ذر من الشام وحبسه بالمدينة طعناً على عثمان: قيل: الائمة اذا خشوا الفتنة والاختلاف فلهم أن يبادروا الى حسمه وقد فعل عمر مثل ذلك حبس جماعة من الصحابة عنده بالمدينة لاجل أحاديث حدثوها الناس ومنعهم من الخروج ومنعهم من لبس أشياء كانت مباحة خوفاً أن يتأسى بهم من لا علم له ولا ورع عنده فيرتكب بذلك ما ليس له مع ان للامام أن ينفي أقواماً اذا خاف الافتتان بهم. فقد روي ان عمر بن الخطاب نفى نصر بن حجاج لما خاف أن يفتتن به النساء لحسن صورته وقصته مع أم الحجاج بن يوسف مشهورة وشعرها فيه

هل من سبيل الى خمر فأشربها أم هل سبيل الى نصر بن حجاج

ونفى عليّ (رض) النعمان عن ملأ من الصحابة ونفى حسان أيضاً والله أعلم

(فان قيل) ان جماعة وافقوا على حصره وقتله فقد روي أن حذيفة وعمارا قالا

قتلاه كافراً وان طلحة فيمن حضره وان علياً أعان على قتله وان الناس خذلوه وأسلموه الى غير ذلك من الامور : قيل : هذا لايصح عن حذيفة[١] وانما المنقول عنه خلاف ذلك وانما هذا من كلام الرافضة وان نقل ذلك فلانه لايخلو أحد من الصحابة من حاسد وممن يبغضه فكيف بعثمان وهو من أهل السابقة والفضل والكمال والطعن على عثمان طعن على من تقدمه . وأما طلحة فانه كان يقول يوم الجمل اللهم خذ لعثمان مني حتى ترضى . وأما علي فانه قال غير مرة . اللهم اني أبرأ اليك من دم عثمان . وقال والله ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله . ولما بلغه قتله قال . اللهم اني لم أرض بقتله ولم آمر به . وقال فيه كان عثمان : من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين : وسئلت عائشة عن عثمان فقالت : قتل مظلوماً لعن الله قاتله اقاد الله من ابن أبي بكر وساق الله الى أعز بني تميم هواناً واهراق الله دماء بني بديل وساق الله الى الاشتر سهماً من سهامه : فوالله ما من القوم أحد الا أصابته دعوتها . وأما ترك الصحابة الانكار على من حصره فلقد ناصحوا عنه ولم يظنوا أن الأمر يبلغ الى قتله وانما ظنوا أنها تكون معتبة . ومع ذلك فان عثمان كان يعزم عليهم ليكفوا عن القتال ولقد أنكروا وبالغوا في الانكار منهم علي و زيد بن ثابت وعبدالله بن سلام وابن عمر وأبو هريرة والمغيرة والزبير وابن عامر وحمل الحسن بن علي يومئذ جريحاً ولبس ابن الزبير الدرع مرتين رضي الله عنهم : وعن ابن عون لقد قتل عثمان وان في الدار لسبعمائة رجل منهم الحسن وابن الزبير ولو أذن لهم لضربوهم حتى أخرجوهم من المدينة : وأما طلحة فانه انصرف ولم يكن فيمن حصره كيف وهو يلعن قاتله مع عائشة صباحاً ومساء وكان هو والزبير وعائشة ومعاوية يطلبون بدمه فكيف يعينون عليه و يطلبون بدمه هذا خلف . ومع هذا فينبغي الكف عما شجر بين الصحابة والاستغفار لهم والامساك عما نسب اليهم من الرذائل وكذلك تباع الانبياء انما يذكر محاسنهم التي مدحوا عليها و يمسك عما سواه (فان قيل) ان عثمان حمى الحمى ومنع منه الناس قيل روي ان المصريين جاؤا الى عثمان فقالوا . ادع بالمصحف فدعا به فتحوا صورة

(١) الصواب انه محمد بن أبي حذيفة وان صح ان الرافضة قالوا انه حذيفة فيكون ذلك افتئات ظاهر منهم وتحريف مقصود لان حذيفة من القائلين بتولي عثمان وممن لعن قاتليه كما رأيته فيما سبق من هذا الكتاب

يونس وقرأ هــذه الآية (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حــراماً وحلالا) الآية فقالوا له أرأيت ماحميت من الحمى الله أذن لك أم على الله تفتري: فقال هذه الآية نزلت في كذا وكذا وأما الحمى فقد حمى الائمة قبلي لابل الصدقة فلما زادت ابل الصــدقة زدت في الحمى فجعلوا لا يأخذونه بآية الا قال نزلت في كذا وكذا حتى أخذ عليهم ان لايشقوا عصا المسلمين فأقبلوا راجعين الى بلادهم راضين فرأوا في الطريق غلاماً معه كتاب فرجعوا اليه فقــال اني لم آمر به ولا شعرت به فحصروه باغين عليه ظالمين له وقد حمى النبي صلى الله عليه وسلم نقيع الخضمات لخيل المسلمين وقال البخاري. بلغنا ان النبي عليه السلام حمى النقيع وحمى عمر السرف والربذة واستعمل على الحمى مولى له يدعى هنياً فلم يثبت على عثمان ذنب ولو ثبت لما استحق بذلك القتل وانتهاك الحريم وشق العصا وتفريق الجماعة ولكن الله اكرمه بالشهادة والحقه بالنبي عليه السلام وصاحبيه في الجنة حافظاً لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلع القميص وحظى قاتلوه بالخزي واللعنة وانتهاك حرمة المدينة في الشهر الحرام (فان قيل) فقد رويتم عن النبي صلى الله عليه وسلم انه ذكر فتنة تكون بعده وقال في عثمان فاتبعوا هذا واصحابه فانهم على هــدى فاخبرنا من اصحابه : قيل اصحابه اصحاب رسول الله المشهود لهم بالجنة المذكور بعضهم في التوارة والانجيل الذين من احبهم سعد ومن ابغضهم شقي مثل علي بن أبي طالب وطلحة والزبير وسعد وسعيد وغيرهم من الصحابة ممن كان في وقتهم فانهم كلهم كانوا علي هدى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم وكلهم انكر قتله وكلهم استعظم ماجرى على عثمان وشهدوا على قتلته انهم في الدار وهم الذين تجمعوا وألبوا عليه مثل عبد الله ابن سبأ واصحابه الذين اشقاهم الله بقتله حســداً منهم له وبغياً عليه وارادة الفتنة وان يوقعوا الضغائن بين أمة محمد صلى الله عليه وسلم لما سبق عليهم من الشقاء في الدنيا وما لهم في الآخرة من العذاب الاليم فاجتهد الصحابة في نصرته والذب عنه وبذلوا أنفسهم دونه فأمرهم بالكف عن القتال وقال اني أحب ان القى الله سالمــاً مظلوماً ولو أذن لهم لقاتلوا عنه قال . ابن سيرين كان معه في الدار جماعة من المهاجرين والانصار وابنائهم فقالوا يا أمير المؤمنين خلّ بيننا وبينهم . فعزم عليهم ان يقاتلوا (فان قيل) فقد علموا انه مظلوم وقد أشرف على الهلاك فكان ينبغي عليهم ان يقاتلوا عنه وينصرونه وان كان قد منعهم : قيل : ان القوم كانوا أهــل طاعة لامامهم وقد وفقهم الله تعالى للصواب من القول والعمل وقد فعلوا ما يجب

عليهم من الانكار بقلوبهم وألسنتهم وعرضهم لنصرته على حسب طاقتهم فلما منعهم من نصرته علموا ان الواجب عليهم السمع والطاعة له ولا يسعهم مخالفته وكان الحق عندهم فيما رآه عثمان (فان قيل) فلم منعهم عن نصرته وهو مظلوم وقد علم ان قتالهم عنه نهي عن المنكر واقامته حق يقيمونه : فالجواب : ان منعه اياهم يحتمل وجوها كلها محمودة : احداها : علمه بانه مقتول مظلوم لا شك فيه لان النبي عليه السلام قد أعلمه انه يقتل مظلوماً وأمره بالصبر : فقال اصبر : فلما أحاطوا به تحقق انه مقتول وان الذي قاله النبي عليه السلام له حق لا بد ان يكون ثم علم انه قد وعد من نفسه الصبر فصبر كما وعد وكان عنده من طلب الانتصار لنفسه والذب عنها فاذا رضي فليس هذا بصابر اذ وعده من نفسه الصبر : الوجه الثاني : انه كان قد علم ان في الصحابة قلة عدد وان الذين يريدون قتله كثير عددهم فلو اذن لهم بالقتال لم يأمن ان يتلف من أصحاب النبي عليه السلام بسببه فوقاهم بنفسه اشفاقاً منه عليهم لأنه راع عليهم والراعي يجب عليه ان يحفظ رعيته بكل ما امكنه ومع ذلك فقد علم انه مقتول فصانهم بنفسه : الوجه الثالث : انه لما علم انها فتنة وان الفتنة اذا سلَّ فيها السيف لم يؤمن ان يقتل فيها من لا يستحق القتل فلم يختر لأصحابه أن يسلوا السيف في الفتنة اشفاقاً عليهم من ثم تذهب فيها الاموال وتهتك فيها الحريم فصانهم عن جميع هذا : ووجه رابع : وهو انه يحتمل ان يكون صبر عن الانتصار لتكون الصحابة شهوداً على من ظلمه وخالف أمره وسفك دمه بغير حق لان المؤمنين شهداء الله في ارضه ومع ذلك فلم يحب أن يهراق بسببه دم مسلم ولا يخلف النبي صلى الله عليه وسلم في امته بسفك دم رجل مسلم فكان عثمان بهذا الفعل موفقاً معذوراً رشيداً مجبوراً وكان الصحابة في عذر وشقي قاتله وخاذله والله أعلم اهـ

﴿ ما قاله المعتزلة ﴾

وللمعتزلة ايضاً كلام طويل فى الدفع عن عثمان بلغ الغاية من الاعتدال والتعقل شأنهم في مثل هذه المباحث وقد اورد ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة فصلا بهذا الصدد نقله عن قاضي القضاة من شيوخ المعتزلة رأينا تلخيصه هنا اتماماً للفائدة قال ابن ابي الحديد عند شرحه لكلام قاله

عليّ في شأن الاحداث لما اشار عليه اصحابه بمجاراة أهل الشام

ويجب ان نقول ههنا احداثه وما يقوله اصحابنا في تأويلها وما تكلم به المرتضى في كتاب الشافي في هذا المعنى فنقول . ان قاضي القضاة قال في المغني قبل الكلام في تفصيل هـذه الاحداث كلاما مجملا معناه ان كل من ثبتت عدالته ووجوب توليه اما على القطع واما على الظن فغير جائز ان يعدل فيه عن هذه الطريقة الا بامر متيقن يقتضي العدول عنها .

ثم استطرد في هـذه المقدمة الى لزوم تولي عثمان وتعظيمه وحمل ما نسب اليه من الاحداث على حسن النية لما لعثمان « رض » من المزايا التي توجب احسان الظن به وان ما نسب اليه من الامور كلها محتمل فاجدر بمثله ان تحمل اعماله على الوجه الصحيح في مقدمة طويلة لا تخرج عن هذا المعنى الى ان قال

وقد طعن الطاعنون فيه «يعني في عثمان» بامور متنوعة مختلفة ونحن نقدم على تلك المطاعن كلاما مجملا يبين بطلانها على الجملة ثم نتكلم على تفصيلها وذلك ان شيخنا ابا علي قد قال. لو كانت هذه الاحداث مما يوجب طعنا على الحقيقة لوجب من الوقت الذي ظهر ذلك من حاله ان يطلب المسلمون رجلا ينصب للامامة وان يكون ظهور ذلك عن عثمان كموته . فانه لا خلاف انه متى ظهر من الامام مايوجب خلعه ان الواجب على المسلمين اقامة امام سواه. فلما علمنا ان طلبهم لاقامة امام انما كان بعد قتله ولم يكن من قبل والتمكن قائم . علمنا بطلان ما أضيف اليه من الاحداث . وليس لاحد ان يقول انهم لم يتمكنوا من ذلك لان المتعالم من حالهم انهم حصروه ومنعوه من التمكن من نفسه ومن التصرف في سلطانه خصوصا والخصوم يدعون ان الجميع كانوا على قول واحد في خلعه والبراءة منـه . ومعلوم من هـذه الاحداث انها لم تحصل اجمع في الايام التي حوصر فيهـا بل كانت تحصل من قبل حالا بعد حال فلو ذلك يوجب الخلع والبراءة لما تأخر من المسلمين الانكار عليـه ولكان كبار الصحابة المقيمون بالمدينة اولى بذلك من الواردين من البلاد لان أهل العلم والفضل بانكار ذلك احق من غيرهم فقـد كان يجب على طريقتهم ان تحصـل البراءة والخلع من اول الوقت الذي حصل منـه ما اوجب

ذلك وان لا ينتظر حصول غيره من الاحداث لانه لو وجب انتظار ذلك لم ينتـه الى حد الا و ينتظر غيره . ثم ذكر ان امساكهم عن ذلك اذا تيقنوا الاحداث منه يوجب نسـبة الجميع الى الخطا والضلال ولا يمكنهم ان يقولوا ان علمهم بذلك انما حصل في الوقت الذي حصر ومنع لان من جملة الاحداث التي يذكرونها ما تقدم هذه الحال بل كلها أو جلها تقدم هذا الوقت وانما يمكنهم ان يتعلقوا فيما حدث في هـذا الوقت بما يذكرونه من حديث الكتاب النافذ الى ابن ابي سرح بالقتل. وما اوجب كون ذلك حدثاً يوجب كون غيره حدثا فكان يجب ان يفعلوا ذلك من قبل . واحتمال المتقدم للتأويل كاحتمال المتأخر . و بعد فليس يخلو من ان يدّعوا ان طلب الخلع وقع من كل الأمة او من بعضهم فاذا ادعوا ذلك في بعض الأمـة فقد علمنا ان الامامة اذا ثبتت بالاجماع لم يجز ابطالها بلا خلاف لان الخطأ جائز على بعض الامة . واذا ادعوا في ذلك الاجماع لم يصح لان من جملة أهل الاجماع عثمان ومن كان ينصره ولا يمكن اخراجه من الاجماع بان يقال انه كان على باطل لان بالاجماع لم يتوصل الى ذلك ولم يثبت . على انّ الظاهر من حال الصحابة انها كانت بين فريقين : اما من ينصره : فقد روي عن زيد بن ثابت انه قال لعثمان ومن معه من الانصار . ائذن لنا بنصرك . و روي مثل ذلك عن ابن عمر وأبي هريرة والمغيرة ابن شعبة . والباقون ممتنعون انتظاراً لزوال العارض الا انه لو ضيق عليهم الامر في الدفع ما قعدوا بل المتعالم من حالهم ذلك . قال ثم ذكر ما روي من انفاذ امـير المؤمنين الحسن والحسين وانه لما قتل عثمان لامهما على وصول القوم اليـه ظنا منه انهما قصرا وذكر ان اصحاب الحديث يروون عن النبي « ص » انه قال : سيكون فتنة واختلاف وان عثمان واصحابه يومئذ على الهدى : وما روي عن عائشة من قولها. قتل والله مظلوما . قال ولا يمتنع ان يتعلق باخبـار الاحاديث في ذلك لانه ليس هنـاك امر ظاهر يدفعه . نحو دعواهم ان جميع الصحابة كانوا عليه. لان ذلك دعوى منهم وان كان فيه رواية من جهة الآحاد واذا تعارضت الروايات سقطت ووجب الرجوع الى ما يثبت من احواله السليمة ووجوب توليه ولا يجوز ان يعـدل عن تعظيمه وصحة امامته بامور محتملة فلا شيء مما ذكروه الا ويحتمل الوجه الصحيح. قال ثم ذكر ان للامام ان يجتهد رأيه في الامور المنوطة به و يعمل فيه على غالب ظنه وقد يكون مصيبا وان افضت الى عاقبة مذمومة اه

هذا ما نقله ابن ابي الحديد عن قاضي القضاة اجمالا فيما يتعلق بالدفع عن عثمان

وقد أورد بعده ما اعترض به عليه المرتضى من ائمة الشيعة وليس من غرض كتابنا ايراد اعتراضه ومن اراد الاطلاع عليه فليراجعه في شرح نهج البلاغة

﴿ ما قاله ابن خلدون ﴾
﴿ في سبب القيام على عثمان ﴾

لما تكلم ابن خلدون على بدأ الانتقاض على عثمان افتتح الكلام بمقدمة صغيرة لا تخلو من فائدة فيما يراه من سبب تجني العرب وقيامهم على عثمان ولو أطال لا بدع في المقال ولكن تقيد بما تقيد به المؤرخون واليك ما قاله في ذلك

لما استكمل الفتح واستكمل الملة الملك ونزل العرب بالامصار في حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر وكان المختصون بصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم والاقتداء بهديه وآدابه المهاجرين والانصار من قريش وأهل الحجاز ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم . واما سائر العرب من بني بكر بن وائل وعبد القيس وسائر ربيعة والازد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم فلم يكونوا من تلك الصحبة بمكان الا قليلا منهم وكانت لهم في الفتوحات قدم فكانوا يرون ذلك لانفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة ومعرفة حقهم وما كانوا فيه من الذهول والدهش لامر النبوّة وتردد الوحي وتنزل الملائكة فلما انحسر ذلك العباب وتنوسي الحال بعض الشيء وذل العدوّ واستفحل الملك كانت عروق الجاهلية تنفض ووجدوا الرياسة عليهم للمجاهدين والانصار من قريش وسواهم فانفت نفوسهم منه ووافق ايام عثمان فكانوا يظهرون الطعن في ولاته بالامصار والمؤاخذة لهم باللحظات والخطرات والاستبطاء عليهم في الطاعات والتجني بسؤال الاستبدال منهم والعزل ويفيضون في النكير على عثمان وفشت المقالة في ذلك في اتباعهم وتنادوا بالظلم من الامراء في جهاتهم وانتهت الاخبار بذلك الى الصحابة بالمدينة فارتابوا لها وأفاضوا في عزل عثمان وحمله على عزل امرائه وبعث الى الامصار من يأتيه بصحيح الخبر:

ثم دخل في اخبار الفتنة مما تقدم شرحه والمقصود هنا هذه المقدمة التي قدمها قبل الكلام على الفتنة ويشير فيها الى بعض الاسباب

﴿ رأي لاحد العلماء في الفتنة ﴾

وسألت مرة صديقي العالم الفاضل السيد عبد الحميد افندي الزهراوي الحمصي رأيه في هذه الفتنة لما اعهده فيه من الاضطلاع وبعد النظر فاجابني حفظه الله ونفع بعلمه بالجواب الآتي يتكلم فيه على عموم الفتنة اي ما كان في عهد عثمان وبعده كلاماً اجمالياً جامعاً في مقدماته العالية لما يلزم محبي التاريخ الاطلاع عليه قال

﴿ ما جرى بين الصحابة ﴾

انّ الشيع التي قامت في أواخر الثلث الاول من القرن الاول قد غبي على أكثر المؤرخين امرها ولذلك دخل في سيرتهم شيءٌ من الاضطراب حتى آل الامر الى كراهية فريق من الناس لقراءة التاريخ وقول فريق آخر «لانخوض فيما جرى بين الصحابة » ثم آل الأمر حتى صار هذا القول مسطوراً فيما يعتقده المحمديّ مع انّ هذه حادثة تاريخية ليست من العقائد في شيءٍ . وعندي انه يضر الجهل بهذه الحادثة التي هي الحلقات الأول لسلسلة تاريخ الاسلام . وقد سألتني ايها الصديق العزيز عن رأيي في هذا الأمر وانت اعرف به كأنك اردت ان تستعرض رأي غيرك مع رأيك الموفق . واني ذاكر في هذه الكلمات القليلة صفوة تاريخ صحيح مجمل :

لاجل الحكم بأمر ما على العرب بعد وفاة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يلزم ان نعرفهم في ايام حياته . ولأجل هذه المعرفة يلزم ان نعرفهم قبل بعثته وظهوره

﴿ العرب قبل بعثة النبي(ص) ﴾ العرب قبل ظهور الرسول (ص) ينقسمون بحسب مواقعهم الى (١) سكان الحجاز . و (٢) سكان ماعن يمينه مستقبلاً المشرق وهو اليمن . و (٣) سكان ما عن شماله . وهو الشام (اي الشمال) و (٤) سكان العراق العربي . و (٥) سكان ما بين ذلك كله وهي بلاد نجد .

من ثمة لا يسوغ لباحث ان يحكم بأمر ما عام على العرب من حيث أنهم شعب واحد يتكلمون بلغة واحدة بل يكون الحكم على كل قسم بحسب المؤثرات فيه من النحلة والعادة والخلة والمعيشة .

فالعرب الذين هم قطان الشام والعراق واليمن كانوا مما آثروا شيئاً من زخارف

الحياة و عما رغبوا من مجاورة الحواضر ذوات الاسواق الجامعة قد اتقوا سيطرة الملوك والرؤساء مهما كانت مظلمة . وقريب منهم . قطان نجد . اما قطان الحجاز فهم أبعد الناس عن قبول سيطرة الملوك كما انّ الحجاز أبعد الديار العربية من الحواضر وأبعد الارض عن شره الملوك . وكان اليمن والحجاز سندين لسكان الشام والعراق اذا رأو فيهما محن السلطة . وكان الشام والعراق مرجعين لسكان الحجاز يلتمسون فيهما ما يشتهون من بعض اسباب النعيم .

فالحجاز وحده هو الوطن العربي الذي كان يرجى فيه حماية ذمار الشعب واسقاط سلطة الشعوب الجائرة المجاورة . وهو الوطن الذي اعتلى فيه ايما اعتلاء شأن الحرية التي تربي الرجال والنساء أفضل تربية . وان العاقل لايستطيع ان لايعجب مما كان في مكة التي شرفها الله تعالى من تأليف تلك الحكومة الجمهورية الوطنية العرفية التي تتجلى في سمائها انوار الحرية حتى يرجع الطرف عن بهائها وهو حسير . وهذا من الاسباب في ان قريشا كانوا أرقى عرب الحجاز .

ولكن مع هذا كان ينقصهم معارف كثيرة من المعارف العليا التي تعرف الانسان انه لم يخلق سدى ، وتعرفه ما يجب ان يقدمه اليوم ليلقاه غداً ، ومن المعارف الدنيا التي يظهر بها مبلغ استعداد الانسان للعلم والعمل ، فجبر الله تعالى لهم هذا النقص اذ بعث فيهم منهم رسولا اصطفاه وعلمه من الحكمة والمعارف العليا ما تتزكى به النفوس ، وتسعد به الشعوب ، و يسهل معه تحصيل المعارف الدنيا . وجعل الأمة العاملة هي العليا .

﴿ العرب في حياة الرسول (ص) بعد بعثته ﴾ كتب هذا الامر العظيم للرسول المجتبى من قبل الله محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقام ينشر بينهم هذه المعارف . بيد انهم لاقبل لهم بتلقيها لانها من أفق أعلى مما تنظر اليه افكارهم فأخذتهم الدهشة ونأوا بجانبهم وقال كل منهم بهذا الرسول على حسب ما بدا له من القول

وينبغي للمرء ان لايتعجب ولا يسارع بهجو قريش الذين كانوا أرقى العرب فان كل غريب مستنكر باديء بدء . وقريش لم يعتادوا الخضوع الذي يشعر به معنى الدين وليس مادعاهم اليه من تلك المعارف العليا بالذي يعقل بالبداهة بل لابد فيها من النظر والتأمل . ولنا ان نلومهم على ما فعلوه من ايذاء الرسول بالقول والفعل . ولكن هذا العيب لم يسلم منه (ويا للاسف) طائفة من طوائف الماضيين

والحاضرين . [انظروا الى ما يتقوَّله المقلدون اليوم في المصلحين] على ان قريشاً لم تخل من رجال حكماء ادركوا هذا الفضل الذي جاءهم به ذلك المصطفى الكريم . أفلم يكن اولئك الذين نصروا هذه الحكمة الجديدة باديء بدء من افاضل الحكماء. الم تكن قريش قبيلتهم . ألم يكن بطن مكة دراهم . ألم تك تلك الارض ارض الحرية مهدهم وظئرهم وحاضنتهم ؟

كأن قريشاً تلك الفتاة القوية كانت في غفلة عنها في رحمها من الارواح السامية فلما ظهرت لم تلق اليها بالا حتى عاينت مراقيها البديعة في العالمين .

كان من مقتضى هذه الحكمة العالية انشراح الصدر لنوال البشر كلهم « على قدر استعداد كل منهم » اسباب السعادة — على ضد رأي الذين يريدون حصرها في شعب مخصوص — ولذلك كانت دعوة هذا الرسول القرشي عامة لكل الشعوب فما لبث بعد ان دعا قومه حتى طفق يدعو مجاوريهم من القبائل . ويراسل الملوك والاقيال . وكان اهل يثرب من السابقين لقبول هذه الدعوة السعيدة . واليهم هاجر بعد ثلاث عشرة سنة اقام فيها يدعو المكيين ومن حولهم الى هذه الحكمة المباركة واشتد في اثنائها العداء بين انصار هذه الحكمة الجديدة التي اوحاها الله . وبين انصار العادات القديمة التي سنها الآباء . فكانت الهجرة أعلم وأحكم . وكانت هي باب ذلك الفوز العظيم .

حكمة بالغة قلبت الحجاز من طور الى طور . ثم صاح الحجاز بالعرب كلهم صيحة واحدة فاذا هم يتبدلون.

كان العرب قبائل متفرقة متعادية . يأكل القويّ الضعيف . ويهجم القريب على القريب . فما لبثوا حتى اجتمعت كلمتهم . واتحدت وجهتهم . ولانت منهم قسوة المتكبرين . واشتدت عزيمة المستضعفين . وخضعوا جميعاً لاحكام امام واحد يروضهم بالعدل ، ويروقهم بالفضل . ينفذ فيهم امره وقضاؤه ويجل فيما بينهم ثناؤه يرضون عما رضي . ويتقمون مما نقم . ان استنفرهم نفروا . وان صرفهم انصرفوا. ثم اذا شاء استصرخهم فاذا هم يلبون .

بعد هذا الذي ذكرناه تبديلاً عظيما في العرب . ولكن هل اصبح كل فرد من افرادهم متخلياً عن كل المساوي التي نهي عنها . ومتحلياً بكل المحاسن التي أمر بها ؟ هل اصبح كل فرد منهم معصوماً من كذب كان قد اعتاده . أو حسد كان قد خالط فؤاده . او حقد اقتضاه مزاجه . او تهور مضى عليه منهاجه ؟ هل خلق

لكل فرد منهم عقل من كل الوجوه جديد . و رأي في كل الامور سديد ؟ ألم يبق فيهم من يشرب الخمر ، ولا من يأخذ الاموال بالقمر ؟ الم يبق فيهم من زان ولا قاتل ، ولاسارق ، ولا غاصب ، ولا نمام ، ولامغتاب ، ولا كذاب ، ولا مرتاب ولا ذي شهوة باطلة . ولا ذي خصلة عاطلة ؟

. سيحار في الجواب عن هـذه السؤلات كثيرون لما يتبعها . اما الذين لا يرون العصمة لغير الانبياء فانهم لا يحارون وهم يقولون ان التبدل العظيم انما وقع في ثلاثة اشياء « ١ » في تحوّل الاكثرين عن سنن الآباء الى دعوة النبي من حيث الاجمال و « ٢ » في ترك الاكثرين للمنكرات الظاهرة من زنا . وقتل نفس وشرب خمر . وقمار . وسرقة . وغصب مال . واتيانهم للمعروفات الظاهرة من صلاة . وصيام . وصدقة. وحج . و« ٣ » في جمع الكلمة بعد التفرق . قلنا « الاكثرين » ولم نقل « الكل » لان تاريخ ذلك العصر على اصح الروايات يثبت وجود المنافقين الذين لم يؤمنوا الا ظاهراً فقط . ووجود من كانوا يشربون الخمر . ويقتلون النفس . ويزنون . ويسرقون . الخ وان كانوا قليلا . ودع عنك الذين كانوا يكذبون . ويغتابون وينمون . ويحسدون . ويحقدون الخ

العرب بعد وفاة الرسول (ص) ذلك حالهم والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين اظهرهم . اما من بعده فيظهر ان القليلين من الذين كانوا لم يتخلوا عن المساوى. ولم يتحلوا بالمحاسن قد صاروا كثيرين . يدلنا لهذا نكول كثير من القبائل عن بعض اركان الدين كالزكاة حتى اضطر أبو بكر رضي الله عنه ان يعتبرهم كالمرتدين . ويحاربهم كما كانوا يحاربون الـكافرين

فهـذا يدعونا ان لا نفسر الصحابة بالتفسير المشهور (اي كل من رأى النبي وآمن به) اذ لو فسرنا هذا التفسير لما صحّ لأحد ان يقول كما هو المشهور ان كل فرد من افراد الصحابة عدل .

بل نحن نفسر الصحابة بما تساعد عليه اللغة ويشهد له التاريخ الصحيح فهم الذين صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم صحبةً حقيقةً يصلح ان يطلق عليها لغةً وعرفاً اسم الصحبة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي واضرابهم رضي الله تعالى عنهم فهؤلاء وامثالهم هم الصحابة الحقيقيون . وهؤلاء وامثالهم هم الثقات العدول . واما اولئك الأعراب الذين كانوا يفدون عليه فيسلمون له ولم يكونوا يلبثون عنده الا عشية او ضحاها فيقال لهم مسلمون لمحمد عليه السلام . ولا يصح على هذا

التفسير الحقيقي ان يقال انهم صحابته . كما لا يصح عقلاً ونقلاً ان يقال ان كل فرد من أمثال هؤلآء عدل ثقة . وكذلك الصبيان الذين كان عمر احدهم في حياته صلى الله عليه وسلم سبعاً او تسعاً مثلا من السنين .

ثم انّ الذين نقول عنهم انهم عدول كما شهد لنا التاريخ لايفرض علينا ان نزههم كما ننزه الانبياء ورب العالمين . ولايجب علينا ان نتخذ آراءهم ديناً كما يظنه بعض من لايعرفون اصول الدين .

ولقد بعد عن الصواب ظن الذين يزعمون انه لافرق بين مايراه النبي صلى الله عليه وسلم وما يراه احد اصحابه . لانه اما ان يكون للنبي نص في الشيء فالامر ظاهر سوآء وافق الصاحب النبي للعلم بالنص او خالفه لعدم العلم بالنص . وعدم العلم ببعض نصوص النبي جائز في حق كل صاحب وغير شائن بأحد منهم . واما ان لايكون للنبي نص فيستوي الصحابة في نظر بعضهم . ولم يكونوا يساوون برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم احداً بل يستوون في نظر التابعين عليهم الرحمة .

ثم لا شك بأن الصحابة الحقيقيين عليهم الرضوان نجوم فضل وهدى ولكن حديث « اصحابي كالنجوم بايهم اقتديتم اهديتم » قد صرح العلماء بانه موضوع وقد صحّ مامعناه « انّ أمة النبي يردون عليه الحوض فيذاد ناس منهم فيقول يا ربّ أصحابي . فيقال له لاتدري ما أحدثوا بعدك »

﴿ الذي جرى بين الصحابة ﴾ اذا تمهد هذا فالاختلاف الذي جرى بين الصحابة لاشك بأن جرثومته من فئة لم تأخذ بنصيب واف من صحبة النبي ، ولم تتضلع من التهذيب المحمدي ، واني أجل من هذه الوصمة العشرة الكرام بل أجل مثاهم كثيرين من غيرهم ولكني لا اثبت لغير الانبياء عصمة مطلقة كعصمتهم فان هذا من اصول هذا الدين

هذا هو الأجمال ومنه يأخذ الاذكياء آراء مهمة عند ما يقرأون الحوادث التي جرت . ومن اضطر للتفصيل هنا فحسبي في هذه المختصرة ان أضيف من أجله الى هذا الأجمال قضايا هي بمثابة منبهات لعين الفكر ومبصرات اياها بعض الدقائق:

(١) ان القبائل البدوية كانت آلة بيد رجال من قريش . وأكثر افرادها لم يكونوا قد رأوا النبي صلى الله عليه وسلم فضلا عن ان يصحبوه — ومن رآه منهم فقد يكون رآه ساعة من نهار . ومن حارب معه فقد يكون حارب ابتغاء الغنائم . وهكذا حاربوا مع من بعده .

(٢) ان القبائل البدوية كانت متعادية في الجاهلية . ولما تآخت في الاسلام كان عرق العداوة يضرب في بعضها احياناً . فكانت كل قبيلة تشايع رئيساً من رؤساء قريش وتتمنّى له الدولة ابتغاء ان تتميز لديه على اعدائها الاقدمين .

(٣) ان القبائل البدوية كان قد اضرّ بها جهد العيش وكانت تتربص في البلاد التي افتتحتها ان تتضلع من نعيمها . وكانت تتحين ان تنقلب رتبة الخلافة التي معناها اقتفاء اثر النبي صلى الله عليه وسلم الى رتبة سلطنة وملك ومعناها اقتفاء آثار الملوك الذين كانوا يعرفون سيرهم وسير كبرائهم في البذخ والاستيثار . وتوارث المناصب بالأنساب والحيل ، لا بالمواهب والعمل .

(٤) ان الأمم العجمية — من روم وفرس وسريان وعبرانيين وغيرهم — من لم يدخل في الدين منهم لاظاهراً ولا باطناً ومن دخلوا فيه ظاهراً فقط كانوا لا يألون جهداً بث الدسائس ليهدموا ذلك المجد العربي الذي شادته تلك الدعوة المحمدية على ايدي انصارها الحقيقيين . ومن دخل فيه ظاهراً وباطناً كانوا جهلاء به ولم ينزع من قلبهم حب عادات سالفة لهم قومية او دينية . وما زالوا بعد امتزاجهم بالعرب حتى ادخلوها عليهم ففسدت بها بعض مناهجهم .

(٥) بمجموع ماقدمنا الاشارة اليه اختل — بعض الاختلال — ذلك المحيط الذي كان بالامس أصبح محيط على الأرض . ولم يكن اختلاله في ايام خلافة الصديق واوائل خلافة الفاروق رضي الله عنهما الاطفيفاً . واما في اواخر خلافة الفاروق فاشتدّ ذلك المرض الذي حاق بذلك المحيط وما برح يشتد فيما بعد ذلك حتى سقطت رتبة الخلافة في اواخر ايام علي رضي الله عنه ثم قامت مقامها حتى اليوم رتبة السلطنة والملك . وهذا بعض ما كان يتمناه رجال من قريش والقبائل البدوية والأمم العجمية اهـ

هذا ما قيل في فتنة عثمان من الوجهة الدينية والاجتماعية اوردته في هذا الكتاب دون ان اعلق عليه شيئاً من الرأي اذ آرائي الخصوصية بسطتها كل رأي في محله من هذا الكتاب فعلى القارئ ان يأخذ مما قلت وقال غيري بما شاء اذا ظهر له انه الحق اذ القصد الوقوف على الحقيقة ومعرفة الحق فيما شجر بين القوم يومئذ وفيما تقدم جميعه كفاية لهذا الغرض والسلام

﴿ صفة عثمان ﴾

في تاريخ ابن عساكر كان عثمان ليس بالطويل ولا بالقصير حسن الوجه رقيق البشرة كثّ اللحية عظيمها اسمر اللون عظيم الكراديس بعيد ما بين المنكبين كثير الشعر وكان يصفر لحيته ويشد اسنانه بالذهب

﴿ باب ﴾

(ولده وعماله)

(ولده)

ولد عثمان بن عفان هم عبد الله الاكبر وأمه فاختة بنت غَزَوَان : وعبد الله الاصغر أمه رقية بنت رسول الله وتوفى صغيرا : وعمرو : وأَبَان وخالد : وعمر : وسعيد : والوليد وأم سعيد : والمغيرة : وعبد الملك : وأم عمرو : وعائشة وكان عمرو أسنى أولاده وأشرفهم عقبا . وكذلك ابنه عبدالله الاكبر وله عقب كثير وممن اعقب من أولاده أيضاً خالد وقد درج عقبه وله من الاحفاد من ولد عمرو وعبد الله عدد كثير ذكرهم ابن قتيبة في المعارف فاكتفينا عنه بما تقدم

﴿ عماله ﴾

كان عماله على الامصار في السنة التي توفى فيها على مكة عبد الله بن الحضرمي وعلى الطائف القاسم بن ربيعة الثقفى وعلى صنعاء يعلى بن منية وعلى الجَنَد عبد الله بن ربيعة وعلى البصرة عبد الله بن عامر وعلى الشام معاوية بن أبي سفيان وعلى حمص من قبل معاوية عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وعلى قِنّسرين حبيب بن مسلمة الفهريّ وعلى الاردن أبو الاعور السلمي وعلى فلسطين علقمة بن حكيم الكناني وعلى البحر عبد الله بن قيس

الفزارى وعلى الكوفة أبو موسى الاشعري على صلاتها وعلى خراجها جابر ابن فلان المزنى وعلى حربها القعقاع بن عمرو وعلى قرقيسيا جَرِير بن عبد الله البجلي وعلى آذربيجان الاشعث بن قيس الكندي وعلى حلوان عُتَيْبَة بن النهّاس وعلى الماه مالك بن حبيب وعلى همذان النُسيْر وعلى الري سعيد بن قيس وعلى اصبهان السائب بن الاقرع وعلى بيت المال عُقْبة بن عامر وعلى قضاء عثمان زيد بن ثابت وأما عامل مصر فقد كان عبد الله بن سعد كما رأيت فيما مر وتغلب عليها بعد خروجه منها محمد بن أبي حذيفة

ربما يتبادر الى ذهن القارئ من اسماء هؤلاء العمال ان ليس فيهم من قرابة عثمان الا معاوية وعبد الله بن عامر وعبد الله بن سعد مع ان الفتنة قامت لاجل ان عماله كلهم من ذوي قرابته فلكي يكون القارئ على بصيرة ننبهه الى تقسيم الولايات في عهد عمر بن الخطاب فيرى أن الولايات الكبرى هي مصر والشام وقنسرين والبصرة والكوفة وما بقي فمضموم اليها ففارس كلها الشرقية والغربية تابعة وعمالها للبصرة . والكوفة وارمينيا تابعة لقنسرين . وأفريقيا تابعة لمصر . والشام تتبعها أقسامها . وكل هذه الولايات الكبرى مما عدا قنسرين ولاتها من ذوي قرابته والكوفة وان كان عليها أبو موسى الاشعرى لكن كان قبله سعيد بن العاص كما مر تفصيل الخبر عن ذلك لهذا اقتضى التنبيه

﴿ الحالة الاجتماعية على عهده ﴾

ذكرنا كيف كانت الحالة الاجتماعية على عهد عمر بن الخطاب وانّ الأمة خطت يومئذ خطى قليلة الى الامام في شؤونها الاجتماعية ولم تخرج مع ما صار اليها من كنوز فارس والروم وملك الاكاسرة والقياصرة عن

طريق القصد في المعيشة لحمل عمر لهم على التوسط في العيش وعدم الركون الى الراحة في ابان الفتح ومصادمة جيوش الامم وانه لذا كان لا يرضى للعرب الاشتغال بغير الحرب ولا يأذن لهم باعمال الارضين . ولما استكمل الفتح على عهد عثمان ونزع الناس بالضرورة الى طلب الراحة وأخذوا بقسطهم من السيادة على الشعوب وجاوروا المترفين من أهل المدن واستخشنوا عيش البداوة واستقلوا ثمرة الضرع دون الحرث والزرع وكان عثمان (رض) ليس من الشدة عليهم والأخذ على شكائمهم بالمكانة التي كانت لعمر قبله طمحت الى ذلك نفوسهم ، واتجهت لمجاراة الشعوب الاخرى رغائبهم ، فاستقطعوا من عثمان القطائع واستأذنوه في استثمار الارضين التي جلى عنها أصحابها من أهل الذمة فاقطعهم اياها فقاموا على حرثها وأخذوا باستثمارها كما رأيت ذلك فيما مضى من أخبار فتح سجستان وكرمان وروى البلاذري في فتوح البلدان ان عثمان لما ولى معاوية على الشام والجزيرة أمره ان ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ويأذن لهم في اعتمال الارضين التي لا حق فيها لاحد فأنزل بني تميم الرابية وأنزل المازحين والمديبر اخلاطاً من قيس وأسد وغيرهم . وفعل ذلك في جميع نواحي ديار مضر ورتب ربيعة في ديارها على ذلك وألزم المدن والقرى والمسالح من يقوم بحفظها ويذب عنها من أهل العطاء ثم جعلهم مع عماله : وفي هـذا دليل على تدرج القوم في مدارج الرقي وجنوحهم الى الكسب من طرق التجارة والفلاحة وميلهم الى الاستعمار واذ كان عثمان غنياً جداً[1] محباً للعمران ميالاً الى التأنق في المعيشة والتداول

(١) ذكر المسعودي ان عثمان يوم قتل كان عند خازنه من المال خمسون

في البنيان وانفاق المال في وجوه البذل ليوسع على الناس وخصوصاً على أهله وذوي قرباه فقد ماشاه الناس في ذلك وساروا سيرته فيه وكانوا في عصر عمر لا يجرأون على اقتناء الضياع والدور والاكثار من مظاهر الثروة والغنى مع اقبال الدنيا عليهم كما هي في عهد عثمان فلما أخذ عثمان نفسه باقتناء الدور والتوسع في العيش وبنى لنفسه ولنسائه وأولاده بضع دور بالمدينة كما سبق ذكره وشيد داره بالحجارة والكلس وجعل ابوابها من الساج والعرعر وبنى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالعمد المرفوعة وتأنق في بنيانه واقتنى الدور والضياع والجنات والعيون بالمدينة وأظهر بهذا أثر النعمة التي أنعمها الله على العرب اتبعه الناس في ذلك وتظاهروا بمظاهر الغنى وجنحوا الى الحصول على المال والتنعم في المعيشة فابتنى سعيد بن العاص ومروان ابن الحكم القصور خارج المدينه وأخذ كبار الصحابة فى ذلك بمذهبه فذكر المسعودي منهم جماعة اقتنوا الضياع والدور وماتوا عن مال كثير ونعم وفيرة منهم الزبير بن العوام بنى داره بالبصرة وداراً بمصر ومثلها بالاسكندرية والكوفة واقتنى كثيراً من المال والضياع حتى ضرب المثل بغناه وقال المسعودي بلغ مال الزبير (لعله من النقد) بعد وفاته خمسين الف دينار والف فرس ومثلها من العبيد والاماء وخططاً بحيث ذكر من الامصار : وربما بلغت

ومائة الف دينار ومليون درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة الف دينار : وفي رواية لابن عساكر ان الثائرين انتهبوا ماله كله يوم قتل وكان ثلاثين الف الف درهم وخمسمائة الف درهم « اي ثلاثين مليون ونصف » ومائة وخمسين الف دينار وترك صدقات كان تصدق بها بين اريس وخيبر ووادي القرى قيمة مائتي الف دينار وفي هذه الرواية من الاغراق والمبالغة مالا يخفى ولعل رواية المسعودي أصح

ثروته على ما في قول بعضهم نحو نصف مليون وا كثر هذه الثروة كانت من التجارة فانهم قالوا ان الزبير كان تاجراً مجدوداً (اى محظوظاً) :قال المسعودي وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي ابتنى داره بالكوفة (المعروفة لعهد المسعودي بدار الطلحتين) وكانت غلته من العراق كل يوم الف دينار وقيل أكثر من ذلك وبناحية شراة اكثر مما ذكر وشيد داره بالمدينة و بناها بالآجر (الطوب) والجص والساج ، وكانت ثروته من التجارة ايضاً فقد ذكر ابن قتيبة في المعارف ان طلحة كان تاجراً بزازاً وما ذكره المسعودي عن ثروة طلحة وان كان لا يخلو من اغراق ومبالغة الا انه يدل على ما صار اليه القوم من السعة والميل الى اقتناء المال:ثم ذكر غير من تقدم عبد الرحمن بن عوف [1] وزيد بن ثابت ويعلى بن أمية وانهم بنو الدور وشيدوا القصور وتركوا اموالاً

(١) وذكر في اسد الغابة غنى عبد الرحمن بن عوف وقال ان عامة ما له من التجارة وانه كان عظيم التجارة مجدوداً فيها حتى قدمت له مرة عير فيها سبعمائة راحلة تحمل البر والدقيق وكان كثير التصدق حتى تصدق مرة على عهد رسول الله بشطر ماله وتصدق مرة بار بعين الف دينار وحمل على خمسمائة فرس وخمسمائة راحلة في سبيل الله وهذا يدلك على ان اكثر غنى الصحابة انما كان من التجارة ايام اليسر واقبال الدنيا على المسلمين وانهم كانوا مع هذا الغنى على جانب عظيم من البذل وعفة النفس كما تدلك عليه اخبار عبد الرحمن وطلحة واشباههم من كبار الصحابة واغنيائهم الذين انما تحصلوا على الثروة بالعمل والجد والاتجار وانفقوها في طرق البر وسبيل الخير والمحمدة ولابي بكر وعثمان وطلحة وعبد الرحمن واضرابهم من اغنياء الصحابة اخبار كثيرة في هذا الباب لا محل لذكرها هنا وكلها ادلة واضحة على وجوب السعي والعمل وان العمل لازم من لوازم الحياة فأمر به الاسلام وان الغنى والمال ضرب من ضروب العزة التي وصف الله بها المؤمنين لذا اشتغل في اقتنائه الصحابة والتابعون فاخذوه من الطرق التي يأمر بها الشرع وأنفقوه في الطرق التي يأمر بها الشرع فكانوا خير قدوة للمسلمين لو كانوا يعقلون لا سيما في هذا العصر

وضياعا كثيرة وان سعد بن ابي وقاص ابتنى داره بالعقيق فرفع سمكها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات ومثله فعل المقداد بداره في الجرف على اميال من المدينة :

وفي كل هذا دليل على سرعة انتقال القوم من حال الى حال في عصر عثمان وجنوحهم الى التنعم بنعيم الحضارة وهذا أثر محمود من آثار الشكر المنعم اذا لم يتجاوز حد القصد الى السرف ولم يتناول كل الطبقات ولم يتدرج منه الناس الى المنكرات ومما لا ريب فيه ان عصر الصحابة مهما انطلق أهله في مجال السعة والنعيم لا يتجاوزون الحد المشروع ولا يأخذون بغير المباح وقدفاضت عليهم الدنيا وكثر لديهم المال فلا بد من صرفه في وجوه التنعم بما أحله الله لهم من الطيبات دون المنكر والشهوات حتى لقد كان في المدينة من آثار الرفاهة وحب التلهي لما فاضت الدنيا على المسلمين ان ظهر فيها طيران الحمام والرمي على الجلاهقات « قوس البندق » فعدّوها منكراً أمر به عثمان فأزيل في الحال واستعمل على ذلك رجلا من بني ليث فقص الحمام وكسر الجلاهقات :

استكمل الفتح في عصر عثمان ودال للعرب ملك فارس وصارت اليهم سياسية الممالك فساروا في الناس سيرة جميلة أمر بها الاسلام وسلكوا من العدل والحق طريقاً توخاها الخلفاء، وتبعهم فيها الولاة والامراء، فازدها

الذي اشتد فيه تزاحم الامم على موارد الرزق وتفنن الاوربيون بضروب السعي والاحتيال على جلب الثروة حتى سدوا في وجوه المسلمين منافذ الرزق لتقصير هؤلاء في السعي وتقاصرهم عن تناول المال من طرق الجد والعمل ومجاراة الاوربيين في فنون التجارة والصناعة وسبب ذلك كله الجهل بتاريخ سلفهم والاستسلام للاوهام الباطلة التي اوهنت عزائمهم وذهبت بملكة النشاط منهم ولا حول ولا قوة الا بالله

أمر الدولة الجديدة . وعلت كلمة العدل ، وكثر المال وامتد رواق العمران .
وراجت التجارة وتصاعدت أثمان السلع والعقار وكل ما يباع ويشرى بنسبة
كثرة النقد فبيعت جارية بوزنها وفرس بمائة الف درهم ونخلة بألف درهم
كما نقل هذا المحب الطبري في الرياض النضرة من راوية أبي عمر عن
محمد بن سيرين . وهذا غاية ما تصل اليه الممالك في ترقي العمران . وتوفر
أسباب الكسب . ونمو الثروة بين طبقات الناس

بينما العرب في مثل هذا الرخاء والرغد من العيش يستمتعون بما أفاء
الله عليهم من تراث الأمم ويتسنمون ذرى الحضارة ويتبسطون في العيش
ويسيرون سيرهم الحثيث في الفتح ويرفعون لاخلافهم بنيان المجد والدنيا
مقبلة عليهم وملك الروم والفرس صائر اليهم وعثمان في مأمن من رأفته بهم
ولينه عليهم . اذ صاح بهم صائح الفتنة فاستوقفهم عن سيرهم ثم قذف بهم
في لج من التخاصم ما بلغوا ساحله الا وهم أحزاب متفرقة وشيع متباينة فكان
عصر عثمان بهذا عصراً جمع بين الاضداد من الرخاء والشدة . والراحة
والتعب . والغنى والطمع . والقوة والضعف . ومنه بدأت سلسلة الاحزاب
السياسية والدينية والجمعيات السرية والجهرية واليه ينتهي تاريخ الانقلاب
العظيم الذي طرأ على الدول الاسلامية وحول مجرى السياسة عن وجهتها الاصلية

ان الدول اذا قامت في أول نشأتها بقوة الحياة الملية والتناصر القومي
ونشأت على أساس الوحدة في الاعتقاد والوحدة في الفكر بين أصناف
الأمة وأخذت على نفسها انصاف المغلوبين لها الخاضعين لسلطانها من
الشعوب الأخرى قل ان تتعرض لخطر الضعف والانحلال العاجل بما
يعرض لها من الفتن أو يظهر فيها من الاحزاب والشيع لهذا فان اضطراب

أمور الدولة وتفرق أغراض الأمة في عهد عثمان لم يؤثر على مركز الدولة في ارجاء ممالكها القاصيـة والدانية ولم يقلل من سطوة الخلافة بين الدول المتاخمة والأمم المغلوبة بل كأن الأمم استشعرت من تلك الضوضاء القائمة انها نتيجة حياة قومية ونشاط عظيم يراد بهما تمحيص الحق وتدعيم أسس الخلافة فلبثت على الحياد تنتظر نهاية الأمر، ولا تمد الى الدولة يد الغدر، حتى انجلت الفتنة عن قتل عثمان وقيام عليّ والاحزاب الأخرى ثم مصير الخلافة الى بني أمية ولولا ما حبَّب الى الناس من خلافة الراشدين ، وما بهرهم من قوة اولئك الفاتحين ، لربما كانت اشتعلت المملكة يومئذ بالنار ، واستفز الطيش الاشرار . لـكن الملك الذي يتحصن بالعدل والدولة التى تقوم على الاساس الذى ذكرنا لا يزعزعهما تفرق المالـكين الى أحزاب . وشيع ولا يطمع في جانبها الطامعون : والله مع الذين آمنوا والذين هم متقون :

هذا ما اخترت ايراده من سيرة عثمان رضى الله عنه واسأل الله الغفران عن زلة القلم واللسان كما أسأل القراء المعذرة في تبسطي في أخبار الصحابة وتوسعي في وضع أمور الفتنة موضع النقد والمحاكمة واسترسال قلمي من ذلك بما لم تألفه انظارهم من كتب مؤرخينا الذين عاهدوا أنفسهم على القاء الكلام عن أخبار الصحابة على عواهنه تجنباً للخوض بزعمهم في اخبارهم مع ان ما نقلوه من المطاعن وملأوا به صحفهم من اخبار الفتنة هي بمجردها أضر على الصحابة واشد جناية على التاريخ من التبسط في أخبارهم ومحاكمة الرجال الذين نسبت اليهم اذ في الوجه الثاني طريق للمؤرخ يسلكه في تبرئة المتهمين منهم بباطل والاعتذار عمن يظن انه خطأ منهم ليدفع بهذا الشبه التي تكاثفت سحبها على النفوس من قراءة اخبار الفتنة التي ترمي كبار الصحابة بوصمة التحزب

على عثمان اذا حملت على ظاهرها كما رواها الرواة ونقلها المؤرخون فلو بحث المؤرخون فيما وراء الظاهر منها وتوسعوا في التنقيب عنها والتدقيق فيها وبسطوا للقراء ما ظهر لهم من اسبابها الخفية والجلية وكل ما يتعلق بها من العوارض السياسية والاجتماعية لكان ذلك خيراً لهم وللصحابة من ترك الكلام الفج الساذج يأخذ مكانته من النفوس الضعيفة فتسيء الظن في رجال هم دعائم الاسلام وبهم قامت الملة وقوى ساعد الدين وبجدهم تأسست دولة المسلمين . وما ضرّ الصحابي منهم لو نقبنا عن سيرته ورأينا ما يوجب النقد في اخباره فاذا التمسنا له العذر فلم نجده قلنا انه مجتهد اخطأ في اجتهاده وليست العصمة الا لله وللرسل وما ادعاها لنفسه أحد من الصحابة قط . وهذا عمر بن الخطاب على علمه وجلالة قدره لما نهى عن الاسراف في مهر النساء وردت عليه امرأة بجواب تحجه فيه من كتاب الله لم يسؤه ذلك بل قال : صدقت رجل اخطأ وامرأة أصابت : وكذلك عثمان فانه اعترف بخطأه على ملأ الناس اكثر من مرة كما رأيت فيما مرّ من سيرته : والشواهد على هذا كثيرة في اخبار الصحابة لا محل لايرادها هنا وفيما ذكر كفاية للعاقلين .

وها أنا أبدأ بسيرة من اشتهر من الرجال في دولة عثمان رضى الله عنه وهما حبيب بن مسلمة الفهري وعبد الله بن عامر بن كُرَيْز

عبد الله بن عامر

﴿ باب ﴾

﴿ نسبه ومولده ونشأته ﴾

(نسبه)

هو عبد الله بن عامر بن كُرَيْز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد

مناف بن قصي القرشي العبشمي وهو ابن خال عثمان بن عفان . أم عثمان أروى بنت كريز وأمها وأم عامر بن كريز أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب عمة النبي (ص) وأم عبد الله دجاجة بنت اسماء بن الصلت السلمية

(مولده ونشأته)

ولد عبد الله بن عامر فى مكة بعد الهجرة باربع سنين كما ذكر ذلك ابن عساكر وأسلم أبوه عام الفتح وقال ابن عساكر وقد أجمع علماء قريش ان رسول الله أتى بعبد الله بن عامر في فتح مكة فجعل ينفث عليه وجعل عبد الله يتلمظ ريق النبي (ص) فقال انه لمسقا وفى لسان العرب انه صلى الله عليه وسلم قال له : ارجو ان تكون سقاء : اي لا تعطش . وفي رواية لابن عساكر انه لما جئ به لرسول الله (ص) قال : هذا ابن السلمية : قالوا نعم : قال هذا ابننا وهو أشبهكم بنا وهو مسقا : فلم يزل عبد الله شريفاً سخياً كريماً كثير المال والولد

فعبد الله بن عامر ولد مكياً ونشأ مسلماً مدنياً وقد كان يعد فى الطبقة الاولى من أهل المدينة كما في رواية محمد بن سعد صاحب الطبقات : وكان حسن النشأة معدوداً من نجباء قريش وكرمائهم لهذا اختاره عثمان بن عفان لولاية البصرة على حداثة سنه فوليها وعمره بين الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين فقام باعباء الولاية أحسن قيام وقاد الجيوش أعظم قياد وأكمله ففتح خراسان وسجستان وكرمان وما زال يطارد كسرى يزدجرد حتى قتل وانقرضت على يده الدولة الساسانية وصار الى المسلمين ملك الاكاسرة فخفقت اعلامهم على اقاصي بلاد فارس الشرقية والغربية وبسطوا جناح السلطان على تلك الممالك الشاسعة بحسن قيادة عبد الله بن عامر ومن سبقه من

رجال الفتح الذين خلدوا لتلك الامة فخراً لا تطاول اليه الاعناق ولا يدانيهم به الفاتحون كما رأيت فيما مر من أخبارهم وأخبار بن عامر في هذا الكتاب وكما ترى من تتمة خبره في فتح تلك البلاد مما يأتي ان شاء الله

﴿ باب ﴾

(ولايته على البصرة وفتوحاته)

ذكرنا فيما تقدم ان عثمان (رض) عزل عن البصرة أبا موسى الاشعري وولى عليها عبد الله بن عامر سنة (٢٨ هـ) وقيل سنة (٢٩) فقال أبو موسى يقدم عليكم غلام كريم الجدات والعمات يجمع له الجندان وزاد في رواية لابن عساكر . يقول بالمال فيكم هكذا وهكذا . وجمع له عثمان جند أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاص الثقفي من عمان والبحرين وأمره أن يستعمل على كور فارس وخراسان من سميناهم في سيرة عثمان وان يغزو البلاد التي انتقضت وهي فارس وخراسان فسار بالناس الى فارس والتقى بالثائرين في اصطخر فقاتلهم حتى انهزموا ثم سار الى اطراف ولاية فارس فدوّخها وأخضع الثائرين فيها ثم قصد خراسان وفرق قواده وجنوده في اطراف خراسان وسجستان وكرمان كما مر تفصيل الخبر عن ذلك وقصد هو نيسابور وجعل على مقدمته الاحنف بن قيس فافتتح امامه الطبسين وهما بابا خراسان وسار الى قُهستان وأبرشهر فلقيه قوم يسمون الهياطلة فقاتلهم الاحنف فهزمهم وخرج اليه أهل قهستان فقاتلهم حتى الجأهم الى حصنهم وقدم عليها ابن عامر فصالحه اهلها على ستمائة الف درهم ثم قصد ابن عامر البلاد التي من اعمال نيسابور كبشت وخواف واسفرأين وارغيان ثم قصد نيسابور بعد ان استولى على كل اعمالها فامتنعت عليه فحاصرها أشهراً وكان على كل ربع من

ارباع المدينة مرزبان يحفظه فطلب صاحب ربع من تلك الارباع الامان على ان يدخل المسلمين المدينة فأعطيه . فأدخلهم ليلاً ففتحوا الباب وتحصن مرزبان المدينة في حصنها ومعه جماعة وطلب الامان والصلح على جميع نيسابور على وظيفة يؤديها فصالحه ابن عامر على الف الف (مليون) درهم وولى على نيسابور قيس بن الهيثم السلمي. ثم أرسل ابن عامر قواده يضربون في اطراف البلاد . وقدم في أثناء ذلك بهمة والى أبيور على ابن عامر فصالحه على اربعمائة الف درهم وأتى مرزبان طوس فصالحه على ستمائة الف درهم . ووجه ابن عامر جيشاً الى هراة وقيل سار اليها بنفسه فقاتل أهلها فأعياهم فأتاه صاحب هراة فصالحه عليها وعلى بادغيس وبوشنج وكتب له ابن عامر كتاب عهد هذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أمر به عبدالله بن عامر عظيم هراة وبوشنج وبادغيس . أمره بتقوى الله ومناصحة المسلمين واصلاح ما تحت يديه من الارضين . وصالحه على هراة سهلها وجبلها على ان يؤدي من الجزية ما صالحه عليه وان يقسم ذلك على الارضين عدلاً بينهم فمن منع ما عليه فلا عهد له ولا ذمة . وكتب ربيع بن نهشل وختم ابن عامر اهـ

وهذا الكتاب يدل على حرص الامراء يومئذ على عمران البلاد لشرطهم على المرازبة اصلاح الارضين وقد مرّ مثله في سيرة عمر وما كان يشترطه الامراء في فتوحهم من اصلاح الطرق والجسور على أهل البلاد المفتتحة كما يدل أيضاً على انّ المسلمين كانوا يتركون المرازبة في البلاد التي تدخل تحت سلطانهم صلحاً شبه ولاة من قبل الخليفة او ولاة الثغور بدليل قوله في أول الكتاب (هذا ما أمر به الخ) ويوصونهم بالعدل وتقوى الله

وحسن النظر في أمور البلاد لا سيما وان المسلمين كانوا يعهدون الى زعماء البلاد بالحكم بين أهلها في أحوالهم الشخصية على ما تقتضيه شرائع البلاد وعوائد أهلها ويتركون لغير المسلمين الخيار في ذلك بين الرجوع الى عوائدهم وبين الرجوع الى قضاة المسلمين وشرائعهم فالعدل وحسن السياسة يقضيان على الفاتحين بايصاء حكام البلاد والتشديد عليهم في القيام على العدل فيما وسد اليهم من امور الرعية .

هذا وهنا أمر آخر نحب التنبيه عليه وهو ان اكثر البلاد التي أخذت صلحاً وترك أمرها لولاتها من الاعاجم لم يستقم أمرها للدولة بل كانت لا تلبث أن تخرج على سلطان المسلمين وينبذ أهلها طاعة الخليفة باغراء اولئك الزعماء فان اكثر البلاد النائية عن نظر ولاة الثغور البعيدة عن التأثر بسطوة الخلافة مثل خراسان وفارس الشرقية وطخارستان وأكثر البلاد الواقعة جنوب بحر قزوين كانت تنتابها الثورات الى أوائل عهد الامويين كما رأيت وسترى ولما استفحل الملك وتبسط العرب في الممالك وانتظمت لهم الامور واختلطوا مع الأمم في المعاملة والمصاهرة والدين وتولوا بانفسهم شؤون البلاد استقرت قدمهم في البلاد وسكنت اليهم الشعوب .

والعجيب في هذا الامر ان ينزع القوم الى مناهضة الدولة ومحاولة الخروج عن الطاعة في عصر مثل عصر الخلفاء الراشدين الذين ملأوا الارض بالعدل وهدموا دعائم الاستبداد المطلق والظلم الغابر وفي بلاد ترك لاهلها شبه استقلال عن الدولة ونيط بزعمائها أمر الحكم والسلطة ولما انقلب أمر الخلافة الى الملك وبسطت عليهم يد الحكم المطلق وأخذتهم الدول الاسلامية بالارهاب ونزعت من زعمائهم السيادة رضخوا للدوله وخضعوا لولاتها كل

الخضوع . ولا تعايل لهذا الا ان الشرقيين أمم قد تأصل في عروقها دم العبودية فصارت تستطيب القهر ، وتستلذ بالحجر ، فلا يحرك ساكنها الاستبداد ، ولا يُطَامِنُ من اشرافها الاستعباد ، فهي مع الظالم أطوع له من الظل ، وأذل لسطوته من الذل ، كما يشاهد ذلك فيهم الى الآن في كل مكان ، فانك حيثما نظرت في المشرق تجد الاستبداد قد أخذ بنواصي الامم والظلم نشر عليه بنوده ، وتجاوزوا الحكم المطلق فيهم حدوده ، حتى أودى بهم الى الهلاك . وبدولهم الى الزوال ، وبملكهم الى الاضمحلال ، وهم مع هذا خاضعون خائفون ليس فيهم حياة تحس . ولا عروق تنبض . ولا رجال تقوم فتستحث منهم الهمم ، وتستنقذهم من هوة العدم ، والمغرب امامهم يسوق اليهم العبر سوقاً ويعلمهم كيف تكون حياة الامم . وبماذا تسعد الشعوب . وتشاد الممالك . وكيف يقضي العلم على الظلم وأهليه ، والاستبداد وعاشقيه ، وبم يسود الانسان ، وتعلو كلمة العدل في كل مكان ، وهم عن ذلك في شاغل من الخمول . واشتغال بالسفاسف . واعراض عن شؤون الحياة الطيبة . رضاء بالعبودية لطواغيت الرياسة . واستسلاماً للقضاء . وما نهاية ذلك الا الفناء العاجل بازاء الأمم الغربية التي استفاض نور مدنيتها على الارض . واندفع تيارها على كل الممالك . فلا يقوم في وجهه الا قائم العلم والحرية والعدل . والله عليم بعاقبة الامور

هذا وقد تقدم لنا تمام الكلام على ما فتحه قواد المسلمين في ولاية ابن عامر من بلاد فارس الشرقية والنزبية وانما اجتزأنا هنا بذكر ما فتحه ابن عامر بنفسه وفاء بالوعد الذي تقدم لنا وبياناً لفضل هذا الرجل الصغير يومئذ سناً الكبير همةً ونفساً فلا حاجة للمزيد

﴿ ولايته الثانية على البصرة ﴾
(وشيء من اخباره فيها)

تلك ولاية عبد الله بن عامر الاولى وكانت في خلافة عثمان رضي الله عنه وقد وليها مرة ثانية على عهده معاوية وذلك انّ معاوية لما صفت له الخلافة أراد ان يولي عتُبة بن أبي سفيان على البصرة فكلمه ابن عامر وقال له انّ لي بالبصرة ودائع وأموالاً فان لم توّلني عليها ذهبت . فولاه البصرة فقدمها سنة احدى وأر بعين وجعل اليه معاوية خراسان وسجستان فاستعمل على خراسان قيس بن الهيثم السلمي وكانت انتقضت بلخ وهراة وبوشنج وبادغيس على المسلمين فسار قيس الى بلخ فنازلها فسألوه الصلح ومراجعة الطاعة فأعطاهم ما سألوا وكان المسلمون كما ذكرنا غير مرة حريصين على عمران البلاد وتسهيل السبل فتقدم الى عطاء بن السائب مولى بني ليث ببناء ثلاث قناطر على ثلاثة انهر من انهر عمالة بلخ فبناها وسميت قناطر عطاء ثم انّ ابن عامر استبطأ قيساً بالخراج فعزله وولى عبد الله بن خازم فخاف قيس ابن خازم وشغبه فقدم على ابن عامر قبل وصول ابن خازم وترك البلاد بلا امير فازداد عبد الله بن عامر غضباً عليه لتضييعه الثغر واهماله امر البلاد وقد شغب أهلها ونكثوا فضربه وحبسه . واستعمل ابن عامر عبد الرحمن ابن سمرة على سجستان فأتاها وأخذ بتدويخ البلاد التي نكث أهلها حتى بلغ كابل فحصرها أشهراً ونصب عليها مجانيق فثلم سورها ثلمة عظيمة فبات عليها عباد بن الحصين ليلة يجالد المشركين ويمنعهم عن سدّها حتى اصبح ولم يقدروا على سدّها وخرجوا من الغد يقاتلون فهزمهم المسلمون ودخلوا البلد عنوة . ثم سار عبد الرحمن الى زران وبست وخشك

فظفر بأهلها وفتحها كلها . ثم سار الى زابلستان وهي غزنة واعمالها وقد كان أهلها نكثوا أيضاً فقاتلهم وفتحها وعاد الى كابل وقد نكث أهلها ففتحها .

﴿ شيء من اخباره في البصرة ﴾

هذه فتوح ابن عامر وولاته في ولايته الثانية على البصرة . واما غير ذلك من اخباره فيها فقد كانت شوكة الخوارج يومئذ قويت وشرهم قد استشر فخرج منهم على ابن عامر سهم بن غالب الهجيمي في سبعين رجلاً منهم الخطيم الباهلي فنزلوا بين الجسرين والبصرة فمر بهم عبادة بن فرص الليثي من الغزو ومعه ابنه وابن اخيه . فقال لهم الخوارج من انتم ؟ قالوا قوم مسلمون . قالوا كذبتم. قال عبادة سبحان الله اقبلوا منا ما قبل رسول الله (ص) مني فاني كذبته وقاتلته ثم اتيته وأسلمت فقبل ذلك مني . قالوا انت كافر وقتلوه وقتلوا ابنه وابن أخيه . فخرج اليهم ابن عامر بنفسه وقاتلهم وقتل منهم عدة وانحاز بقيتهم الى اجمة (غيضة) وفيهم سهم والخطيم فعرض عليهم ابن عامر الامان فقبلوه فأمنهم فرجعوا . فكتب اليه معاوية يأمره بقتلهم فأبى وكتب اليه اني قد جعلت لهم ذمتك فقتلهم بعده زياد في ولايته

واستمر ابن عامر والياً على البصرة لمعاوية نحو ثلاث سنين وكان رؤوفاً بأهلها كريماً عليهم لين الجانب لا يأخذ على ايدي السفهاء منهم فتفسدت عليه البصرة ولم ينفعه اللين والحلم لا سيما في بلد كثر فيه الخوارج الذين هم اعداء كل سلطان والمناهضون لكل امير يضاف الى هذا ما فطر عليه القوم من الحرية وما اعتادوه من الجراءة على الامراء ومواجهتهم بقول الحق وأخذهم لهم بالهفوات

روى ابن عساكر عن أبي داود قال خرج عبد الله بن عامر الى الجمعة (أي صلاة الجمعة) عليه ثياب رقاق وابو بلال « هو مرداس ابن أُدَيَّة من رؤس الخوارج » تحت المنبر وذلك في يوم الجمعة فقال ابو بلال . انظروا الى اميركم يلبس لبس الفساق . فقال ابو بكرة وهو تحت المنبر . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من أهان سلطان الله في الارض اهانه الله)

لهذا واشباهه فسدت عليه البصرة فشكى ذلك الى زياد بن أبيه . فقال له جرد السيف . فقال اني اكره ان اصلحهم بفساد نفسي . وهذا منه منتهى العدل والتجافي عن الاستبداد بالناس والاخذ بالقوة الا انه نسب بذلك الى الضعف فعزله معاوية عن العمل وذلك ان ابن عامر أوفد وفداً من البصرة الى معاوية فوافقوا عنده وفد الكوفة وفيهم عبد الله بن ابي أوفى اليَشْكُرِيّ المعروف بابن الكواء فسألهم معاوية عن أهل العراق وعن أهل البصرة خاصة . فقال ابن الكواء يا أمير المؤمنين انّ أهل البصرة قد أكلهم سفهاؤهم وضعف عنهم سلطانهم .ثم أخذ يعجز ابن عامر ويضعفه. فلما علم معاوية حال البصرة عزم على عزل ابن عامر لكن لم يرَ مفاجأته بالعزل اما احتراماً له واعظاماً لشأنه واما تحاشياً لغضبه مع ميل الناس اليه وحب قريش له فكتب اليه كما في رواية ابن عساكر يسأله ان يزوره فقدم عليه وكان يأتيه ويتغدى عنده ثم دخل اليه يوما يودعه راجعاً الى عمله : فقال له اني سائلك ثلاثاً : فقال هي لك وانا ابن أم حكيم : قال ترد عليّ عملي (أي ولاية البصرة) ولا تغضب : قال قد فعلت : قال وتهب لي مالك بعرفة : قال قد فعلت : قال وتهب لي دورك بمكة : قال قد فعلت : قال وصلتك رحمٌ :

فقال ابن عامر واني سائلك يا أمير المؤمنين ثلاثاً فقل قد فعلت :

قال معاوية قد فعلت وانا ابن هند : قال ترد الي مالي بعرفة : قال قد رددت اليك مالك بعرفة : قال وتنكحني هند بنت معاوية . قال قد فعلت : قال ولا تحاسب لي عاملاً ولا تتبع أثري : قال قد فعلت :

هكذا نقلوا هذا الخبر بدون بيان لسبب طلب معاوية دور ابن عامر بمكة وعدم تردده فيما طلبه ابن عامر منه مع انّ معاوية لايفعل عبثاً وليس هو في حاجة لدور ابن عامر والسرّ في هذا انّ معاوية عارف بمكانة ابن عامر عند الناس وانه اصبح من رجال قريش النجباء ، وابنائهم العظماء ، وانه ممن يشار اليهم بالبنان ، لما اشتهر به من الكرم والاحسان ، يدلك عليه مارواه ابن عساكر عن قبيصة بن جابر قال : لما سأله معاوية عن من ترى لهذا الامر (يعني الخلافة) من بعدي : قال وأمّا فتاها حياءً وحلماً وسخاءً فابن عامر :

انّ بلوغ ابن عامر هذه المكانة من نفوس الأمة هو الذي دعا معاوية لان يتلطف بعزله ويطلب منه ماله في عرفة ودوره في مكة وذلك كي لايقصد بعد عزله مكة وكي يذهب ذهاب دوره منها بأمله في السكنى فيها والاقامة في ربوعها حيث يكون بعيداً عن نظر معاوية قريباً من عش النازعين الى الفتنة ومناهضة معاوية من قريش ولذا رأى معاوية من الحزم ايضاً ان يجيب طلبه لبنته وينكحها له استبقاء له عنده وتحت نظره وذا من جملة ما عرف عن معاوية من الدهاء والحزم والاحتياط وتألف الرجال وبمثل هذا الحزم صفت له الخلافة واستخلص لنفسه الملك واستلم قياد الرجال

﴿ باب ﴾

(ماذا كان منه في الفتنة)

لما كانت فتنة عثمان كان أشد أهل الامصار عليه أهل الكوفة وأهل

مصر وأما أهل البصرة فقد كانوا أخفهم عليه لان ابن عامر كان لحسن خلقه وكرمه يحبه الى الناس لهذا لما استُعفيَ عثمان من عماله كان فيما شرطوا عليه ان يقرّ ابن عامر على البصرة ليتحببه اليهم كما ذكر ذلك ابن عساكر ولما كثر الأرجاف بالعمال واستعرت نار الفتنة دعا عثمان (رض) ابن عامر مع من دعاه من عماله واستشارهم فيما يصنع كما مر الخبر عن ذلك بما يغني عن الاعادة ثم لما حوصر عثمان أرسل ابن عامر مجاشع ابن مسعود على جيش لانجاده حتى اذا كانوا بأداني الحجاز خرجت خارجة من أصحابه فلقوا رجلا. فقالوا ما الخبر. قال قتل عدوّ الله نعثل وهذه خصلة من شعره. فحمل عليه زفر بن الحرث وهو يومئذ غلام مع مجاشع بن مسعود فقتله فكان اوّل مقتول في دم عثمان ثم رجع مجاشع الى البصرة. فلما رأى ذلك ابن عامر حمل ما في بيت المال واستعمل على البصرة عبد الله بن عامر الحضرمي ثم شخص الى مكة فوافى بها طلحة والزبير وعائشة وهم يريدون الشام. فقال لا بل ائتوا البصرة فأن لي بها صنائع وهي ارض الاموال وبها عدد الرجال والله ولو شئت ما خرجت حتى اضرب بعض الناس ببعض. فقال طلحة هلاّ فعلت أأشفقت على مناكب تميم. ثم أجمع رأيهم على المسير الى البصرة فاقبل بهم اليها. هكذا روى ابن عساكر وروى الطبري في ذهاب ابن عامر الى البصرة وتحريضه القوم على قصد البصرة مثل ذلك وأنهم قالوا له قبحك الله. فوالله ما كنت بالمسالم ولا بالمحارب فهلا أقمت كما قام معاوية فنكتفي بك ونأتي الكوفة فنسد على هؤلاء القوم المذاهب. فلم يجدوا عنده جوابا مقبولاً

وانت ترى من هذا انّ ابن عامر كان محل الظن في ان يعمل عملاً كبيراً بعد قتل عثمان وتشتت رأي الأمة لانه كان من وجوه قريش وذوى

الكلمة العليا في الناس فلم يفعل من ذلك شيئاً واختار الحياد حتى وصل مكة فانضم الى طلحة والزبير لذا أنبه القوم على تركه البصرة مع قدرته على المقام فيها والاستقلال بعمل يدبره حتى استضعف جانبه لذلك كما يأخذ من رواية الطبري عن مسير امراء عليّ الى الامصار بعد البيعة له اذ جاء في تلك الرواية ما نصه

واما عثمان بن حنيف (اي عامل البصرة) فسار فلم يرده أحد عن دخول البصرة ولم يوجد في ذلك لابن عامر رأي ولا حزم ولا استقلال بحرب وافترق الناس بها فاتبعت فرقة القوم . ودخلت فرقة في الجماعة وفرقة قالت ننظر ما يصنع أهل المدينة فنصنع كما صنعوا . اه

فقولهم ولم يوجد لابن عامر استقلال بحرب فيه شبه استغراب أو تأنيب وانما يستغرب عدم الرأي والاستقلال ممن تظن فيه القدرة على العمل كما لايخفى على الناقد وكيفما كان الامر فان ابن عامر لم يستقل بعمل في الفتنة في بادئ الامر سواء كان لرغبته في الحياد أو لعدم الحزم فانضم الى طلحة وحزبه وعاد معهم الى البصرة وحضر وقعة الجمل ولو انفرد بنفسه في عمل لرأى اعواناً كثيرين لما ذكرناه من شهرته وميل القلوب اليه ولانه من وجوه قريش وأمجادهم كما يدلك عليه ما رواه ابن عساكر عن جُوَيْرِيَّة بن اسماء عمن سمعه يقول . قال عليّ بن أبي طالب يوم الجمل أتدرون من حاربت ؟ حاربت أمجد الناس أو أنجد الناس : يعني بن عامر : واشجع الناس : يعني الزبير : وأدهى الناس : يعني طلحة .

قال ابن عساكر بعد ان اورد حديث اقبال القوم الى البصرة ومعهم ابن عامر : فلما كان من امر الجمل ما كان وهُزم الناس جاء عبدالله بن عامر الى

الزبير فأخذ بيده فقال . أبا عبد الله أنشدك الله في أمة محمد فلا أمة محمد بعد اليوم أبداً : فقال الزبير خلّ بين المارين يضطربان فان مع الخوف الشديد المطامع : فلحق ابن عامر بالشام حتى نزل دمشق وقد قتل ابنه عبد الرحمن يوم الجمل وبه كان يكنى . فقال حارثة بن بدر بن العباس العدائي في خروج ابن عامر الى دمشق

اتاني من الانباء انّ ابنَ عامرٍ أناخَ وألقى في دِمَشْق المراسيا
يطيف بحمّامي دمشق وقصره فَمَيْشك انْ لم يأتِكَ القومُ راضيا

في ابيات

ولم يزل ابن عامر مع معاوية بالشام حتى ولاه البصرة كما ذكرنا ولم يسمع له بذكر في صفين كما قال ذلك ابن عساكر وغيره فهو قد اعتزل الفتنة منذ وقعة الجمل التي يظهر من قوله للزبير ما قال انه ندم على دخوله فيها وخشي على المسلمين من مغبّتها . وهذا ما وقفت عليه من اخباره في الفتنة والله اعلم

﴿ باب ﴾
(مآثره ومناقبه)

كان عبد الله بن عامر عالي الهمة جليل المآثر ومن مآثره العظمى التي خلدت له في بطون التاريخ أعظم الفخر ، وأشرف الذكر ، فتحه خراسان كلها واطراف فارس وسجستان وكرمان وهرات وزابلستان وهي غزنة واعمالها اي انه فتح قسماً من فارس الغربية المعروفة الآن بايران وأعاد فتحه وكذلك معظم فارس الشرقية المعروفة الآن بأفغانستان فقضى على دولة الفرس وقتِلَ في ولايته كسرى يزدجرد وانتهت ايام الدولة الساسانية في تلك المملكة الشاسعة الاكناف ، المترامية الاطراف ، ورفع الاسلام على ربوعها اعلامه .

وسادت على أهلها كلمته الى اليوم

بعد ان انتظم لابن عامر أمر الفتح وخلّد لنفسه هذه المنقبة سمت همته الى العمران ، ورمى بطرفه الى أقصى غاية في الاحسان ، فعول على جعل أراضي البصرة جنة تنبت الريحان ، وان يصل ما بين العراق والحجاز بالقرى العامرة . والمياه النابعة . لتذهب وحشة البادية من النفوس . وتمهد طريق القوافل . ويأمن ابن السبيل . وتسهل مسالك التجارة . فأخذ باحتفار الانهر في سواد البصرة فاحتفر كما في رواية ابن قتيبة ثلاثة أنهر: نهر البصرة الذي يمر في السوق : والنهر المعروف لذلك العهد بنهر أم عبد الله وهي أمه : ونهر الأبلّة : ثم بدأ بالبادية فاتخذ فيها النِباَج وهي قرية بالبادية فغرس فيها الغرس فكانت تدعى نباج ابن عامر : واتخذ القريتين وغرس بها نخلاً وأنبط عيوناً تعرف بعيون ابن عامر وبينها وبين النباج ليلة على طريق المدينة : وحفر الحفير ثم حفر السمينة واتخذ بقرب قباء قصراً وجعل فيه زنجاً ليعملوا فيه : وكلها أماكن ومياه بين البصرة والحجاز ازهرت جوانبها وسالت بهمته وجدّه عيونها . وكان يرمي بطرفه لأبعد من هذه الغاية لو استمر في ولاية البصرة . ويريد جعل القرى والمحطات . بين البصرة ومكة كالسلسلة المتصلة الحلقات . فقد نقل ابن قتيبة ان ابن عامر كان يقول : لو تركتُ لخرجت المرأة في حداجتها (محفتها) على دابتها ترد كل يوم على ماء وسوق حتى توافي مكة : وروى ابن عساكر وابن الاثير وابن عبد البر ان ابن عامر اتخذ الحياض بعرفة وأجرى اليها العين وسقى الناس الماء فذلك جار الى اليوم . واتخذ في البصرة السوق اشترى دوراً فهدمها وجعلها سوقاً : فهو كما أراد بشق الانهار احياء الارضين واستثمارها وترغيب الناس بالزراعة

وجنى خيرها أراد تمهيد السبل واقامة الاسواق ترويج التجارة وترغيب اهلها والقيام على شؤونها اداء لحق الرعية وقياماً بواجب الامارة والعدل هـذه الهمة التي لا مرتقي فوقها لهمة . والمنزلة التي لا متناول بعدها لذي احسان. فلقد بلغ ابن عامر باعماله غاية من الجد وتحري المصلحة والاتيان بكل ما هو نافع للأمة والدولة ليس وراءها متجاوز لعامل. فخيق به المدح . وحريٌ به الاقتداء .ولو سار كل عمال عثمان سيرته لاستحال على دعاة الفتنة والمنكرين على عثمان التذرع الى الايقاع به بسيرة العمال والطعن على الولاة فرحمه الله ورضي عنه .

﴿ كرمه ﴾

مناقب ابن عامر كثيره وأخلاقه كلها جميلة . قال ابن عبد البر في الاستيعاب . كان عبد الله بن عامر سخياً كريماً حليما ميمون النقيبة كثير المناقب : وقال ابن الاثير في أسـد الغابة : كان احد الاجواد الممدوحين : وأخرجه الثلاثة :

ولا جرم فقد كان من أخص صفاته وأعظم مناقبه شهرة بين النـاس الـكرم الذي تحلّى بحلاه ، وبلغ غاية مداه ، فانه كان موطأ الاكناف ، طويل اليد بالمعروف . رحب الصدر بالقاصد كثير الصلة خصوصاً لذوي قرابتـه من قريش . نقل ابن عساكر من رواية ابن اسحق قال . قدم ابن عامر على عثمان فقـال له : صلْ قومك من قريش : ففعل وأرسل الى علي ابن أبي طالب بثلاثة آلاف درهم وكسوة . فلما جاءه به قال (اي علي) : الحمد لله انا نرى تُراث محمد يأكله غيرنا : فبلغ ذلك عثمان فقـال لابن عامر : قبّح الله رأيك أترسل الى علي بثلاثة آلاف درهم : قال كرهت ان أغرقَ ولم أدرِ

ما رأيك : قال فاغرق : فبعث اليه بعشرين الف درهم وما يتبعها . فراح علي الى المسجد فانتهى الى حلقة وهم يتذاكرون صلات ابن عامر هـذا الحي من قريش . فقال علي هو سيدفتيان قريش غير مُدافع : قال وتكلمت الانصار فقالت ابن الطلقاء الا عداوةً . فبلغ ذلك عثمان فدعا ابن عامر فقال : أبا عبد الرحمن قِ عرضك ودار الانصار فألسنتهم ما قد علمت : فأفشي فيهم الصلات والكسا فأثنوا عليه . فقال له عثمان انصرف الى عملك . فانصرف والناس يقولون . قال ابن عامر وفعل ابن عامر : فقال عبد الله بن عمر اذا طابت المكسبة زكت النفقة :

و روى الطبرى عن سُحَيْم بن حفص قال : كان ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب شريك عثمان في الجاهلية فقال العباس بن ربيعة لعثمان : اكتب لي الى ابن عامر يسلفني مائة الف . فكتب فأعطاه مائة الف وصله بها وأقطعه داره دار العباس بن ربيعة اليوم :

وروى ابن عساكر عن ميمون بن مهران قال اراد ابن عمر شرا أهل بيت كان يعجبهم فأعطى بهم الف دينار فأبى عليه ذلك فاشتراهم عبد الله بن عامر بن كريز بعشرة آلاف دينار وأعتقهم

وهذه غاية من كرم الخلق وبسط اليد بالمعروف لا يبلغها الا القليل من الاجواد وانّ اعتاق أهل بيت برمتهم من الرق وبذل مثل ذلك الثمن فيهم لمطلق الاجر ، وبلا عوض الاّ حسن الذكر ، لعملٌ جليل محمود ، وأثر كبير ممدود ، فرحم الله تلك النفوس الطاهرة التي بلغت من الفضيلة والفضل مكاناً ليس وراءه غاية لمستزيد

ومن هذا القبيل أيضاً مارواه عن عبد الله بن محمد القروي قال اشترى

عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره التي في السوق ليشرع بها داره على السوق بثمانين او سبعين الف درهم فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد فقال لاهله : ما هؤلاء : فقيل له يبكون دارهم . فقال يا غلام فأتهم فأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعاً

وعن الاصمعي قال أرتج على عبد الله بن عامر بالبصرة يوم اضحى فمكث ساعة ثم قال: لا أجمع عليكم عيًا ولؤماً .من أخذ شاة من السوق فهي له وثمنها علي

وقيل لما ولي ابن عامر البصرة انحدر اليه صديقان له من أهل المدينة كان أحدهما عبد الله بن جابر الانصاري والآخر من ثقيف فاقبلا يسيران حتى اذا كانا بناحية البصرة قال الانصاري للثقفي هل لك في رأي رأيته . قال اعرضه . قال رأيت ان ننيخ رواحلنا ونتناول مطاهرنا ونمس ماء ثم نصلي ركعتين ونحمد الله على ما قضى من سفرنا . قال هذا الذي لا يرد . فتوضيا ثم صليا ركعتين فالتفت الانصاري الى الثقفي فقال . ياأخا ثقيف ما رأيك ؟ قال موضع رأي هذا قضيت سفري وأنصبت بدني وأنضيت راحلتي ولا مؤمل دون ابن عامر . فهل لك رأي غير هذا ؟ قال نعم اني لما صليت هاتين الركعتين فكرت فاستحييت من ربي ان يراني طالباً رزقاً من غيره . اللهم رازق ابن عامر ارزقني من فضلك ثم ولى راجعاً الى المدينة ودخل الثقفي البصرة فمكث اياماً فأذن له ابن عامر فلما رآه رحب به ثم قال ألم أُخبر أنَّ ابن جابر خرج معك [1] فخبره خبره فبكى

---

(١) نقل هذا الخبر ابن عساكر من طريقين قال في الاول منهما وكان لابن عامر رجل مقيم بالمدينة فكتب اليه بشخوص من شخص يريده ولا يقدم الرجل ألا على جائزة معدة : وهذا سبب قوله للثقفي ألم أخبر الخ الخبر

ابن عامر ثم قال . أما والله ما قالها اشراً ولا بطراً ولكن رأى مجرى الرزق ومخرج النعمة فعلم ان الله الذي فعل ذلك فسأله من فضله . ثم أمر للثقفي باربعة آلاف درهم وكسوة وطرف وأضعف ذلك كله للانصاري فخرج الثقفي وهو يقول

أمامة ما حرصُ الحريص بزائدٍ قتيلاً ولا زهد الضعيف بضائري
خرجنا جميعاً من مساقط روسنا على ثقةٍ منا بجود ابن عامر
فلما أنخنا الناعجات ببابه تأخر عني اليثربيُّ ابنُ جابر
وقال ستكفيني عطيَّة قادرٍ على ما يشاء اليوم بالخلق قاهر
وانّ الذي أعطى العراق ابن عامرٍ لربي الذي أرجو لسدّ مفاقري

في ابيات

ولقد كان ابن عامر لكرمه ولين شيمته ولما تعوّده منه قاصدوه من عدم المطل اذا أبطأ على أحدهم بالعطا عاتبه ثقة بسعة صدره ومؤكداً نواله ومن ذلك ما نقله ابن عساكر قال وعد ابن عامر أنس بن أبي أنس شيئاً وقد كان عوّده ذلك فطله فقام اليه بمكة في الموسم فقال

ليت شعري عن خليلي ما الذي غاله في الودّ حتى ودعَهْ
لا تهني بعدَ اذْ أكرمتني وقبيحٌ عادة منتزعه
واذكر البلوى التي أبليتني ومقالاً قلتهُ في المجمعه
لا يكن برقك برق خُلَّباً انّ خيرَ البرق ما الغيثُ معه

وفي ابن عامر يقول زياد الاعجم مادحاً له

أخٌ لك لا تراه الدهر الاّ على العلاّت بسّاماً جوّادا
أخ لك ما مودّته بمزقٍ اذا ما عاد فقر أخيه عادا

سألناهُ الجزيل فما تلكَّا وأعطى فوق مُنْيتنا وزادا
وأحسن ثم أحسن ثم عدنا فأحسنَ ثم عدتّ له فعادا
مراراً ما رجعت اليه الاّ تبسّم ضاحكا وثنى الوسادا

باب

وفاته

روى ابن عساكر عن عمر بن ميمون ان عبد الله بن عامر حين مرض مرضه الذي مات فيه دخل عليه اصحاب النبي (ص) وفيهم ابن عمر . قال ما تروني في حالي فقالوا ما نشك لك في النجاة قد كنت تقري الضيف وتعطي المحتبط [1] . وعن ميمون قال . بعث عبد الله بن عامر حين حضرته الوفاة الى مشيخة اهل المدينة وفيهم بن عمر فقال . اخبروني كيف كانت سيرتي . قالوا كنت تتصدّق وتعتق وتصل رحمك . قال وابن عمر ساكت. فقال يا أبا عبد الله ما يمنعك ان تتكلم . قال قد تكلم القوم. قال عزمت عليك لتكلمنّ . فقال ابن عمر اذا طابت المكسبة زكت النفقة وستقدم فترى .

قال ابن منده توفي النبي (ص) ولعبد الله بن عامر ثلاث عشرة سنة وتوفى هو سنة تسع وخمسين وقال الحافظ أبو نعيم انه توفى سنه ستين : وفي اسد الغابة انه توفى سنة ثمان وخمسين واوصى لعبد الله بن الزبير وروى ابن عساكر ان عبد الله بن عامر توفى قبل معاوية بسنة فقال معاوية : يرحم الله أبا عبد الرحمن بمن نفاخر وبمن نباهي :

وان رجلاً تفاخر به قريش ويقول به معاوية مثل هذا القول لرجل

---

(١) قال أبو عبيد المحتبط الذي يسأله عن غير معرفة كانت بينهما ولا يد سلفت منه اليه ولا قرابة

كبير جدير بالاعظام حقيق بتخليد الذكر فرحمه الله ورضي عنه وكان ابن عامر كثير المال والولد فكان له النباج الذي يقال له نباج بن عامر (مر ذكره) وله الجحفة وله بستان ابن عامر على ليلة من مكة وله آبار في الارض كثيرة كما ذكر ذلك ابن عساكر وروى عنه المحدثون حديثاً واحداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو (من قتل دون ما له فهو شهيد) [1] انتهى

حبيب بن مَسْلَمَةَ الفهري

باب

(نسبه ومولده ونشأته)

(نسبه)

هو حبيب بن مسلمة بن مالك الاكبر بن وهب بن ثعلبة بن وائلة بن عمرو بن شيبان بن محارب بن فهر بن مالك بن النضر القرشي الفهري يكنى أبا عبد الرحمن ويقال له حبيب الدروب وحبيب الروم لكثرة دخوله اليهم ونيله منهم

(مولده ونشأته)

ذكر في اسد الغابة انّ حبيب بن مسلمة كان له من العمر لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم اثنتا عشرة سنة . وقد كانت وفاة النبي (ص) في صفر من سنة (١١ هـ) ولذا فيكون مولد حبيب قبل الهجرة بسنتين فهو مكي المولد اسلامي النشأة . وقد اختلفوا في هل كانت له صحبة ام لا

---

(١) قال ابن عساكر في سبب روايته لهذا الحديث ان معاوية أراد ان يستصفي ماله وهو أمير على البصرة فقال ابن عامر والله لأقاتلنه دون مالي فقد سمعت رسول الله يقول . . الحديث

وأكثرهم يقول كان له صحبة الا انه لم يغز مع النبي (ص) وفي رواية لابن عساكر عن ابن أبي مليكة عن حبيب بن مسلمة الفهري انه أتى النبي (ص) بالمدينة فأدركه أبوه فقال: يا نبي الله يدي ورجلي. فقال له النبي ارجع معه فانه يوشك ان يهلك. فهلك أبوه في تلك السنة. وفي رواية له ايضاً انه رجع الى المدينة وغزا مع النبي آخر غزوة وهي غزوة تبوك وهذه الرواية تؤيد قول من قال ان له صحبة. وقد كان حبيب من اشرف قريش كما في رواية عن الزبير بن بكار ذكرها في أسد الغابة. بل كان من شجعانهم وسراتهم ورافعي راية مجدهم. والمبرزين في الحزم وحسن القيادة منهم. وهو على ما أرى في طبقة خالد بن الوليد وأبي عبيدة في الشجاعة والاقدام والاثر الجميل في الفتح ذلك لانه شب منذ نعومة الاظفار على الحرب، وألف من صغره الطعن والضرب، فقضى معظم أيام حياته في الحروب. فكان له في تشييد دعائم الاسلام في البلاد القاصية، والممالك النائية، جهاد طويل، وعمل في الفتح جليل، لا سيما في الجزيرة وارمينيا والقوقاس كما سترى بعدُ: ومما يدل انه نشأ من صغر سنه على الحرب ما رواه ابن عساكر انّ حبيباً ذهب في خلافة أبي بكر الى الشام للجهاد فكان على كردوس من الكراديس في اليرموك. لذا لما ادمن الحرب من صغر سنه نشأ قائداً محنكاً من اعاظم قواد الفتح في عصره كما يعلم ذلك من سيرته فيما يلي ان شاء الله

﴿ باب ﴾
(فتوحاته)

اختلف الرواة في هل انّ عمر بن الخطاب ولّى حبيباً في خلافته ام لا

والارجح ان أبا عبيدة بن الجراح في عهد ولايته على الشام ولاه انطاكيه ثم لما فتح عياض بن غنم الجزيرة كان حبيب على بعض جيوشه ولما ولى عمر ابن الخطاب سراقة بن عمرو على غزو الباب وكتب الى حبيب فيمن كتب اليهم بامداد سراقة سار حبيب من الجزيرة الى ارمينيا ومنها الى القوقاس كما مرّ الخبر عن ذلك فى الكلام على فتح ارمينيا والقوقاس وفتح هو وعبد الرحمن وسراقة وغيرهم من القواد بلاد ارمينيا ثم انتقضت ثانيـة فغزاها فى خلافة عثمان حتى أتم فتحها كما رأيت . وقد وعدنا فيما مضى بايراد الخبر عن مسير حبيب الى ارمينيا وفتحه فيها وما كان له من البلاء الحسن فى الحروب التي كانت للمسلمين فى الجزيرة وارمينيا فنقول

كان حبيب بن مسلمة مع أبي عبيدة بن الجراح فى حروبه فى شمال سورية ولما فتح أبو عبيدة انطاكية الفتح الثاني بعد انتقاضها ولى عليها حبيب ابن مسلمة فتولاها وقاد الجند بنفسه لأول مرة على ما أظن فقصد جبـل اللكام وكان فيه قوم اشداء يسمون الجراجمة فلم يقاتلوه بل بدروا بطلب الامان والصلح فصالحوه على ان يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح فى جبل اللكام وان لايؤخذوا بالجزية ما داموا من اعوان المسلمين وجندهم ودخل معهم فى هذا الصلح وعلى هذا الشرط كثير من الانباط وأهل القرى فكانوا يستقيمون تارة للولاة ويعوجّون أخرى حتى غزاهم مسـلمة ابن عبد الملك وأجلاهم عن جبـل اللكام وان ينزلوا حيث أحبوا من البلاد ويكونوا جنداً للدولة ويبقوا على نصرانيتهم ولا تؤخذ منهم الجزية وان يجرى عليهم الرزق كبقية الجند فنزل بعضهم حمص وبعضـهم تيزين (من عماله حماة) وغيرها . ولعلّ الحي الموجود الى هـذا العهد فى مدينـة

حماه المعروف بحارة الجراجمة ينسب الى اولئك القوم لانه نزل منهم فريق فيه

ثم لما سار عياض بن غنم الى فتح الجزيرة كان حبيب فى جملة قواده ففتح سميساط وقرقيسيا وقرى حولها ثم فتح شمشاط وملطية وغيرها ثم سار الى ارمينيا بأمر عمر ففتح منها ما فتح وذلك الفتح الاول الذي انتقضت بعده وقصدها مرة ثانية على عهد عثمان وقد بسطنا كيفية مسيره اليها وانه لما انتهى اليه سلمان بن ربيعة الباهلي الذي كان أرسله عثمان رضي الله عنه مدداً له سار حبيب من غرب ارمينيا وسلمان من شرقيها وقد ذكرنا مافتحه فى طريقه سلمان واوردنا الخلاف بين المؤرخين فى خبر ذلك الفتح وفى المكان الذي اجتمع فيه حبيب وسلمان وبقى ان نذكر ما فتحه حبيب بن مسلمة يومئذ حتى بلغ القوقاس من جهة الغرب كما بلغه سلمان من جهة الشرق

ذكرنا فى سيرة عثمان ان سلمان بعد ان فتح قاليقلا أجلبت عليه الروم بجموع عظيمة وانه بيتهم قبل وصول المدد اليه فاجتاحهم وذكر فى فتوح البلدان انّ حبيباً لما سار من قاليقلا بعد وصول المدد اليه نزل ماربالا فأتاه بطريق خلاط بكتاب عياض بن غنم وكان عياض قد أمّنه على نفسه وماله وبلاده وقاطعه على اتاوة فانفذه حبيب له ثم نزل منزلاً بين الهرك ودشت الورك فاتاه بطريق خلاط بما عليه من المال وأهدى له هدية لم يقبلها منه ونزل خلاط ثم سار الى الصيسانة فلقيه فيه صاحب مكس وهي ناحية من نواحي البسفرّجان فقاطعه على بلاده ووجه معه رجلاً وكتب له كتاب صلح وأمان ووجه الى قرى أرجيش وباذغيس من غلب عليها ثم أتى ازدساط واجتاز نهر الرس وأتى مرج دبيل وغلب على جميع تلك النواحي

حتى بلغ سراج طير وبفروند فاتاه بطريق دبيل فصالحه عنها على اتاوة يؤديها وعلى مناصحة المسلمين وقراهم (ضيافتهم) ومعاونتهم على اعدائهم : وهـذه صورة كتاب صلح دبيل

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من حبيب بن مسلمة الفهري لنصارى أهل دبيل ومجوسها ويهودها شاهدهم وغائبهم . أني امنتكم على أنفسكم وأموالكم وكنائسكم وبيعكم وسور مدينتكم . فأنتم آمنون . وعلينا الوفاء لكم بالعهد ماوفيتم وأديتم الجزية والخراج . شهد الله وكفى بالله شهيدا: وختم حبيب بن مسلمة :

وأتاه بطريق البسفرّجان فصالحه على جميع بلاده . وقصد السيسجان فحاربه أهلها فهزمهم وغلب عليهم وسار الى جرزان فأتاه رسول بطريقها وقدم اليه هدية وسأله كتاب صلح وأمان فكتب حبيب اليه

اما بعد فان (نقلى) رسولكم قدم علي وعلى الذين معي من المؤمنين فذكر عنكم انا أمة أكرمنا الله وفضلنا وكذلك فعل الله وله الحمدُ كثيراً وصلى الله على محمد نبيه وخيرته من خلقه وعليه السلام وذكرتم انكم احببتم سلمنا وقد قوّمت هديتكم وحسبتها من جزيتكم وكتبت لكم أماناً واشترطت فيه شروطاً فان قبلتموه ووفيتم به والاّ فاذنوا بحرب مِنَ الله ورسوله والسلام على من اتبع الهدى

وأنت ترى من مضمون هذا الكتاب كيف كان المسلمون يتجاوزون عن كثير من الضرائب التي كان يتناولها غيرهم من الدول الفاتحة ونقول ضرائب لان الهدايا التي كان يقدمها الولاة لارباب الدولة سواء كان في فارس او غيرها كانت كضريبة مقررة لامناص لهم منها يدلك عليه ما سبق ايراده

في أخبار الفتح من ذكر الهدايا التي كانت تقدم للامراء الفاتحين من المسلمين وكانوا يأبون قبولها الا اذا احتسبت من الخراج أو الجزية وما نعرف في تاريخ الصحابة أحداً قبل مثل هـذه الهدية دون احتسابها من الصلح الذي يصالح عليه العدوّ الاّ عبد الله بن عامر اذ قُدِّم لاحد امرائه في خراسان هدية فسأل سببها فقيل له هـذه عادة عندنا فأبى قبولها الا بعد استشارة الاحنف بن قيس الامير يومئذ من قبل ابن عامر فلما استشاره عنها أبى قبولها أيضاً وأمره ان يعرضها على ابن عامر فلما عرضها عليه أخذها : فقالوا ضمها القرشي وكان مضماً : اشارة الى عدم الرضا عنه بقبوله لها . وان مثل هـذه العفة من اولئك الفاتحين تدل على بلوغهم غايةً من العدل وحسن السيرة لا يبلغها غيرهم من رجال الفتح ودول الاستعمار ومن دقق النظر في تاريخ تلك الامة يعجب ممن عاصرها من المؤرخين ومن بعدهم من أهل الملل الاخرى في عدم انصافهم لها واعراضهم عن ذكر اخلاقها على الوجه الذي يقتضيه الحق والعدل لا الوجه الذي يقتضيه الغرض والتعصب الذميم

هـذا ثم أن حبيباً سار الى تفليس (عاصمة كرجستان) فصالحه أهلها وكتب لهم كتاب صلح هذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لاهل تفليس من منجليس من جرزان القرمز بالامان على أنفسهم وبيعهم وصوامعهم وصلواتهم ودينهم على اقرار بالصغار والجزية على كل أهل بيت دينار . وليس لكم أن تجمعوا بين أهل البيوتات تخفيفاً للجزية . ولا لنا ان نفرق بينهم استكثاراً منها . ولنا نصيحتكم وضلعكم على اعداء الله ورسوله

(ص) ما استطعتم وقِرىَ المسلم المحتاج ليلة بالمعروف من حلال طعام أهل الكتاب لنا . وان انقطع برجل من المسلمين عندكم فعليكم اداؤه الى ادنى فئة من المؤمنين الا ان يُحال دونهم . وان أنبتم وأقمتم الصلاة فأخواننا في الدين والاَّ فالجزية عليكم . وان عرض للمسلمين شغل عنكم فقهركم عدوّكم فغير مأخوذين بذلك ولا هو ناقض عهدكم . هذا لكم . وهذا عليكم . شهد الله وملائكته وكفى بالله شهيداً اهـ

ثم انَّ حبيبا فتح كسفربيس وسمسخي وخنان والجردمان وكستسجى وشوشت وبازليت وقلرجيت وثرياليت وخاخيط وخوخيط وأرطهال وغيرها من بلاد ايبريا وأرمينيا الغربية منها ما هو بالحرب ومنها ما هو بالصلح حتى بلغ القوقاس من جهة البحر الاسود كما بلغه سلمان من جهة بحر قزبين كما مر الخبر عن ذلك في سيرة عثمان (رض)

ولما فتح حبيب ما فتح من ارمينيا كتب الى عثمان بذلك فوافاه كتابه وقد نعي اليه سلمان فهمَّ ان يوليه جميع ارمينيا ثم رأى ان يجعله غازياً بثغور الشام والجزيرة لغَنَائه ونكايته في الروم فورد عليه كتاب عثمان يأمره بالانصراف فانقلب راجعاً الى الشام ونزل حمص ثم أخذه معاوية الى دمشق وكان يردد الغزو الى الروم وله في الحروب معهم بلاء حسن لما عرف عنه من الشجاعة والاقدام وحسن قيادة الجيوش فقضى كل أيام حياته في الجهاد . وتدويخ البلاد . فكان من خيرة قواد المسلمين . وأبطال الفاتحين كما رأيت من أخباره في فتح الجزيرة وأرمينيا فرحمه الله ورضي عنه

﴿ باب ﴾

(أخباره في الفتنة)

لما نزل بعثمان ما نزل كان حبيب بن مسلمة بالشام وأرسله معاوية لنجدته فلم يدركه بل قتل قبل وصوله الى المدينة

روى في التمهيد والبيان عن سعيد بن عبدالله الجمحي قال. قال حبيب ابن مسلمة رأيت فيما يرى النائم انّ بعيراً عربياً سميناً بينا هو قائم انتهى اليه اعراب مذلىَ (١) فأطافوا به نخفتهم عليه وصحت بهم فبادروه فعقروه ثم انتهبوه . فلما اصبحت اتاني أصحابي واني لأقصها عليهم إذ جاءني رسول معاوية فأتيته . فقال ياحبيب انّ عثمان قد تركَ منزولا به ولا أدري الى ما يتراىي هذا الأمر فتجهز وأعجل . فرجعت الى أصحابي فاخبرتهم الخبر واستكتمتهم الرؤيا فبينا نحن في ذلك قدم عليهم كتاب آخر وقد حصرَ . فأرسل الي (اي معاوية) واخبرني الخبر وأخرجني فخرجت فأقمت لأصحابي بالطريق حتى يلحقوني

وروى عن أبي حارثة وأبي عثمان قالا . لمّا أتى معاوية الخبر أرسل الى حبيب بن مسلمة الفهري فقال . انّ عثمان قد حصرَ فأشر عليّ برجل ينفذ لأمري ولا يقصر . فقال ما أعرف ذلك غيري . قال أنت لها فأشر عليّ برجل أبعثه على مقدمتك لا يُتهم رأيه ولا نصيحته أعجله في سرَعان الناس . وقال أمِنْ جندي أم من غيرهم ؟ فقال من أهل الشام . فقال ان أردته من جندي أشرت عليك وان كان من غيرهم فاني أكره ان أغرك بمن لا علم لي به . فقال فهاته من جندك قال يزيد بن شجعة (أو مشجعة) الحميري .

---

(١) اي خائفون غير مطمئنين

قال كما تحب . فانهم لفي ذلك اذ قدم الكتاب بالحصر (لعله كتاب عثمان) فدعاهما ثم قال لهما . النجاة سيرا فأغيثا أمير المؤمنين وتعجل يا يزيد . فان قدمت ياحبيب وعثمان حيّ فهو الخليفة والأمر أمره فانفذ لما يأمرك وان وجدته قد قُتل فلا تدعن أحداً أشار اليه ولا أعان عليه الا قتلته وان أتاك شيء قبل ان تصل فأقم حتى أرى من رأي . وبعث يزيد بن شجعة فامضاه على المقدمة في الف فارس على البغال يقودون الخيل معهم الأبل عليها الروايا (القرب) واتبعهم حبيب بن مسلمة وهو على الناس . وخرجوا جميعاً وأغذ يزيد السير فانتهى الى ما بين خيبر والسقيا فلقيه الخبر ثم لقيه النعمان ابن بشير بالخبر ومعه القميص الذي قتل فيه عثمان (رض) مخضب بالدماء فرجع يزيد وحبيب :

وفي هذا الخبر مايدل على اهتمام معاوية بامر عثمان واسراعه في انجاده منذ وصله الخبر خلافاً لما جاء في بعض الروايات من انه تباطأ في اغاثة عثمان (رض) والله أعلم

هذا وقد ذكر بعض الرواة ان حبيباً حضر وقعة صفين مع معاوية ولم يزل معه في حروبه وقال أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب : روينا انّ الحسن بن عليّ رضي الله عنهما قال لحبيب بن مسلمة في بعض خرجاته بعد صفين . ياحبيب رب مسير لك في غير طاعة الله . فقال له حبيب . امّا الى أبيك فلا . فقال له الحسن بلى والله ولقد طاوعت معاوية على دنياه ، وسارعت في هواه ، فلئن كان قام بك في دنياك ، لقد قعد بك في دينك ، فليتك اذ اسأت الفعل ، أحسنت القول ، فتكون كما قال الله تعالى (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً) ولكنك كما قال

لله تعالى (كلا بل رَانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون) على انه مما يضعف سند هذه الرواية شهرة حبيب بالصلاح وحسن اعتقاده بعلي وعثمان وانه من فريق المعتدلين الذين قالوا بتولي عثمان وعليًا ولا نتبرأ منهما ونشهد عليهما وعلى شيعتهما بالايمان ونرجو لهم ونخاف عليهم كما روى ذلك ابن عساكر في حديث مرّ معنا ذكره في أخبار الفتنة ولو فرضنا صحة خبر أبي عمر الذي قال فيه حبيب للحسن ما قال لكان ذلك الخبر دليلاً واضحاً على انّ كل فريق من المختلفين في الفتنة كان يرى نفسه على حق إذ لا يتأتى لمثل حبيب بن مسلمة على تقواه وطول جهاده وشهرته بالصلاح ان ينضم الى معاوية وهو يعتقد انه على غير حق ويقول للحسن ما قال واما انّ معاوية طالب دنيا وعليّ طالب آخرة فلا يمنع ذلك كل حزب من أحزابهما من الاعتقاد بفضل صاحبه وانه أهل للخلافة ما دام كل منهما يطالب بها ويقاتل عليها الا ان هناك فرقاً بين عليّ ومعاوية في انّ الاول يطلبها بحق البيعة التي وقعت له وبحق الصحبة القديمة وشرف القرابة من الرسول (ص) ولو تمت له لكان خيراً للمسلمين وأبقى على أصول الشورى الانتخابية . والثاني يطلبها بالقوّة والخلافة التي تؤخذ بالقوة مصيرها الى الاستبداد ولكن ليس لهذا نصر معاوية حبيب وأمثاله من وجوه المسلمين وصلحائهم بل لمحض الاعتقاد بأهلية معاوية ولأن القوم لم يكن يعتقد بعضهم العصمة أو النبوة أو ألوهية في البعض الآخر كما حدث ذلك بعدُ بين المسلمين بل كانوا يرون انهم كلهم في الاسلام والصحبة سواء وان امتاز بعضهم عن بعض بالفضائل الشخصية والخصال الجميلة لذا كان مما يدلك على انّ حبيباً وأمثاله لم يمالئوا معاوية الاّ لمحض الاعتقاد الحسن به لا لغرض آخر وان حبيباً كان

لا يزال يطالب معاوية بسنة أبي بكر وعمر حتى مات كما سترى بعد وهذا مايدعونا الى ان نحسن الاعتقاد بكل الصحابة الذين كان لهم يد مع عليّ أو معاوية وضلع في تلك الفتنة ولو جزمنا بأن علياً كان أحق من معاوية اذ ان كل فريق من المتحاربين يومئذ كان يرى لصاحبه من الحق ما لم نره نحن وما يوجب انتصاره له والانضمام اليه فحكمنا على فريق بأنه على غير الحق حكم على الفريق الآخر كما بسطنا الكلام على هذا في أكثر من محل من هذا الكتاب وانما عدنا الى الاشارة اليه تنبيهاً للشيع الاسلامية التي لا يزال بعضها يغلو في مدح بعض الصحابة والاعتقاد بهم غلواً ينزلهم في منزلة الانبياء . ويغلو في وصم بعضهم بكل شنيعة غلواً ينزلهم في منزلة العامة والدهماء . وكلا الامرين تفريط وافراط يعيبان تاريخ الامة لا سيما منها أهل ذلك الصدر الذين سبق لهم من الفضل على المسلمين في بث دعوة الاسلام . وتدويخ الممالك والبلدان . وتأسيس بنيان الدولة التي نشرت على معظم الارض جناح السلطان . مايوجب على كل فرد من أفراد المسلمين عنده ذرة من العقل . وقليل من الانصاف . ان يقدرهم قدرهم . ولا يبخسهم من الثناء حقهم . ويعترف على ملأ الشعوب بفضل كل فريق منهم والتنويه بكل خصلة حسنة لكبارهم وقادة الأمر منهم . اعلاء لشأنهم . وتنويهاً بجليل عملهم . وجميل صحبتهم . وسداً لذرائع القدح فيهم ممن يحاول احتقار أعمالهم . واستصغار أقدارهم . من خصوم المسلمين من أهل الملل الأخرى والله يتولى هدانا جميعاً . وهو خير المرشدين

---

*

باب

(شيء من سيرته)

أجمع الرواة على انَّ أهل الشام كانوا يثنون على حبيب بن مسلمة ثناءً حسناً ويعتقدون فيه منتهى الصلاح لهذا كانوا يقولون كان مجاب الدعوة

ومما يدلك على صلاحه ما رواه ابن عساكر انَّ حبيباً دخل العلياء (١) بحمص فقال . وهذا من نعيم من ما ينعم به أهل الدنيا ولو مكثت فيه ساعةً لهلكت ما انا بخارج منه حتى استغفر الله تعالى فيه الف مرة . قال فما فرغ حتى أُلقي الماء على وجهه مراراً (لعله لانه كان يغشى عليه) . ومن شدة تقواه وصلاحه كان دائما يلح على معاوية بالعمل بسيرة ابي بكر وعمر . وكان معاوية يخشاه لهذا السبب فقد روى ابن عساكر عن ابن عجلان قال. لما أتى معاوية موت حبيب بن مسلمة سجد ولما أتاه موت عمرو بن العاص سجد فقال له قائل . يا أمير المؤمنين سجدت لوفدين وهما مختلفان . فقال اما حبيب : فكان يأخذني بسنة ابي بكر وعمر : واما عمرو بن العاص : فيأخذني بالامرة الامرة[٢] فلا أدرى ما أصنع

(وفوده على عمر وولايته)

روى ابن عساكر من طرق ان حبيب بن مسلمة كان يلي الصوائف على عهد عمر ويبلغ عمر عنه ما يحب ولم يثبته (اي بالجيش) حتى قدم عليه في حجة وكان تام القامة فسلم على عمر : فقال له انك لفي قناة رجل قال اني والله

---

(١) قوله علياء يظهر من قرينة الكلام الذي جاء قبله انه اسم حمام بحمص او لعله بستان فليحرر

(٢) وفي رواية احداهما كان يقول الامرة الامرة والآخر يقول السنة السنة

وفي سنانها : وفي رواية انه قال له انك لجيد القناة : قال وجيد سنانها : قال عمر افتحوا له الخزائن فليأخذ ما شاء : ففتحوها له فعدا عن الاموال وأخذ السلاح . وفي رواية لابن عساكر ان عمر لما عزل عياض بن غنم عن الجزيرة ولى حبيب بن مسلمة وضم اليه ارمينيا وأذربيجان ثم عزله وولى عمير بن سعد الانصاري وسعيد بن عامر بن حذيم . وقد كان كثير الغزو الى الروم والنكاية فيهم فدخل مرة ارض الروم على جيش فاهتم عمر بأمرهم فلما بلغه خروج حبيب ومن معه خرّ ساجداً لله

ولأدمان حبيب الحرب اصبح مشهوراً بالشجاعة سبوباً من الناس منوها باسمه على السن الشعراء وفيه يقول حسان بن ثابت بعد حادث عثمان (رض)

يا أيها الناس أبدُوا ذات أنفسكم لايستوي الصدقُ عند اللهِ والكذبُ
قوموا بحق مليك الناس تعترفوا بغارة عصبٍ من بعدها عصبُ
فيهم حبيبٌ شهابُ الموتِ يقدمهم مستلئماً قد بدا فى وجهه الغضبُ

وفيه يقول شريح بن الحارث من ابيات

ألا كلّ من يدعى حبيباً وان بدت مروّته يفدي حبيبَ بني فهر

—o باب o—

(وفاته وولده)

فى رواية لابن عساكر ان حبيباً دخل الحمام فأطال المكث فيه فمرض مرضه الذي مات فيه وقد اختلف المؤرخون فى محل وفاته فقال البلاذري فى فتوح البلدان انه لما أمره عثمان بالانصراف الى الشام نزل حمص فنقله معاوية الى دمشق فتوفى فيها سنة (٤٢ هـ) وهو ابن ٣٥ سنة . وقال ابن

عبد البر انّ معاوية وجهه الى ارمينيا والياً عليها فتوفى فيها سنة (٤٢ هـ) وكذلك قال ابن سعد وابن عساكر وانه مات فيها ولم يبلغ الخمسين . فرحمه الله ورضي عنه

(ولده)

روى ابن عساكر عن أبي زرعة عبد الرحمن بن عمرو قال . لحبيب بن مسلمة ولد كثير عندنا بحوران من جند دمشق ومنزلهم بطرف من اطراف حوران كثير عددهم وقد كان بعضهم يصير اليّ فى منزلي :

انتهى ما وصل اليه علمنا من سيرة حبيب بن مسلمة الفهري وبه ينتهي الجزء الرابع

فهرست

*